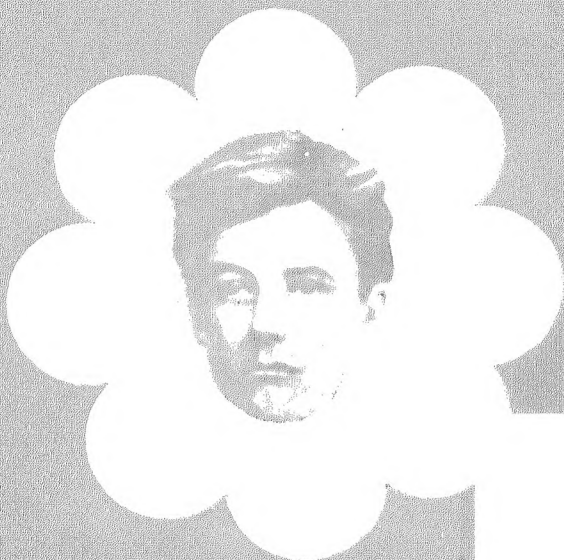


سلسلة اعلام الفكر العالمي



إمبو

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

تأليف: سمير الحاج شاهين

رامبو

سلسلة اعلام الفكر العالمي

رامبو

تأليف: سمير الحاج شاهين

جميع الحقوق محفوظة
للمؤسسة العربية للدراسات والنشر

الطبعة الاولى
تموز (يوليو) ١٩٧٧

١ - طفولة

« العبقريّة هي الطفولة المستعادة قصداً »

بودلير

ليست النزعة الشعريّة عند الانسان سوى القدرة على التعبير عن روح الطفولة الكامنة فيه . فمن خلال بعض لحظات خاطفة من الفرح هي التي تجدد نضارة القلب ، وتحيي خصوصيّة الروح ، وتبعث الطفل الهاجع في اعماق كل منا ، يتبدى لنا العالم تحت نور جديد ، وننظر اليه بدهشة وحماسة الاطوار الاولى من العمر . اذ اننا ، باجتيازنا نظام الزمان الذي يعيش فيه الانسان البالغ ، نصل الى النظام الآخر الذي يحيا فيه الطفل وهو نوع من الابدية المسحورة ، التي هي العدسة الوحيدة القادرة على التقاط الجمال وتسجيل انعكاساته . كما انه مناخ فردوسي عامر بالثقة والطمأنينة ، مملوء بالحب والتعاطف البشري ، حافل بالسر والفضول ، غني بالامل والاحلام . وما العبقريّة الغنية الا الطاقة على اصطياد كل ما يمر على شاشة وعينا في مثل هذه اللحظات المباركة ، حين يسفر الكون عن كنوزه الدفينة ، ويكشف عما يخبئ به من مادة شعريّة كانت محجوبة عن عيوننا من قبل . يتساءل بودلير :

— « ١٠٠٠ ليس من السهل علينا ان نبرهن ، بفضل مقارنة فلسفية بين اعمال فنان ناجح وحالة روحه حين كان طفلا ، على ان العبقرية ليست سوى الطفولة وقد افصح عنها بوضوح ، وزودت الآن لتعبر عن نفسها باعضاء رجولية وقوية ؟ ٠٠٠ »

وهو يدعو الفنان الى العثور على :

— « ٠٠٠ رؤية طفولية ، يعني رؤية حادة ، سحرية ، لفرط ما هي بريئة ٠٠٠ »

ان الكثير من المفكرين ، اليوم ، يؤيدون رأي بودلير هذا دون تحفظ . ألم يقل فرنسوا موريك بأن القدر الرائع والمخيف بذات الوقت ، الذي عرفه شعراء من امثال بودلير وفوليرين ورامبو ، يكمن في هذه الموهبة الفذة والفضيلة التي تجعلهم عاجزين عن ان يشيخوا ؟ ألم يعلن اندريه بريتون بأن الروح التي تغوص في السيريالية يتاح لها الفرصة كي تعيش ، من جديد ، بحماس ، افضل جانب من طفولتها ، وتستعيد باقل من لحظة كل مجرى حياتها الماضية ، كما يحصل لانسان موشك على الغرق . وان ذكريات الطفولة تولد فينا شعورا منزها عن الانانية هو اخصب المشاعر على الاطلاق ؟ ألم يصرح :

— « ٠٠٠ ربما كانت الطفولة هي التي تدنينا اكثر ما يكون من الحياة الحقيقية ، الطفولة التي لا يملك الانسان ،

فيما وراءها ، بالاضافة الى تأشيرة مروره ، سوى بعض بطاقات الحظ ، الطفولة التي يتضافر كل ما فيها ، مع ذلك ، على جعلنا نمتلك ذاتنا بفعالية وبدون موارد ٠٠٠ ،

وان هذه الحقيقة لتنطبق اكثر ما يكون على فنان كرامبو استاثر دون معظم الشعراء بامتياز فريد، هو المحافظة على حالته الطفولية البريئة المدهوشة حيال الاشياء ، ونضج فكريا وشعريا قبل ان يخرج من هذه المرحلة المهنوءة من العمر ، وانجز كل انتاجه تقريبا وهو لم يكد يبلغ سن الرشد . كما انه ثابر دائما على رفض المفاهيم والمعلومات التي لقنوه اياها ، وكل العادات والتقاليد المفروضة عليه من خارج . ان اغلبية الكتاب يحتاجون كي يستعيدوا فردوس الطفولة المفقود ، وينتقلوا الى عالمها المسحور ، ويبثوا في نتاجهم شيئا من روحها الالهية ، الى ان يبذلوا مجهودا اراديا ، وان يلجأوا الى الذاكرة . بينما رامبو لا يحتاج الى تكليف نفسه مثل هذا العناء : انه طفل من حيث النظرة الدهشة المسحورة المفتونة التي يلقيها على الكون ، وانسان ناضج من حيث القدرة على التعبير عن هذه الرؤيا . وهنا يكمن سر الاعجاز في شعره ، الذي يتميز بكل صفات الطفولة : الطهارة ، البراعة ، السذاجة . ويكل مقومات النضوج الفني : البراعة ، المهارة ، العمق . وهذا مما يسمح له ، وهو امر نادر للغاية ، ان ينقل تجاربه بكل نضارتها ، وشبابها الفكري في اللحظة ذاتها التي يعيشها فيها . مما حدا بالناقدة اميلي نوليه الى ان تقول عنه :

— « ٠٠٠ ان كل مجهوده يتلخص في تمديد زمن الطفولة ، المطلق ، العبقري ، زمن الخلق هذا ، عندما يكون الخلق متصلا وطبيعيًا • بأية طرق يمكننا ايقاظ ، اشارة الاختراعات والتقنيات الطفولية، عندما تأتي اللحظة الاخرى، حين ، وهي نضرة بعد ، وهي حاضرة بعد ، نكون بالمقابل قد اصبحنا قادرين على التعبير عنها ؟ هنا ، في التحالف بين مزايا عمر خلاق ومزايا عمر التعبير ، اللذين لا يتوافقان ابدا ، في الواقع ، يكمن بحث رامبو ومهمته ، فشله وسعادهته ٠٠٠ » •

نعم ان رامبو هو ذلك الطفل العاجز عن بلوغ مرحلة النضج والرجولة دون ان يفقد في الطريق خير جزء من نفسه ، وافضل ناحية من مواهبه • ان النعمة التي اغدقتها عليه الطبيعة بسخاء هي اسطورة الطفولة ، نعمة الاستغراق كلية في نشوة الاحساس التي يذوب فيها بشهوانية وصوفية، ويعثر فيها للحظة خاطفة ، على الوهم بغبطة خالدة خارج نطاق الزمان والمكان • نعم :

— « ٠٠٠ لقد خلق رامبو ليستمر طفلا خلال الحياة ، طفلا بقلبه الطاهر والشرير ، ببراءته وطفانيته ٠٠٠ »

على حد تعبير جاك بريفيير •

بهذا المعنى نجد ان الاصاله الفنية والصفاء الفكري يكون موجودا في كل الشعراء في مستهل حياتهم الادبية ، لكن اللهجة تخف حدة وبكارة مع مضبي السنين • انها تربح من

العمق ما تخسره من العفوية • حتى اذا ماتت روح الطفولة في الكاتب كف الفن عن ان يكون بالنسبة له تعبيراً فذا عن ذاته في مواجهة النظام القائم • وهكذا الفى رامبو نفسه عاجزاً حين بلوغه سن الرشد عن الاحتفاظ بسر الطفولة ، وقدرتها العجيبة على رفض كل امر والقاء نظرة جديدة كلية على الكون والاشياء • فمر في ازمة روحية حادة مبعثها اكتشافه لعالم الرجال الواقعي مع ما يستتبع ذلك من التخلي عن كل القيم العليا والمثاليات والحقائق المطلقة التي كان يؤمن بها • ان الانتقال من فردوس الطفولة الآمن الحالم حيث الحقيقة السامية والقدرة الفائقة والخصوبة والطهارة الاصلية ، الى ارض النضوج المضطربة القلقة حيث الواقع المبتذل والعجز الجذري والنضوب والانحلال والتفسخ ، مؤلم جداً بالنسبة لانسان مرهف الحساسية كرامبو ظل الطفل حياً فيه ، ولم يكن قط مؤملاً لان يصبح رجلاً ، انسان مفطور على حياة الشعر والحلم والخيال ولا قابلية له على خوض غمار الحياة الواقعية العملية العادية •

ان عبقرية رامبو مرتبطة بطفولته التي ما ان اجتاز عبثها حتى ماتت شاعريته • ان رامبو لم يهجر الشعر ، ان الشعر هو الذي هجره • تقول سوزان برنار بهذا المعنى :

— « ٠٠٠ لان المراهق الذي اراد ان يخلق عالماً جديداً بفضل سحر الكلمة الشعرية قد بلغ الآن طور الرجاء • كل البشر تقريباً شعراء عندما يكونون اطفالاً ، لكن قليلون هم الذين تعيش فيهم المقدرة العجيبة على اعادة خلق الواقع ،

بعد سن العاشرة • عند رامبو ايضا الينبرج نصب معينه
ذات يوم ٠٠٠ » •

ان سر رامبو هو انه رفض بعد ان ماتت روح الطفولة
فيه ان يستمر في الكتابة ، وان ينتج قصائد فكرية جافة
كتلك التي ينظمها الشعراء بعد خروجهم من مرحلة الشباب
الروحي والنضارة الفكرية ، والتي يصرون بواسطتها على
مواصلة العطاء والعيش بعد انطفاء الجذوة الشعرية في
صدورهم • هو كان امينا مع نفسه وآثر الصمت • وكما
يعتقد ايف بونغواي :

— « ٠٠٠ من المحتمل جدا ان فرصة اعادة اختراع
الحب قد اختفت الى الابد مع السذاجة الطفولية ٠٠٠ ان
رامبو يكف عن الكتابة عندما تحرمه نهاية الطفولة ، الملزمة
اكثر من اي قرار فكري ، من الامل في تغيير الحياة ٠٠٠ » •

وهكذا نرى ان الكثير من قصائد رامبو الاخيرة تدور
حول موضوع حالة اللاوعي والجفاف الروحي والفقر
الشعري ، التي يعاني منها بعد خروجه من مرحلة الطفولة
وقابليتها الهائلة على الدهشة والحماس ، وهذا خاصة في
« الاشراقات » حيث نجد قصيدة « صبا - ٤ » • مثلا تصور
هبوط الاندفاع الداخلي وفتور الهممة ، همود الحتمية
والاغواءات الجنسية العديدة التي تراود الشاعر في عزلة
غرفته الموحشة المضجرة ، نوبات الغرور والكبرياء الخطرة
التي تنتابه ، وحالات الضعف والخوف التي يمر بها لكنه

يؤمل ان يستعيد روح الطفولة الخصبة بالوحسي والالهام .
وعندئذ يصبح حساسا لما يحتوي عليه الكون من جمال
مدهش وانسجام رائع . وتبدو له الكائنات محاطة بهالة
نورانية عجيبة ، راقلة في حلة سنية من الكمال والطرافة
والاثارة والتشويق . وعندئذ تستيقظ غريزة احلامه وحاسة
فضوله ، وتخريه بالنفاذ الى اسرار البشر ، الذي لم يكن
ليعيرهم اهتماما من قبل ، واكتناه جوهر المشاهد الساحرة
التي تمر امام ناظريه . وتصير ذاكرته وحواسه ، وقد
ارھقت وانتعشت ، بمثابة وقود تغذي طاقته الابداعية . فاذا
ما خرج من غرفته بعد هذا الانخراط الروحي العميق وبعد
هذا الاشراق الفكري الخصب ، وجد ان العالم قد تغير في
نظرة ، واكتسى بوشاح اخاذ من الجلال والروعة ، ولم يعد
محفوظا بأي من مظاهره المألوفة السابقة .

وهذه قصيدة « صبا - ٣ » المعنونة « عشرون عاما »
يصف فيها رامبو نفسه وقد بلغ العشرين من العمر . لقد زال
الان سحر الحياة القديم . ان الحماس والنضارة الروحية ،
ان الخفة والرشاقة والحيوية الجسدية التي كان يتمتع بها
في عهد الحداثة والصبا الباكر ، يكبح جماحها وتتحول في
مثل هذه السن الى بلادة ومرارة وخيبة . سقى الله ايام
الطفولة بتفاؤلها الدائب ، وانانيتها اللامتناهية ، وتخففها
من المسؤوليات والاعباء والواجبات . كم كانت الحياة تبدو
جميلة في مثل هذه الفترة من العمر ، غنية بالوعود ، ومليئة
بالمكانات :

- « ٠٠٠ كم كان العالم مليئاً بالزهور ذلك
الصيف ٠٠٠ » ،

كانت الاجواء متحررة من جاذبية وكثافة الارض ،
والاشياء والاشكال متجردة من ثقلها المادية . كنا اقل
شعوراً بالزمان والمكان . وكان القلب ، العامر بفائض من
الفرح يكفي لتغطية اي نقص او عيب في الوجود ، ولتهدئة
كل الحسرات والاورجاع ، جوقة مسحورة تعزف اناشيد الامل
والاماني ، وتخلق سببا للسعادة من لا شيء . ولم تكن
الاعصاب لتتوتر وتضطرب كما تفعل الان ، بل سرعان ما
كانت تهذا وترتاح .

اما في قصيدة « حرب » من « الاشراقات » فان رامبو
يصرح بأن حاسة الجمال كانت مرهفة جدا عنده وهو طفل ،
حين كان يملك حساسية حادة بالتغير والجدة والدهشة وسرعة
الوقت ، غنية بالانفعالات تهتز كالقصبه لآقل نسمة هواء .
اما الان بعد ان شب وكبر ، فلقد صارت الدقائق تتعاقب علي
منوال واحد بالية ورتابة وبطء ، حتى لقد بات يشعر بغربة
عن العالم ويعاني من كل ضغوط المعيشة واعبائها البغيضة .
هذا مع انه لا يزال يملك قابلية على الوجد والانفعال والحياة
الزاخرة الغنية ، اذ ان روح الطفولة لم تمت فيه كلية ، وهو
يفكر بالكفاح من اجل استعادتها واسترجاع امتيازاتها
الضائعة وفردوسها المفقود ، وكنوزها التي لا تقدر بثمن .
كما انه يعلن في مطلع « فصل في الجحيم » انه فيما

مضى ، ربما في ايام الصغر ، كانت الحياة تتراءى في عينيه عيدا مسحورا • كان يحب الناس وكان الجميع يبادلونه الود • وكانت النشوة تسكب خمورها المتعددة في قلبه الجذلان • لكن ها هو يستيقظ فجأة من احلام هذه المرحلة الهنيئة فاذا به عاجز عن الاستمتاع بالجمال ، ثائر على ظلم هذه الحياة متمرد على قوانينها ، معاد لانظمتها ، واذا بنزعته الى الهرب تشتت ، فيسلم امره لشياطين الغواية والبؤس والحدق ، ويتوصل الى ان يخنق بكلتا يديه وبملاء ارادته كل اشعاع امل في نفسه ، ويقضي بتهور ووحشية على كل امكانية وسعادة • انه يستدعي اللعنة ويستجلبها على رأسه كي يتاح له وهو يغني ان يصرف هذه الثورة التي يجيش بها صدره ، وان يفجر براكين النقمة المتأججة في داخله • انه يستثير الاوبئة والكوارث والمصائب كي يطفئ في لججها هذه الحمى المسعورة المضطربة في اعماقه الدفينة • انه واقع تحت سطوة اله الشر ، خاضع لسلطانه ، ولقد تمرغ في حمأة الرذيلة ، ارتاد افاق الجريمة وترنج على شفير الجنون • وكان يتفق له ، عندما يتخلص من احدى هذه الكوابيس ، ويخرج من احد هذه الاجواء الجهنمية ان يهزأ من نفسه بضحكة بلهاء مخيفة • حتى اذا ما وصل الى قعر الهاوية ، وسبر غور الالم بأصبعه ، اذا ما انحدر الى الدرك الاسفل وشارف على الموت ، فكر في البحث عن المفتاح الذي يلج بواسطته الى وليمة السعادة القديمة حيث يستعيد قابليته للحياة ، ويشق في وجهه منفذا للخلاص • فوجد ان المحبة هي هذا المفتاح • انها تلك الناحية الروحية الالهية من الانسان التي ينتقل من

يعبر اليها الى ضفة النور والخير ، حيث يغمره الفرح
 ويتراءى له كل شيء جميلا . فيتصالح مع الكون ويعصف
 الامل بشراعه ويغمره الايمان والطمأنينة من كل جهة . انها
 الفضيلة التي اوصى بها الله كل هالك تتوق نفسه الى النجاة .
 انها النعمة المنشودة ، والملاذ الاخير . لكن هل هو جاد .
 وهل بمقدوره بعد ان يعتمد على هذه العاطفة المقدسة ، ويطا
 هذا الفردوس المفقود ام انه يهذي ؟ ان الشيطان الذي
 يستعبد روحه سرعان ما يصرخ في وجهه : ستبقى من
 اتباعي . لن تتمكن ابدا من استرجاع طهارتك المدنسنة ،
 والالتحاق بذلك الجانب الملائكي من كيائك ، والتقلت من
 اساري . فعبثا ما تخدر نفسك بهذه الاوهام الباطلة . لا امل
 لك بالخلاص ، وستنزل الى القبر مثقلا بكل شهواتك البهيمية ،
 وانانيتك ، ورذائلك ، وخطاياك . لقد اخذ رامبو بما فيه
 الكفاية من جرعات هذه السموم . وهو يستعطف الشيطان
 ويرجوه ان يتراف بحاله ويدعه يتنفس قليلا ، ويمن عليه
 بهدنة قصيرة يعود بعدها الى وضع النير على رقبتة ، وتحمل
 كل الآلام التي تكون قد استحققت عليه اثناء هذه الاجازة
 الخاطفة التي منحه اياها جلاده .

وما هو رامبو في « فصل في الجحيم » ايضا ، يعلن انه
 كان محظوظا فيما مضى ، وانه عرف طفولة سعيدة بطولية
 جديرة بأن تروى اسطورتها في الكتب . لكنها لا تدوم طويلا
 للأسف ، وسرعان ما تتبدد كالوهم المسحور ، ومن السخافة
 اذن ان نعول عليها . وهو يتحسر على عهدها ، وعلى ايام

التشرد على الطرقات الكبيرة في كل الفصول ، عفيفا ، طاهرا ،
متجردا من كل امور هذه الدنيا ، متخففا من كل اعبائها ،
حرا ، خلي البال ، اكثر املاقا من افقر الشحاذين ، فخورا
بأنه لا ينتمي الى اي وطن ، ولا يملك اي بيت ولا يرتبط بأية
صداقات او اية علائق عائلية او اجتماعية . فاية جريمة
اقترفها ، واية اخطاء فادحة ارتكبها كي يستحق هذا الانحلال
والانحطاط الذي وصل اليه حاليا ؟ ولرب قائل على سبيل
التعزية بأن العذاب هو قسمة جميع المخلوقات : المرضى
يتوجعون ويأسون . هناك اناس يموتون كل يوم . وحتى
الحيوانات المفترض انها مجردة من الاحساس لا تنفك ترسل
عويل الالم . نعم . ولكن هناك سببا ظاهرا بالنسبة لشقاء
كل هؤلاء البائسين . بينما لا ينجح هو في العثور على علة
لدائه ، وتبرير لمأساته ، وتفسير لسقوطه المريع ، وانهاره
الداخلي ، وشلله الروحي . لا انه عاجز عن شرح وتسويغ
الكابوس الذي يعاني منه . جل ما يستطيعه هو ان يهتمهم
بعض عبارات ، ان يئن ويتأوه كشحاذ جالس على قارعة
الرصيف يستجدي ويتشكى ويستعطف بنعمة رتيبة وكلمات
الية .

نعم ان رامبو لا يني يتحسر على فجر العمر الطاهر .
فهو في قصيدة « صبا - ٢ » من « الاشراقات » يعترف بأنه
انسان عادي ، ليس في تكوينه ثمة ما هو خارق للطبيعة .
لكن بمجرد كونه طفلا فان جسده هو اشبه بثمره شهية معلقة
في بستان . يا لايام الطفولة السعيدة حين كان يشعر المرء

بنفسه كنزا يرسم العطاء والاغداق من خيراته على الآخرين ، حين كان يملك طاقة هائلة على الحب ، والوجد في ذروة ما يصل اليه من زخم وتطرف في طلب المستحيل ، وروح المجازفة والمغامرة ، وما يثيره من اوهام جميلة واحلام عذبة . حين كانت الارض خصبة بالعطاء ، مليئة بالوجود ، غنية بالسحر ، زاخرة بالجمال سكانها امراء إسطوريون وفنانون عباقره حين كان الدم الوحشي يضج في العروق التي تنبض بالقوة الفتية والحماس المتفجر حين كان الحظ يتسم لنا ، وكانت الحياة مغامرة مثيرة . اما بعد خروج الفرد من مرحلة الطفولة فانه يصبح انسان التحسبات والحذر ، والمجهود والعذاب ، انسان الكد والتعب من اجل المحافظة على البقاء ، والصراع من اجل الوجود ، وانتشال اللقمة من فم الاسد ، والصراخ بصوت عال للمطالبة بحقوقه وسط غابة الذئاب المفترسة التي تنافسه عليها . انسان السعي المضطرب المحموم الذي لا مفر له منه ، والذي يقتضي منه المكر والدهاء وسرعة التكيف مع الظروف فالحاجة ام الاختراع ، والتكالب على النجاح ، والخضوع للعقد الجماعي ، والايمان بتقاليد الناس ، واعرافهم التي تحتمها قوانين المحافظة على الذات ، والتي تفرض التعاون بين كل طبقات الشعب وبنفس الوقت تجاهل كل هذه الفئات لبعضها ، التعاون من اجل تسيير الامور المعيشية وبنفس الوقت الانانية والفردية المطلقة . فالحياة العصرية التي هي جماعية في اساسها هي الوحدة والوحشة بعينها ، والعالم الحديث الذي

يستيقظ عليه رامبو بعد خروجه من فردوس الغفلة والبراءة هو عالم « بدون صور » وبالتالي مضجر ، رتيب ، وخال من المعنى والجدة والطرافة والجمال ، يعتمد على القوة والدأب المسعور من أجل تحقيق المآرب الشخصية ، والتنازع على البقاء ومجموعة من الطاقات والصفات ، لم يكن بحاجة اليها قبل بلوغ سن الرشد .

الطفولة هي الفترة المعبودة من العمر (هذا ما يقوله لنا رامبو في قصيدة « طفولة - ١ » من « الاشراقات ») انها موسم الدهشة والفضول ، انها الماضي السعيد والجنة التي نفينا منها . انها عهد الحرية والنبل والجلال ، وواقع الفطرة والطيبة . انها تجري في اطار خرافي اسطوري ، وتستوعب كل جمالات الكون من اقصى الجنوب الى اقصى الشمال ، وتقدر ما يحتوي عليه من عجائب وغرائب . ان اطارها هو خضرة الحقول الصارخة، وزرقة الآفاق المدهشة . ان دنياها هي مملكة الخيال والاحلام والمغامرة . ان ايامها هي ورود الحلم التي تتبرعم ، تتفتق ، وتتضوع على حافة غابة المجهول حيث يتراءى لنا كل طيف حسناء ساحرة تتعري في البراري في جو عابق بالفتون والسر والغربة . ان الطفل يستخرج مادة لاحلامه ومنطلقا لخياله من كل النساء اللواتي يقع عليهن نظره فيكبرهن الى اضخم الاحجام ، او يصغرن الى اصغر قياس لانه عدسة متطرفة تحيل الاشكال الى عمالقة او اقزام ولا تعرف الحلول الوسط . ان هذه الحوريات تتراءى له رائعة جليلة مهيبة كجواهر كريمة منثورة

في الحقائق المعلقة ، وتغدق عليه كل ما يحتاج اليه من العطف والحنان كامهات شابات وشقيقات كبريات • ان نظرة واحدة من عيونهن تكفيه كي يحج الى بلاد غريبة وقارات بعيدة ويسافر على اجنحة الخيال • انهن اميرات سائرات بخطى ملكية وذات سلطان ، والغاز مثير ، وشخصيات يشوبها مسحة من الحزن الحنون يتصور الطفل انه المنقذ الذي ارسلته الاقدار لتخليصهن من الكآبة •

وهو ذا رامبو ايضا في قصيدة « طفولة - ٢ » يتذكر طفولته تلك الحبيبة الصغيرة الميثة التي يلوح له طيفها من خلف خمائل الزهر • تلك الام الصبية الرؤوم العزيزة الراحلة التي نزل شبحها الدرج • وانه ليكاد يسمع صرير عجلات عربة اليفة فوق الرمال • ويتمثل صورة اخيه (الذي هو حاليا مهاجر الى بلاد بعيدة) واقفا ساعة الغروب في مرج الزهور • ويحن الى هذا الشقيق الاثير الغائب • ويرى عجائز العائلة الذين كانوا يدفنونهم في المقبرة المحاطة بالورود • ويمر امام ناظره شريط من الذكريات : اوراق الخريف الذهبية التي تحيط بمنزل الجنرال المهجور الذي نزح هو وعائلته الى الجنوب بعد انتهاء موسم الاصطياف - الدرب المتوهجة بتربتها الحمراء والمفضية الى الحانة المغلقة - القصر المصوح الارعاء الذي يبدو بدرقات شبابه المقتلعة وكأنه برسم البيع - الكنيسة المقفلة التي اخذ الخوري مفتاحها واختفى - الاكشاك التي يقعد فيها الحراس لم تعد مسكونة في الحديقة العامة التي رفعت حواجزها عاليا لدرجة

انه ليس بالمستطاع بعد رؤية شيء فيها سوى قمم الاشجار المرتفعة . على كل حال لم يبق هناك ثمة ما يستحق المشاهدة — الوحدة المطلقة تسود وسط جو من الهدوء والصمت لا يتردد فيه صياح ديك ، ولا يترجع صدى مطرقة على سندان : لقد بدأ فصل المطر وموسم الطواحين . وكان ثمة ورود عجيبة تزهر في ذلك العهد المبارك من العمر . وكانت الطبيعة الرحيمة تهدد قلب الطفل وتحنو عليه . وكان ثمة حيوانات مسحورة ذات جمال خرافي واناقة اسطورية تتجول حوله . حتى الغيوم وهي تتجمع فوق البحر كانت حنونة مؤثرة وكأنها دموع دافئة .

اما في قصيدة « طفولة — ٣ » فان رامبو يتذكر ذلك العصر الذهبي الاول ، حين كانت ساعة العمر متوقفة وكان الزمان هو الابدية . يتذكر الغابة التي كان يسرح فيها ، صبيًا ، حيث كانت تستوقفه زقزقة عصفور تجعله يحمر ، موقظة في قلبه البكر اعذب الشهوات والرغبات . في ذلك العهد الميمون كانت حتى الحشرات التي تدب في شقوق الارض تبدو له حيوانات مسحورة ، وكان اقل مشهد يثير خياله ودهشته : كنيسة عند اسفل المنحدر — بحيرة عند طلعة التل — عربة صغيرة متروكة في الدغل ، او هابطة نزلة الدرب راكضة وسط عاصفة من الغبار — فرقة من المهرجين الصغار بلباس التمثيل يلمحهم صدف على الطريق من خلال سياج الغابة — فاذا ما حاول ان يسرق ثمرة لياكلها من احد البساتين اشباعا لجوعه ، او ان يتلصص على اسرار الآخرين ، عله يكشف ،

ارواء لفضوله وشهواته المتعطشة ، عن فضيحة او منظر مثير
ما ، فانه كان يخرج له ثمة من يزجره ويطرده بعيدا .

ثم يصف لنا رامبو نفسه في قصيدة « طفولة - ٤ »
وقد وصل الان الى عمر الهدوء والتعقل والرصانة ، ومرحلة
الاتزان والاستقرار ، وبلغ سن الرشيد ، الذي يعني الجد
والعمل والمثابرة وتحمل المسؤولية والاتكال على النفس .
انه يسير الان وحده على درب الحياة الشاق الطويل دون
حماية او مساعدة احد ، دون اي حراسة او ملجأ امين
يستطيع الركون اليه عند الشدائد . لقد بات يشعر بعبء
السنين ، ومرور الزمن ، والتقدم في السن مع كل خطوة
يخطوها . وها هو يتأمل الان بأسى وحسرة شمس الطفولة
التي هي زهرة العمر وجوهرته تغرد بوحشة وتتوارى بكآبة .
انه اشبه بمنبوذ صغير مهجور على الشاطئ ، يمد يده
بتوسل وتضرع نحو السفينة المقلعة في البحر ، والتي ترفض
ان تأخذه معها ، لان ركابها هم من الكبار الراشدين الاقوياء .
بينما هو ، لئن بلغ طور الرجال فانه لا يزال طفلا في تكوينه
الجسدي والنفسي . انه في حيرة من امره لا يستطيع البقاء
على ارض الطفولة لانها زالت ، ولا يستطيع التعلق بمركب
الرجولة والنضج المبحر امامه . ومن هنا عدم تلاؤمه مع
الحياة ، واستحالة تكيفه مع ظروفها . انه عبد ضعيف عاجز
عن تحقيق اهدافه وآماله وطموحه كما يفعل السادة الاشداء .
الدرب امامه وعرة مزروعة بالاشواك . هواء العالم خانق
تعجز رئته العليلة عن تنشقحه . انه لم يعد يسمع زقزقة

العصافير السكرى ، ولا خير الينابيع العذب . لقد أصبحت بلاد الطفولة السعيدة البريئة نائية جدا ، تبعدنا عنها كل خطوة نخطوها على درب العمر ، وتقربنا من منطقة الشقاء والبشاعة :

« ٠٠٠ هذا لا يستطيع الا ان يكون نهاية العالم ونحن نتقدم ٠٠٠ »

واخيرا نجد رامبو في قصيدة « طفولة - ٥ » يعبر عن ارادته في ان يموت عن اعراض هذه الدنيا القانية ويتطهر من كل ادراؤها . انه يبغى ملجأ امينا كرحم الام يختبئ وينعزل فيه ، ويحتمي داخله من شرور الحياة . انه يتوق الى حفرة عميقة عميقة في الارض تخفيه وتبقيه بعيدا عن هذه السخافة والابتذال والسطحية والتفاهة التي لا يرى حوله سواها . انه يود الهرب من اذى الآخرين وازعاجاتهم المتواصلة ، من الهموم المتشكلة حول رأسه ، من محيط القذارة ، وروح الاجرام ، وجو الشؤم الحالك الذي يخيم عليه في هذه المدينة اللاانسانية ، الظالمة ، المتوحشة التي لا ينتهي ليلها ابدا ، وكل ضراوة هذا الواقع المثير للقرف والاشمئزاز ، الذي يحلم باختراق جداره واحرقه وتدميره ، واللجوء الى عالم الوهم والخرافة والمغامرة ، والتحرر من ايقاع الزمان البطيء . وهكذا هو دائما في لحظات الالم والمرارة يحلوه ان يتخيل كرة مسحورة وسميكة من المعدن يفرغ اليها ، ويدفن نفسه في احشائها . انه يملك موهبة فذة في الانسحاب من

العالم ، وقدرة هائلة على الانفصال عن الارض التي ليس هو
من سكانها اصلا ، انه :

— « ٠٠٠ سيد الصمت ٠٠٠ »

لكن رغم ذلك، ورغم طبيعته الشاعرية الحاملة، فان الواقع
سرعان ما كان ينفذ اليه باحداثه شقا او ثقبا في هذه الكرة
الوهمية التي لجأ اليها .

وفي طفولة رامبو كانت امه فخورة به ، راضية عن
اجتهاده وقيامه بواجباته على اكمل وجه . لكنها لم تكن ترى من
خلال صفاء عيونه الزرقاء ، ووراء جبينه البارز ، تلك النقمة
الداخلية ، والثورة المعتملة في صدره ، والبغض والاحتقار
لكل ذلك الواقع المزيف المفروض عليه . لقد كان مثالا للطاعة
والذكاء المبكر . لكن سلوكه المثالي كان مبنيا على الخبث
والرياء . وكان في قرارة نفسه يسخر من كل هذا الجو البيتي
العفن ويزدرجه ، ويفجر غضبه المكبوت وتمرده العاجز بين
جدران عزلته . وكان احيانا يخلق على نفسه باب المرحاض
ويبقى حابسا نفسه هناك لمدة طويلة ، يفكر بعناد ، وحيدا ،
مغلوبا على امره ، مستمتعا بشيء من الحرية والهدوء .
ولقد كان يحب في الشتاء ان يتأمل حديقة بيتهم الصغيرة
الغارقة في الوحل تصفر الريح في عرائشها المترمدة . وكان
يشفق على هؤلاء الاطفال البؤساء الضامرين ، الذابلين ،
المرتدين ملابسهم المنتنة الرثة ، المهلهلة الرقيقة التي لا تقيهم
غائلة البرد ، الخجلين باظافرهم القذرة الصفراء والسوداء

من لطخات الطين ، المتحدثين بنعومة وذل الاغبياء • مع هؤلاء الفقراء المساكين فقط كان رامبو يتعاطف • لكن عندما كانت تفاجئه امه وهو يتحدث او يلعب معهم ، او يقدم لهم شيئا ، فانها كانت ترتاع وتزجره وتنهاه عن هذا الامر • فكان يكذب ويتظاهر بانه اخذ بحججها واقتنع بمبادئها ، وانه لن يعود الى التعاطي مع هؤلاء الساقطين في عرفها من حقوقهم الطبيعية والانسانية • وفي سن السابعة بدأ ينسج في فكره القصص والاساطير العجيبة حول حياة الصحراء الكبرى المسحورة حيث الحريسة المطلقة ، حول الغابات والشموس والادغال البكر ، مستعينا لذلك بالمجالات المصورة التي كانت تقع تحت يده ، فيتأمل فيها ، مبهورا ، نساء اسبانيات وايطاليات يضحكن ويثرن في قلبه الشهوة والاحلام (تقول ايزابيل في احدى رسائلها مصداقا لما ورد في قصيدة رامبو « شعراء السابعة من العمر » ان شقيقها ارتو ، قبل ان يبلغ العاشرة من السن ، كان يسليهم طوال السهرات وهو يقرأ عليهم ما كتبه حول رحلات مدهشة قام بها نحو بلاد غربية وسط الصحارى والبحار وعبر الجبال والانهار) •

ولقد استيقظت شهوانيته في وقت مبكر عندما دخلت بنت الجيران الصغيرة الشيطانة المتوحشة ، وقفزت على ظهره ، فعض لها ساقها العاريتين • وكان يكره ايام الآحاد الشتائية الكالحة ، حين كان يجلس بثيابه الجديدة ممشطا مهنما ويروح يقرأ التوراة العائلية الغبراء • فلقد كانت

تمضيه بعض الافكار ، وتراوده بعض الشكوك السوداء : لم يكن يحب الله بل الرجال الكادحين ، العائدين الى بيوتهم عند المساء محطمين ، متعبين من السعي وراء لقمتهم المغمسة بالدم . وكان يبحر على امواج الخيال منزويا في غرفته العالية ، مغلقا شبابيكة على ضجة الحي التي تتناهى اليه من تحت برج صومعته ، ويقلع في مركب احلامه نحو السهول الزاهية حيث تنبوع السعادة والحب ، وتتعانق الاغصان ، ويفوح اريج الازهار ، نحو السماوات العميقة المجهولة ، ونحو الغابات الخصبة بالورود العجيبة والاشجار النادرة .

ولقد طلب ، ذات مرة ، من امه ان تشتري له معزفا يتعلم عليه الموسيقى ، فرفضت عن بخل واقتصاد . فما كان منه بعد خروجها سوى ان اعمل نجارة في طاولة موضوعة في غرفة الطعام بغية تحويلها الى بيانو . وعندما عادت والدته وشارت ثأرتها لما لحق قطعة الاثاث من اضرار، هدها بأنه سيفعل الشيء نفسه مع باقي عفش البيت ما لم تحقق رغبته .

وان رامبو ليتذكر نهر « آل ميز » (La Meuse) التي جرت « طفولته » على ضفافه . حيث سكنت عائلته عام ١٨٦٤ في بيت على رصيف المادلين . يتذكر ماءه الصافية كدموع البراءة ، واجساد نساء عاريات تلتصق في الشمس بوهج الحرير ، شفاقة كرفيف اجنحة الملائكة وشماثل من الزنبق الطاهرة ، او نوابات وبيارق تخفق تحت اسوار يدافع عنها

الابطال • وبتياره الذهبي السذي يندفع محركا ذراعيه
السوداوين الثقيلتين ، النديتين بالعشب وتنعكس السماء
على صفحته وتنسدل عليه ستائر الظل من الهضبة وقنطرة
الجسر • انه ليتذكر النزهة العائلية التي كانوا يقومون بها
الى النهر في عز الظهيرة : شقيقاته بفساتينهن الخضراء
الحائلة اللون - والدته الزوجة المخلصة الغيورة المنتصبة
بعنفوان واباء في المرج المجاور للنهر حاملة مظلة تقيها من
الشمس تمعس بها الزهور بين رجلها ، وتحرس اولادها
الذين يقرأون متمددين على العشب الاخضر ملاحقة زوجها
الذي يهرب منها ويبتعد عن عائلته ، متأسفة ، متحسرة
لرحيله ، باكية لحظات السعادة الزوجية التي عرفتھا بين
ذراعيه كانسان مهجور منبوذ ييكي تحت اسوار المدينة التي
اغلقت ابوابها دونه • اذ من المعروف ان الكبتن رامبو هجر
منزل الزوجية نهائيا حين كان ابنه الشاعر في السادسة من
عمره • اما بالنسبة لآرتور فان الاثر الوحيد الذي تخلفه في
نفسه هذه النزهة التقليدية فهو ذكرى لحظة من البلادة
والشقاء هي اشبه بحلم كئيب يلزمه اثناءها الشعور بالتفاهة
والعجز عن القيام باي عمل ، لان كل المنافذ مسدودة في
وجهه ، ولان كل ما حوله قبيح لا يترك مذاقه في الفم سوى
طعم الرماد ، الشعور بأنه آسن في مستنقع ، وانه قارب جامد
يتخبط في الوحل دون ان يتمكن من التقدم بوصة واحدة •

ان شعر رامبو حافل بالكثير من تلك الاشياء التي
رافقت حدائته الاولى • فهو يصور في احدى قصائده خزانة

السفرة العائلية الواسعة القديمة جدا ، المصنوعة من خشب
السنديان الغامق المحفور ، الشبيهة بعجائز طاعنين فن السن،
المحدثة ازيها حادا عندما تفتح ابوابها الكبيرة السوداء ،
وعندئذ تفتح منها روائح عابقة بالذكريات كفيض من النبيذ
المعتق . انها مملوءة باغراض اكل الدهر عليها وشرب :
ملابس جوانية عتيقة عطنة ، خرق نساء او اطفال ، قطع من
المخرمات المتأكلة ، ثياب جدة بطل زيتها ، ايقونات صدئة ،
خصلات شعر شائبة احتفظ بها ذكرى من عزيزة عجوز راحلة،
او شقراء بقيت ذخرا من طفولة ولد حبيب ، صور عائلية ،
ورود مجففة يمتزج عبيرها بفوح الفاكهة . ان هذه الخزانة
زاحرة بالذكريات والقصص . ان كل تاريخ العائلة يظل
منقوشا على جنباتها ، وهي تواقه دائما الى ان تروي
حكاياتها ، عندها دائما ثمة ما تقوله لافراد الاسرة عن
ماضيهم .

كما ان رامبو يحب ان يصف الكثير من الامور الاخرى
المتعلقة بمسقط رأسه شارلفيل ، ككنيسة القرية مثلا ، التي
ينشد فيها اولاد الجوقة باشراف الكاهن ، وتنعكس الشمس
على زجاجها الملون ، ويتضوع من حجارتها عبر الوطن الام
وتراب النبات الاصلي، ويحيط بها الريف حيث يتكوم الحصى،
وتموج حقول القمح ، وتتعرج الدروب الفخارية ، وتهتز
شجيرات التوت وخمائل الورد . ان هذه الكنيسة يتم طرشها
وترميمها كل مئة سنة ، ويفح حول شموعها الذباب متضوعا
برائحة الحانات والاسطبلات ، حائما حول صور القديسين ،

ويؤم دريها الصبايا سعيدات اذا تحرش بهن الشباب ، الذين يتمخضرون ويتغاونون بعد القداس ، هم المؤهلون والمرشحون لان يرتدوا في المستقبل ثوب الجندية الانيق . ثم يستقر بهم المطاف في المقهى ، حيث يروحون يغنون بمرح وصخب . وان الخوري ليرغب في الانضمام الى حلقات الرقص المعقودة في البعيد ، حين يسمع اصداءها القصية تتناهى اليه في عزله . وان الفقراء ليتوافدون الى الكنيسة وينصتون خاشعين الى تراتيل الجوقة ، سعداء متناسين همومهم ، اذلاء مهانين ككلاب مضروبة ، وكقطع من الخبز اليابس تمتص عقب البخور ، وذوب الشموع . ترتاح النساء على المقاعد بعد ستة ايام من العمل المضني ، مهددات اطفالهن الذين يملأون المكان بالعويل والصراخ ، مخرجات نهودهن لترضيع فلذات اكبادهن ، ناظرات بذهول ، بعيون خاشعة وشفاه جامدة لا تتمم اية صلاة . بينما تهملر مجموعة من العجائز ترتعش بلغماتهم ، يدمدمون ، يوشوشون، يتنهدون، ويقرعون الصدور . وهناك ايضا كل اولئك المسوسين المصابين بداء الصرع ، الذين كان المرء ينفر منهم ويدير وجهه عنهم عندما كان يقابلهم في الازقة والطرقات وكل العميان الذين تهديهم الكلاب الى سواء السبيل وتقود خطاهم المتعثرة ، يزجون انوفهم دون جدوى في كتب الصلاة . وفي الخارج لا ينتظر هؤلاء المصلين سوى الليل والبرد والجوع والظلم ، وهم يستمرئون الجلوس امنين في الكنيسة ، ليعودوا بعد قليل الى حمل اعبائهم المعتادة . والمسيح يصغي عن صليبه الى كل

هذه التضمرعات الذليلة والغبية ، بمعزل عن الجميع ، بعيدا عن زنخة اللحم ، وعطن الثياب ، والابتهالات ونوبات التقوى والورع . في هذه الاثناء تدخل بعض السيدات الغنيات من الطيقة الراقية في شارلفيل بثياب حريرية ، وابتسامات صفراوية ووجوه من هم مصابون بداء الكبد ، ويغمسن اصابعهن الطويلة الشاحبة في جرن الماء المقدس .

وهكذا نرى ان رامبو يلذ له دائما ان يصور نماذج من سكان بلدته ، وخاصة في قصائده الاولى . فها هو في احداها يتعاطف مع خمسة اطفال فقراء في يوم ضبابي مثلج يتأملون من شق الباب الخباز وهو يضع الرغيف الابيض الشهى في الفرن ، مبتسما ، مغنيا بمرح ، وييقون مسمرين هنا ، يستدفئون قليلا بوهج النار حتى اذا ما خرجت الارغفة الشهية المسيلة للعاب ، المتضوعة بالاريج العذب ، من الاتون ، استشعروا نشوة كبيرة وخفقت قلوبهم بشدة تحت اسمالهم المرتعشة في زمهرير الشتاء ، وراحوا ينظرون الى فوهة الفرن وهي تقذف الحياة الى الخارج ، واضعين انوفهم المحمرة بين شقوق الحاجز الخشبي ، مهمدرين في سرهم ، مدممين فيما بينهم وكأنهم يركعون للصلاة خشوعا للرغيف . او يحلو له في قصيدة اخرى ان يصف البورجوازيين وهم يتنزهون في اماسي الخميس بقيافتهم المعهودة وهياتهم الغبية في ساحة شارلفيل وجادتها الرئيسية المحاطة بالعشب والازهار . بينما تتمركز فرقة الموسيقى العسكرية في الحديقة العامة وتعزف الحانها المألوفة التي يصغي اليها كاتب العدل ،

والملاكون العقاريون ، وموظفون وكتبة ممتلئو الاجسام ،
 يجرون معهم زوجاتهم الحاملات وبناتهم اللابسات ازهى
 الفساتين ، وسمانون متقاعدون ينكثون التراب بعصاهم
 العاجية ، ويتباحثون فيما بينهم ، ومدخن غليون ، ومراقون
 مستلقون على العشب يضحكون ويصخبون ، بيت صدى
 الطبول الحب في قلوبهم ، والدم في عروقهم ، فيداعبون ،
 واضعين وردة بين اسنانهم ، الاطفال تملقا وتقربا من
 الخادومات ، وفي مثل هذه الاماسي كان رامبو يتنزه احيانا
 بثيابه المهملة الفوضوية ويلحق الصبايا الرشيقا المتنزهات
 تحت اشجار الكستناء الخضراء ، المدركات انه يطاردن ،
 المتلفتات نحوه بعيون مليئة بالاغراء ، راغبة البوح بأسرارها .
 انه لم يكن ليقول شيئا بل كان يكتفي بالنظر الى هذه الاعناق
 البيضاء الشبيهة ، التي تتبعثر فوقها خصلات الشعر ويتغلغل
 بالفكر تحت الصدرية ، وعلى الظهر المرمري والزنود الصلبة
 وفي كل مكان من الفتنة . وسرعان ما كان يعريهن بالخيال ،
 ويخلع من ارجلهن الجوارب والحذاء ويروح يبني في احلامه
 تمثالا اباحيا لاجسادهن البديعة تتحرقه حمى داخلية لذينة .
 وكان منظره الغريب المضحك يسترعي انتباه الفتيات
 فيتوشوشن عليه بصوت خافت فيما تكون رغباته الوحشية
 تتعلق على شفاههن تمتص عنها الشهد بالوهم . وحيانا كان
 هو الفتى ابن السابعة عشرة يتجرع بعض كؤوس من الجعة
 او الليموناضة في المقاهي الصاخبة المشعشة بالانوار ،
 ويمضي تحت اشجار النزهة التي يتضوع اريجها العذب في
 امسيات حزينان الطرية ، حين يحمل الهواء المرء على

اغماض عيونه لتنشق نسائمه الهادئة ، المضمخة بشذا الكروم وعبير الكحول ، الحاملة على اجنحتها الرقيقة ضجة البلدة المتناهية من بعيد . فاذا ما رأى رامبو من خلال انفراجة بعض الاغصان قطعة من السماء مرصعة بالنجوم سكر بالعطر الزكي المنبعث من الاعشاب ونسغ الاشجار ، وداخ من النشوة شاعرا ان هناك قبلة ترتعش على شفاهه ، واذا ما لمح صبية صغيرة تمر في الشارع تحت ضوء المصباح الشاحب برفقة والدها وتجدد عليه بلفتة رحيمة ، خفق قلبه بشدة وطار حماسا ، ووقع في غرام المارة الحسناء ، ورهن قلبه عندها حتى نهاية شهر آب ، وراح يكتب لها القصائد ويتغزل بجمالها ، حتى ليشمت به اصدقائه ، وتهزأ به فتاته المعبودة التي تقرر اخيرا ان تكتب له رسالة ذات مساء فيفقد صوابه من شدة الفرح ، ويدخل المقاهي كقائد منتصر يطلب كؤوس الشراب .

وها رامبو في قصيدة ثالثة يصور رجال الجمرك ، الذين كان يصادفهم على الحدود البلجيكية المتاخمة لمنطقة الأردن اثناء هروباته سيرا على الاقدام ، ونزهاته هو وصديقه ارنست دلاهاي لشراء بعض التبغ الرخيص من قرية بلجيكية قريبة ، والذين يضعون الغليون بين اسنانهم ، والعصا في يدهم ، ويزرعون الحدود بروح من المسؤولية والرصانة والعمق لا تعرف الضجر ولا الكلل . ولدى حلول المساء يربطون كلابهم وينصرفون الى سهرتهم المرحية . لكنهم يرتدون قناع الجد والوقار عندما يتحدثون مع الشباب ، ولا يرحمون

مخالفى النظام الذين يقعون تحت قبضتهم القوية •

لقد عرف رامبو لذة الجلوس، مساء ، عند حلاق بلدته، ملقيا رأسه باطمئنان بين يديه محتسبا كأسا من الجعة ، مدخنا غيلونه ، مستسلما للاحلام التي يضطر الى كبتها على مضض ، والعودة الى بيته في هدوء العشيية • لكنه لم يحب قط حياة الرتابة والدعة والاستكانة • فهو يكتب قصيدة يهجو فيها موظفى المكتبة ، الذين كان يراهم في مسقط رأسه ، ويجسد من خلال وصفه لهم كل بغضه لبلادة الوظيفة • لقد كان رامبو المشاء الذي لا يكل ، والقارئ النهم ، يدخل مكتبة شارفيل ، ويطلب بعض الكتب الغريبة من هؤلاء الموظفين الكسولين شبه المشلولين على كراسيهم • فكانوا يتضايقون لاضطرارهم الى النهوض لتلبية طلبات هذا المراهق الصغير، الذي كانوا يتأففون منه او يسدون اليه بعض النصائح حول الكتب الواجب قراءتها ، قانتقم منهم بقصيدة مقذعة عنوانها « القاعدون » يصورهم فيها على الشكل التالي : عيون سوداء كاحداق ذئاب بردانة محاطة بهالة خضراء - اصابع متيبسة ملتصقة بأفخاذهم - امزجة سوداوية - اجساد مشلولة مسمرة ليل نهار على الكراسي التي اصبحت جزءا لا يتجزأ من كيانهم ، لا يفارقونها لا في الصيف حين يدفئون اجسامهم المهترئة في الشمس ، ولا في الشتاء حين يتأملون الثلج من خلف النافذة مرتعشين بالم كالضفادع ، حتى لقد تكيفت قلبا وقالبا مع شكل ابدانهم بقشها المتضوع تحت اشعة النهار برائحة اعواد الذرة ، واصبحت رفيقة بحالهم رحيمة بهم ،

غالباً ما يتوقعون فيها ، مدممين بعض اغان حزينة من العهد
الخابر السعيد ، وبعض اناشيد حب من عصر الشباب البعيد .
واياك ان ترغم هؤلاء الخاملين على النهوض . انهم اذ ذاك
يحاولون الانتصاب على ساقيتهم كباخرة يغرق نصفها الاسفل
غائصة في اليم ، وينحدر نصفها الاعلى مرتعشاً ، مقاوماً
الوقوع ، ويرغون ويزيدون ، ويهدرون كقطط مصفوعة .
وتفتتح اوداجهم وترطم صلعاتهم بالجدران ، وتتعثر اقدامهم
الملتوية الكليّة ، وتلتمع ازرار ستراتهم كاحداق وحشية
تتفرس بالقادم من اعماق الممرات . وانك لترتعب عندما
تراهم يمدون لك يدا لم تكن تظنهم يملكونها ، ويجلسون من
جديد بعيون مليئة بالضغينة والمرارة ككلاب تلتقت الكثير من
الضربات ، حتى لتشعر بضيق شديد وتتصبب عرقاً بارداً
وكأنك في اتون خانق، وما ان يستوا في جلساتهم حتى يروحوا
يفكرون بحقد بأولئك الذين ارغموهم على الوقوف ، وتروح
غددهم ترتجف في اعناقهم من الصباح الى المساء . اما
عندما ينامون فانهم لا يحلمون الا بالكراسي المريحة في
المكتبة ، وبالمناصب العالية التي يتوقون الى احتلالها ،
والترقيات التي يتمنون الحصول عليها . وتتراقص امام
ناظريهم الكلمات والحروف التي يقطعون نهارهم في كتابتها
برتابة والية وبلادة .

ولقد تنبأ مدير المدرسة لرامبو بأنه لن يكون انسانا عاديا
بل سيصبح اما عبقرى الشر واما عبقرى الخير . بينما كان
يرى فيه استاذ اللاتينية تلميذا نجيبا الى اقصى درجة . لكنه

سينتهي نهاية سيئة . ولم يكن يحب الرياضيات فبينما كان زميله في الصف ينهمك بشرح احدى المسائل الهندسية على اللوح الاسود ، كان هو ، ينصرف الى كتابة فروض رفاقه في اللغة اللاتينية ليوزع عليهم قصائد في هذه المادة مختلفة عن بعضها قلبا وقالبا انما حول نفس القضية . وفي عام ١٨٦٩ نظمت مباراة باللغة اللاتينية بين مختلف مدارس الاقليم وكان الموضوع صعبا . وعندما اقترب الناظر من رامبو ووجد انه لم يخط بعد كلمة واحدة على ورقته انتهره قائلا : وانت ايضا لست افضل من رفاقك . وخاف ان يخذله هذا الطالب اللامع الذي عقد عليه الآمال ، والذي ابلغ استاذة بأنه جائع ولذلك فقد كل رغبته في الكتابة . فاذا ما قدموا له كعكة صغيرة واكلها راح يصوغ الابيات بسرعة عجيبة وانهى فرض انشائه قبل الموعد المحدد بكثير ، وقدم مسابقته قبل الاوان وانصرف . ولقد جاء ترتيبه الاول .

يقول رامبو في احدى رسائله الى استاذة جورج ازامبار :

— « ٠٠٠ ان بلدة مسقط رأسي هي غبية بتفوق بين مدن الريف الصغيرة ٠٠٠ » وانه يضيق ذرعا بالجنود الذين يجوبون طرقاتها ابان النزاع البروسي - الفرنسي ، والبقالين المتقاعدين الذين يرتدون البزة العسكرية ويهبون للدفاع عن الوطن المهدد ، وكتاب العدل ، والنجارين ، والحرفيين ، ومعلمي المدرسة الذين يظهرون عواطفهم القومية التي يسخر هو منها :

— « ٠٠٠ وطني ينهض ! ٠٠٠ . انا احب ان اراه
قاعدا ٠٠٠ »

انه يشعر بشارلفيل بالوحشة ، بالمنفى ، بالمرض ،
بالغضب بالغباء ، بالتمرد ، انه يأمل بحمامات الشمس ،
بالنزهات الطويلة ، بالراحة ، بالاسفار ، بالمغامرات ، بحياة
التشرد والبهيمية ، وفي اضعف الايمان في الحصول على
بعض الكتب والجرائد . لكن لا شيء من هذا . ان باريس
لا ترسل منشورات الى شارلفيل بسبب « الاحداث » الراهنة ،
والصحيفة الوحيدة التي يمكنه الوقوع عليها هي « جريدة
الآردين » المحلية التي تعبر عن عقلية ونزعات وآراء اهل
منطقته الضيقة المحدودة الافق . انه يموت في هذا الجو
الخانق . انه يتحلل رويدا رويدا في هذه الرتابة والتفاهة
في هذه البشاعة والظلام . انه يعيش الحرية ولا بد له من
الهرب . ولقد راودته الفكرة بأن يبيع ساعته ، ويضع يديه
في جيوبه ويرحل .

ولقد سمح ازامبار لرامبو بالمجيء الى غرفته كي يقرأ
ما طاب له . لكن التلميذ النجيب سرعان ما يستنفد كسل
المصنفات الموجودة عند استاذة . وها هو يوجه له رسالة
يعلمه فيها بأنه مدين بمبلغ من المال لصاحب مكتبة زوده
ببعض المنشورات وبما انه لا يملك مالا يسد به هذا الدين ،
فهو يطلب من مراسله ان يتفضل ويعيد له بعض المجلدات
التي جلبها معه ونسيها عنده كي يبيعها ايقاء للمبلغ المترتب
في ذمته . كما يتوسل الى ازامبار ان يبعث له بكل تلك الكتب

الرخيصة التي يخجل معلم مدرسة ان يكتنيها على رفوف مكتبته كي يبيعها ايضا لتغطية القرض، الذي لو تناهت اخباره الى مسامع والدته لثارت ثائرتها ، ونكدت حياة ابنها المتعطش الى المعرفة .

وذات يوم ، وفيما كانت فينالي كريف تتنزه مع اولادها في الغابة التي تفصل بين شارلفيل وميزيير ابتعد رامبو فجأة عن اخواته وامه التي سألته : الى اين تمضي ؟ فاجابها : اني ذاهب لآتي بكتاب من البيت . فشيعته أمرة : لا تتأخر . لكن الساعات انقضت وارثور لم يرجع . فراحت الام وبناتها يبحثن عنه في شوارع شارلفيل وميزيير في حالة من القلق لا توصف . ففي ذلك النهار ٢٩ آب ١٨٧٠ كان البروسيون يتقدمون لاحتلال « الاردين » . لكن عبثا ما سأل عنه اهله في الحانات ، ومحطات القطار ، وعلى ضفاف نهر « ال ميز » عبثا ما استفسروا عنه جماعات الشباب الذين كانوا يتهافتون على التطوع للحرب ، فان ارتور كان يحقق هربه الاول الى باريس ، بعد ان باع كل كتب الجوائز المدرسية التي فاز بها في نهاية العام الدراسي . لكنهم اوقفوه في المحطة لانه لا يملك ثمن بطاقة القطار ، لانه رفض التصريح باسمه وعنوانه ، ولانه يحمل دفترا يسطر عليه ابياتا من الشعر لم يفهم منها رجال الدرك حرفا واحدا . فاقناده الى المخفر . ومن سجن مازاس حيث اعتقلوه كتب رسالة استنجد الى استاذ ازامبار ، الذي امدّه بمعونة مالية كافية لدفع نفقات السفر ، وأواه عنده في دواي

(Douai) ، قبل ان يعيده الى احضان والدته ، التسي وجهت صفتين الى وجه ابنها ، واتهمت الاستاذ بأنه افسد اخلاق تلميذه ، فما كان من ازامبار سوى ان انسحب صافقا الباب وراءه بغضب ، والتي لم يكد ارتور يستقر قريبا في ٢٧ ايلول سنة ١٨٧٠ حتى هرب من جديد في ٧ تشرين الاول من نفس العام ، لكن في اتجاه بلجيكا هذه المرة ، حيث كان ينام في الحقول ، او في ظل الطواحين ، يشحذ من القرويين ، او يقاسم المزارعين صحنا من الحساء ، يشم الروائح الزكية المنبعثة من مطابخ شارلروا مساء ، او ينسى جوعه وهو يتأمل جمال القمر . ثم عاد الى قواعده في مطلع تشرين الثاني ، اي في نفس الفترة من الوقت تقريبا التي رجع فيها شقيقه الاكبر ، الذي كان قد سبقه الى الفرار من البيت كي يتطوع في الجيش ، ولم يتمالك الولدان الضالان الماثلان امام المحكمة العائلية نفسيهما من الضحك ، فراح ارتور يمازح فرديك هازئا بمشاعره الوطنية .

وفي ٢٥ شباط عام ١٨٧١ باع رامبو ساعته القضية ، وسافر مجددا الى باريس ، حيث تشرد خمسة عشر يوما تحت المطر دون مأكلا ولا مأوى ، حيث تسكع مرتعشا من البرد امام واجهات المكتبات ، التي كان يدخلها احيانا ليسرق بعض كتب لا يملك ثمنها ، سادا رmqه من بقايا الاطعمة المطروحة ، صباحا ، على عتبات المنازل . وحيث نام تحت جسر نهر السين او في جوف القوارب المهجورة . ثم عاد في العاشر من آذار الى الأردين سيرا على الاقدام ، عابرا

المزارع التي كان يحاصرها الالمان ، والتي لم يجد احدا من سكانها يقبل بايوأته تحت سقفه ، واخيرا وصل الى البيت وقد تحولت ثيابه الى اسمال ، وتحكمت فيه نوبات حادة من السعال .

اما في ٢٦ نيسان فلقد استأنفت المدارس صفوفها ، التي رفض رامبو الالتحاق بها ، متحديا بذلك ارادة والدته واساتذته . ولقد كان زملاؤه الطلبة يشاهدونه من نافذة غرفة الطعام وهو يروح ويجيء مدخنا غليونه . انه لم يكن يقصد تحديهم واستفزازهم . لكن المكتبة تقع في جوارهم وهو ينتظر ميعاد فتحها . ولقد ابدى عن رغبته امام ارنست دلاهاي في ان ياوي الى مغارة يقضي فيها نهاره وينام ليله اذا تعذر سفره الى باريس . كما انه طلب من صديقه الآنف الذكر ان يتعهد بجلب الخبز له يوميا في حال تحقيق مشروع الاعتكاف هذا ، الذي لم يدخل قط حيز التنفيذ . ثم ها هو في ايار من ذلك العام يعجب بفتاة صغيرة ويطلب مقابلتها، حتى اذا جاءت الى الموعد المضروب برفقة خادمتها، ارتبك وتلعثم ، فضحكت منه الحسنة ، وتابعتها ، وتلقت والدته رسالة من والد الصبية ينصحها فيها ان تراقب ابنها وان تولي تربيته مزيدا من العناية .

٢ - دم فاسد

« الفنان يتجلى في الحالات الاستثنائية ، التي هي كلها وثيقة الصلة بالظواهر المرضية ، او التي تؤلف معها عنصرا واحدا ، بنوع انه يستحيل على المرء ، فيما يبدو لي ، ان يكون فنانا دون ان يكون مريضا » .

نيتشه

في مستهل « فصل في الجحيم » يعلن رامبو انه خلال هذه الهدنة القصيرة التي يمنحها اياها الشيطان ، ويانتظار ان يعود سيده الرجيم الى لسعه بسياطه ، فهو يود ان يكتب الشعر وان يدلي باعترافاته بحرية وصراحة ، دونما خجل او حياء ، دونما مراعاة للحشمة والذوق ، دونما لجوء الى الوصف والاسهاب ، فالناشر روسو يكتب ربما الف صفحة لكي يعترف ، ويطلع الناس على دخيلة نفسه ، ويفتح لهم قلبه كي يقرأوا ما نقشته الطبيعة عليه من اسرار . لكن الشاعر رامبو لا يحتاج الى اكثر من بضع صفحات ليتوصل الى نفس النتيجة وربما بصورة افضل ايضا لان :

- « ... اكتشافه ، تاريخ مجيئه الحرائقي ، هو السرعة ... » .

كما يقول عنه رينه شار الذي يستطرد :

« ٠٠٠ اننا ، في الشعر ، لا نسكن الا المكان الذي نغادره ، لا نخلق الا النتاج الذي ننسلخ عنه ، لا نحصل على الديمومة الا بتدمير الزمان ٠٠٠ » .

ورامبو لن يتخذ في اعترافاته اي موقف وعظمي اخلاقي ، وسيذيع الحقيقة عن ذاته مهما تنافت مع الفضائل الحميدة والتقاليد المكرسة . سيملك الجراءة في ان يطلعنا بكل اباحية وقاحة على واقعه الداخلي مهما كان قذرا ومظلما . ولعلنا كلنا قذرون ومظلومون لكننا لا نجرؤ على المجاهرة بذلك . لكنه هو سيفعل وسيهتك كل الحجب التي تنستر بها عادة ، ليظهر لنا جوهر الانسان الذي كان بكل عريه الباطني .

نعم ان « فصل في الجحيم » هو دراسة تحليلية دقيقة للحالات النفسية التي خبرها رامبو شخصيا ، وسيرة ذاتية مذهشة من بوح روح صادقة ، وقلب حميم يبيع لنا كنوزه الدفينة . انه صورة عن رامبو الانسان في تكوينه الجسدي والنفسي ومغامرته الحياتية ، وشهادة امينة عن نوع المخلوق الأدمي الذي كانه على هذه الارض والنموذج البشري الذي يمثله . كما انه صورة عن رامبو الفنان في تكوينه الفكري والروحي ، وبيان صريح عن نوع الشعر الذي يكتبه .

ان رامبو في نظر الناقد البير تيبوديه هو اكثر العباقرة غرابة في جميع آداب العالم ، وهو لم يحب ولم يعرف الا نفسه . النشر بالنسبة له يعني الكتابة للآخرين الامر الذي

لم يخطر لهم ببال • وهكذا فان قصائده تلك المناجاة الذاتية التي كتبها للفرقة الخاصة ، واستعماله الشخصي دوّما تفكير بأي جمهور واي قراء هي اكثر القصائد صدقا وطهرا وخلوا من العهر الفكري •

قالت ايزابيل رامبو عن اخيها ارتور :

ـ « ••• انه يزدوج ، يتجرد من شخصيته حسب ما يحلو له • لئن اصبح امرأة ، لئن اصبح متعدد ، لئن توزع الى شخص او عدة اشخاص معا ، الى مشهد او عدة مشاهد ، لئن تكلم عن سيدته ، عن شريكته ، عن امراته ، عن رفيقته ، فانه انما يعني ذاته وذاته وحدها ••• »

ان كل فرد يخبىء في داخله مجموعة من الانوات المتميزة المتناقضة • ليس لاي منا طباع ثابتة محددة المعالم ، وسلوك واحد لا يتغير • ان الانسان يعيش بالفعل اكثر من حياة ، ويتقمص اكثر من دور خلال مراحل عمره ، ويظهر بعدة اقنعة ووجوه • قرب شيطان يتحول الى ملاك بنوع ان يحيرنا بسلوكه المتعارض مع كل ما نعرفه عنه • وينوع ان يفاجأ هو نفسه بغرابة تصرفاته ومغايرتها للنمط السابق الذي كان يتبعه • ورب شخص عهدناه رقيق الشمائل ، كريم الاخلاق ، حلو المعشر يمسخ في عيننا ، على حين غرة ، الى كلب لئيم • بنوع اننا نضطر عندما نخاطب رجلا الى توجيه الكلام الى كل الشخصيات المتباينة المتنوعة التي تلبسها في لحظات مختلفة ومتباعدة من عمره • وينوع انه يتحتم علينا

إذا أردنا ان نعرف كائنا ما ان تسلط الضوء على كل
الحيوات المتفرقة التي عاشها وان لا نكتفي بالوجه الواحد
الذي يعرضه امام ناظرينا حاليا • لكأن الانسان يتناسخ من
جسد الى جسد طوال حياته فنعجب لانفسنا كيف احبينا فيما
مضى مخلوقا كنا نحترمه ونقدره ونستطيب عشرته • بينما
يظهر لنا الان خنزيرا تعافه النفس •

بهذا المعنى يمكننا تفسير قصيدة «ورع» في «الاشراقات»:
الانسان مكون من عدة شخصيات تموت وتبعث على التوالي
على طول مساره الزمني • وهو يتقمص في كل حين واحدا
معينا من انواته المختلفة • انه في طقس عاصف بارد ممطر
غيره في طقس حار خانق محرق • وان رامبو ليعلم حق العلم
انه يحتوي في داخله على عدة انوات • وانه يلعب ادوارا
متنوعة على مسرح الحياة ، ويتضمن الكثير من الصفات
المتناقضة ، والقابليات المتميزة • انه يعرف انه رجل وامرأة
بنفس الوقت • انه المراهق المتحمس المتهور النزق ، وبذات
الحين العجوز المتزن الهادئ الرصين • انه في آن معا
الناسك الثابت في نقطة واحدة لا يبرحها ، والرحالة المغامر
الذي لا يستقر في مكان • ان في نفسيته شيئا من روح الذل
والفقر والسكنة والقلق على المستقبل وفقدان كل امان ، وفيها
ايضا شيء من روح الكبرياء والعنفوان والتسامي والايمان
بعلو المقام والاطمئنان الى الغد • انه يعرف ميوله وامزجته
واهوائه ونزعاته المتغيرة على هوى اللحظات والظروف
والصدف • كما انه يعرف دوافعه الدفينة وطباعه الفطرية

التي تملئها غرائزه العميقة الاصيلية • ان الشخص الذي يبعث فيه مثلاً ، في هذا المساء الخاشع الصامت الموحى بالبطولة والعظمة ، هو صاحب قلب قوي متفائل مليء بالدفء والحرارة ، عامر بالسمو الخلقي والطهارة والطيبة • اذن المرء يتغير لاتفه سبب ويخضع لتحولات دائمة في شتى الاتجاهات وبمختلف الاشكال والالوان • ان المرء يتبدل في كل النواحي، وحتى في مواقفه الغيبية ، وربما يتقلب في افكاره الماورائية المطلقة اكثر مما يفعل في سواها من الامور •

وهكذا يطلعنا رامبو في « فصل في الجحيم » على ان لون عينيه هو ازرق فاتح اسوة بأسلافه الفرنجة القدماء ، الذين يشبههم في محدودية الذهن وقلة البراعة في فن الصراع والقتال • لكن مع انه قوضوي في ملبسه ومأكله ومشربه واسلوبه في الحياة ، فهو ليس ، على كل حال ، على نفس الدرجة من الوحشية التي كان عليها جدوده الغاليون ، الذين كانوا في زمانهم يقتلون الوحوش المفترسة ، ويضرمون الحرائق في الزروع ، والذين ورث عنهم عبادة الاصنام ، وحب المحرمات، وكل العيوب : الغضب ، حب الترف، الكذب، وخاصة الكسل •

والان ماذا يعني رامبو بعبارة « دم فاسد » التي جعلها عنوانا للقسم الاول من اعترافاته في « فصل في الجحيم » • انه يقصد بدون شك انه بذرة عاطلة نبتت في تربة تلك العائلات المنحلة المنهارة التي تجري القطرات الموبوءة في عروقها • وبالفعل اذا تتبعنا السلالة التي يتجذر منها لوجدنا

انه ينوء تحت عبء وراثثة مثقلة بالامراض الخلقية والنفسية ، هذا من ناحية ارومة والده، الكايتن الذي هجر زوجته واولاده دونما رجعة عام ١٨٦٠ ، وانسحب عام ١٨٦٤ ، وهو في الخمسين من العمر ، الى ديجون ، مسقط رأس ابيه الخياط، حيث توفي عام ١٨٧٨ عن اربعة وستين عاما . وان ارتور لن ينسى آخر مشاجرة جرت بين والديه واتيح له مشاهدتها : كان الاب يأخذ وعاء من الفضة موضوعا على خزانة السفرة، ويرميه بغضب على البلاط ، حيث كان يحدث دويا صاحبها . ثم كان يعيد الاناء الى مكانه ، من حيث كانت تقتاوله الام بدورها وتقذفه ارضا تعبيرا عن سخطها هي الاخرى . كما من ناحية ارومة والدته ، التي تنتمي الى عائلة من المزارعين الميسورين الذين كونوا ثروتهم من جراء شرائهم املاكا وعقارات من الدولة في عهد الثورة الفرنسية ، ومن هنا قول ابنها الشاعر في « فصل في الجحيم » :

— « ٠٠٠ عائلات كعائلتي تدين بكل شيء للاعلان عن حقوق الانسان ٠٠٠ »

التي روجت عام ١٨٦٢ اشاعة انها ارملة لتقطع دابر الالسن ، التي كانت مستبدة متزمتة في تنشئة اولادها الاربعة المعهود بهم اليها وحدها بعد تخلي ابيهم عنهم . فلقد كانت تحضر كل نهار احد قداس الساعة الحادية عشرة ، كما يروي عنها شاهد عيان . وكانت تتوجه الى الكنيسة في مسيرة احتفالية : ابتناها في المقدمة ممسكات بايدي بعضهن، وفي الصف الثاني ولداها اللذان يحمل كل منهما مظلة من

القطن الازرق ، الجميع بقبعات وازياء رسمية لائقة ونظيفة ، وقمصان بيضاء مكوية بعناية ، واحذية كبيرة ، وهي تحفز فريقها كضابط نظامي ، مستقيمة القوام ، مرتدية ملابسها السوداء وقفازيها الوقورين ، والتي تنعتها حفيدتها بأنها امرأة شريرة غالبا ما كانت تخرج ، مساء ، لتنقل علامة الحدود الفاصلة بين اراضيها وحقول جيرانها . وبأنها ردمت ، ذات مرة ، نبعة ماء بالحجارة لتحرم بقية القرويين الافادة منها . وبأنها بصقت بين اقدام ولدها فردريك ، الذي كانت ربما على خلاف مالي معه ، وطردت بالمكنسة ابنة له في الخامسة من العمر ، حاول ان يعهد اليها بتربيتها . وهكذا اودعت حفيدتها الدير ، وكانت ترفض مقابلتهن ، معلنة انها لن تجتمع بهن الا امام الله اذا كن جديرات بذلك . وقد بلغ من قساوة الحياة على احداهن ، وسوء معاملة آل رامبولها ، ان ذهبت الى خوري الرعية ، وتوسلت اليه ان يدبر لها عريسا حتى ولو احذب الظهر ينقذها من ظلم عمته ايزابيل ، التي باتت تعيش في كنفها بعد وفاة جدة كانت في شبابها متصلة جدا في تربية ولديها فردريك وارثور ، لانها كانت تخشى عليهما ان ينتهيا الى مصير سيء كشقيقيها الفاشلين العاطلين ، اللذين ارتكب اكبرهما جناية غامضة عندما كان في السابعة عشرة من عمره ، فاضطر كي يتخلص من العقوبة الى التطوع في الجيش في الجزائر . ومن هنا انه اصبح معروفا في البلد باسم « الافريقي » . ولقد عاد الى الوطن بعد زواج شقيقته بقليل ، ومات دون ان يخلف وراءه اثرا . بينما كان اصغرهما سكيلا وكسولا ، هجر زوجته التي كان

يسيء معاملتها ، كما انه اهمل ادارة المزرعة التي تسلمها من والده ، فكفت شقيقته يده وتولت عنه الاشراف على املاك العائلة . وقضى عمره متشردا . ولقد كان يظهر من وقت الى آخر في « روش » . واذ كانت شقيقته تتظاهر بأنها لا تعرفه ، وتطلب منه ابراز اوراق هويته ، كان يتهددها ، ابتزازا للمال ، باثارة الفضائح . ثم دخل مأوى العجزة في الثانية والثمانين من العمر . ولم تمنعه حياة العريضة والتسكع التي امضاها ان يعمر حتى الرابعة والتسعين . ولقد رفض وهو على فراش الاحتضار ان يعترف ويتناول القربان المقدس ، واكتفى بأن طلب قنينة من النبيذ الاحمر ظل يعب منها حتى مات .

لقد كان خالا رامبو اذن من الخارجين على القوانين والتقاليد والاعراف المرعية بعنف ودون تحفظ . كما ان اسلافه من جهة ابيه لم يكونوا مثالا للفضيلة هم ايضا . ولا شقيقه فرديريك الذي مرغ شرف الاسرة في الوحل ، حين جار عليه الدهر ، فأصبح بائع جرائد في شوارع شارلفيل ، ثم سائق حافلة ، وسقط بسبب فسادده وانحلال اخلاقه ومرض ارادته عن مركزه الاجتماعي ، وانحط عن مستواه الطبقي ، والذي اراد ان يقرن بفتاة من عامة الشعب حملت منه سفاحا . فحاولت امه المستحيل دون زواجه ، الذي لم يتمكن من تحقيقه الا بعد ان استصدر امرا من محكمة نانسي ، عندما وضعت امراته المولود الحرام ، برفع الحظر الذي فرضته عليه والدته ، التي كانت ترفض استلام الاغراض التي

كان يحملها اليها الى « روش » ، عندما اصبح موظفا في شركة للنقلات ، والتي اشترطت عليه كي ترضى بالانفاق على تعليم اطفاله ، ان يطلق زوجته عام ١٨٩٥ (مع انه الوحيد بين ابنائها الذي انجب ذرية ، والوحيد الذي يتمتع بصحة جيدة ، اذ انه عمر اكثر من كل اخوته ومات سنة ١٩١١ عن ثمانية وخمسين عاما) . ولقد تشكى في رسالة وجهها في ١٠ كانون الاول سنة ١٨٩١ الى فيليب دارزنز ، ناشر مؤلفات شقيقه ارتور بعد وفاته ، بأنه من اسرة كريمة ، فوالده كابتن ، والدته غنية تملك ما يقارب الثلاثمئة الف فرنك . لكنه تزوج ضد مشيئة اهله فتاة فقيرة فقاطعوه . حتى انه لم يتلق منذ حوالي عشر سنوات اية اخبار منهم ، ولا من اخيه الشاعر ، الذي كان صديقا عزيزا الى قلبه ، والذي افسدت والدته علاقته به بتأثير الصورة البشعة التي كانت ترسمه بها هو ابنها البكر المقيم في فرنسا في عين شقيقه الاصغر المغترب . وبالفعل يعرب ارتور في خطاب له من عدن مؤرخ في ٧ تشرين الاول سنة ١٨٨٤ عن استيائه الشديد للانباء المكذرة التي تنقلها لـه رسائل والدته حول فردريك الذي يسيء بمسلكه الشائن ، وزواجه الاحمق الى سمعة العائلة ، وعن خجله بمثل هذا الاخ ، الذي طالما توقع له الفضل ، لانه عرفه دائما غبيا بليد الجس ، والذي يطمئن والدته الى انه لن يرسل له نقودا . فلا داعي لان تحذره بهذا الصدد . فهو يشقى كثيرا في جمع هذا المال في مجاهل افريقيا ، ولن يهدره بالتالي على اخ من هذا النوع يروج عنه

الاشاعات المغرضة في غيابه ، ويفتري عليه بلسانه ، كما تزعم الرسائل الواردة اليه من الوطن ، والتي يرد عليها ارتور بأن سيرته الحسنة هي فوق الشبهات • (فمن عادة العائلات المنهارة التكلم عن بعضهم بالسوء في حضرة الغرباء ونشر غسيلهم القذر امام الناس • ومن طبيعة افراد الاسرة المنحلة ان يشكي كل منهم همه للآخرين ليبرهن لهم انه مظلوم ، وان اهله مخطئون ، انه مثال للفضيلة بينما اخوته على ضلال • وهو مضطر ان يدفع ثمن الاخطاء التي يرتكبونها) •

اما ايزابيل رامبو ، شقيقة ارتور ، فلطالما صرخت في وجه والدتها المتسلطة العنيدة الصارمة بما فحواه : ان امرأة مثلك لا تحب الاطفال يجب ان لا تتزوج ، وان فعلت فيجب ان يحرمها الله من البنين • لكن هل فيتالي كويف هي حقا علة شقاء اولادها ، ام هم بالعكس سبب بلواها ، كما تزعم هي في احدى رسائلها الى ابنتها ايزابيل ، حيث تصرح بانها لو لم ترزق باطفال كثيرين عذبوها الى هذا الحد لكانت عاشت حياة هنيئة مع زوجها • هل كانت حقا بلا قلب هي التي كتبت في رسالة موجهة الى ابنها ارتور : سعيديون من ليس عندهم اولاد ، او من لا يحبون اولادهم لانهم لا مبالون حيال كل ما يمكن ان يحدث لهم من مكروه ؟ ام ان الامر بكل بساطة هو كما تقول في رسالة ثالثة لها :

— « ••• يوجد مخلوقات منذورة لكل انواع العذاب في الحياة : انا واحدة منها ••• » مهما يكن من شيء فان ارتور

قد اخذ الكثير من خصال والدته • الم يقل ميشليه بأن الرجال
العظام هم ابناء امهاتهم •

وهكذا نشأ محروما من العطف والحنان اللذين يصور توقه
اليهما في قصيدة « الباحثان عن القمل » اذ انه عندما
هرب الى « دواي » (Douai) الى قرب استاذة جورج ازامبار
وجد عمتي هذا الاخير بالتبني الانستين « جاندر » (Jindre)
اللتين احاطتاه بالرعاية ، واغدقتا عليه من تلك العشرة
المؤنسة والدفع البشري الذي كان بأمس الحاجة اليه • فعبر
عن هذه التجربة الحياتية في قصيدته الأنفة الذكر ، حيث
يصور لنا نفسه ولدا مضطرب النفس ، مبلبل الخواطر ، قلق
الافكار ، يهرب من ضراوة الواقع الى خياله واحلامه التي
لم تعد قادرة على ارواء عطشه الجنوني الى المطلق ، واشباع
جوعه الداخلي الممض المضني ، فتقترب منه شقيقتان كبيرتان
ساحرتان :

ـ « بأصابع هشة ذات اظافر فضية ٠٠٠ »

وتجلسانه امام النافذة المفتوحة على الهواء النقي المضمخ
بعطر الازهار ، وتغذان اناملهما السحرية المروسة والمخيفة
في شعره الكثيف المبلل بالندى لتقليانه من القمل بمعنى
تحريره من شكوكه المضطربة ، وهمومه واشجانه ، وتنظيفه
من اكداره الباطنة ، وتطهيره من ادراعه النفسية • وانه
ليقعد في فيئهما الوارف ، وظل اهدابهما التي ترف في الصمت
يصغي الى تنهداتهما الحارة ، ويذوق في جوهما الاليف

الحميم طعم السعادة والحب الانساني الذي يفتقر اليه . حتى
لتأخذه حاجة الى البكاء حنانا ، والاعفاء بأمان في مرفأ هذه
الاحضان الرؤوفة .

ان رامبو يدرك جيدا انه مخلوق غريب عجيب ليس له
مثيل في اي بقعة من الارض ، ولا شبيه في اي فترة من
التاريخ . وهو يدعنا نتابع مغامرته الطريفة في الحياة من
خلال شعره . فنتساءل مثلا : هل امضى فترة من الوقت في
ثكنة حربية اثناء كومونة باريس ، وهل قصيدة « القلب
المسروق » هي تعبير عن هذه التجربة ، وعن علاقات جنسية
مريبة قد يكون تورط فيها هناك ؟ انه يتحدث فيها عن مزحات
الجنود الرعاع الافظاظ التقليدية التي تدور حول الجنس
والبذاءة ، ويعرب فيها عن قرقه واشمئزازه من حالة
الانحطاط والسوقية التي انحدر اليها من جراء عشرة السوء
هذه ، التي لطخت قلبه فاصبح بحاجة الى الاغتسال بماء
مطهرة ليستعيد نقاءه وصفاءه الاول .

ونلاحق اخباره حين عرض عليه صاحبه « برتاني »
(Bretagne) ان يقدمه الى بولفرلين ، الذي كان قد تعرف
عليه عندما كان يعمل في معمل للسكر يملكه خال هذا الاخير ،
الذي اهداه في حينه ، عربونا لصداقته ، المحبرة التي
استخدمها في كتابة « قصائد زحلية » . وهكذا بعث رامبو
بعضا من قصائده ، مشفوعة برسالة يشرح فيها نزعتيه
الشعرية ، الى فرلين الذي دعاه بحرارة وحماس الى باريس
متعهدا بان يتكفل بكل مصاريفه هناك ، مرفقا جوابه الذي

جاء فيه : « تعال أيتها الروح العظيمة العزيزة ، اننا ندعوك ،
اننا ننتظرك » بمبلغ من المال يكفي لدفع كل تكاليف السفرة ،
وهو ثمرة تبرعات مجموعة من الشعراء البارناسيين .

ونتابعه عشية سفره الى باريس حين قابل مواطنه ارنست
دلاهاي وقرأ عليه قصيدة « المركب السكران » التي حضرها
خصيصا ليتلوها على شعراء العاصمة ليقنعهم بمواهبه .
وعندما راح صديقه ، وقد سحر بروعة القصيدة ، يبدي
حماسه واعجابه الشديد بها ، اجابه رامبو بفخر واعتزاز :
— « ٠٠٠ نعم لم يكتب حتى الان شيء شبيه بها ، اعرف
جيذا ٠٠٠ » .

لكنه كان يتخوف مما ينتظره في باريس ومن مقابلة
شعرائها المتأنقين بسبب خجله وارتباك في المجتمعات ، وقلة
مهارته في التعامل مع الناس ، وسوء هندامه . وقد اضاف
مخاطبا رفيقه دلاهاي هذا :

— « ٠٠٠ ان كان بخصوص الفكر فاني لا اخشى احدا ،
لكن ٠٠٠ ماذا سافعل هناك ٠٠٠ » .

اما حين وصل الى العاصمة الفرنسية فان اول سؤا
طرحه على الشاعر البارناسي بانفيل هو عما اذا لم يكن
قد حان الوقت بعد لالغاء بحر الشعر الاسكندري . ولقد
كتبت ماتيلد موتيه تصف الانطباع البكر ، الذي تركته في
نفسها مقابلتها الاولى لرامبو حين وصوله الى باريس ، التي

انما قصدها بناء على دعوة من زوجها فرلين :

ـ « ٠٠٠ كان فتى طويلا وقويا ذا وجه احمر ، فلاحا ٠ كان له هيئة تلميذ صغير نما بسرعة كبيرة ، لان ينطلونه المشقول كان يكشف عن كلساته القطنية التي حاكتها العناية الامومية . شعر منفوش ، ربطة عنق رثة ، ثياب مهملة ٠ كانت عيونـه زرقاء ، جميلة نوعا ٠٠٠ » ٠

اما فرلين فلقد نعت رامبو ، عند لقائه الاول له ، بانه كان جميلا للغاية ، يتمتع بجاذبية فلاح داهية ، تعلو نبرات لهجته وتنخفض باختلاجات صوت مراهق ، وبانه :

ـ « ٠٠٠ كان كبيرا ، متين البنيان ، مفتول العضلات تقريبا ، ذا وجه بيضوي تماما كملاك في المفى ، مع شعر كستنائي فاتح فوضوي ، وعيون زرقاء باهتة مثيرة للاضراب ٠٠٠ رأس طفل حقيقي مكتنز ونضر ، فوق جسد عظمي ومرتبك لمراهق لا يزال ينمو بعد ٠٠٠ » ٠

ولقد عرف فرلين محبيه رامبو الى الاوساط الادبية في عاصمة النور ، وقدمه في عشاء « الرجال الاشرار » (Les vilains Borhmes) وهو لقاء شهري كان يجتمع فيه بعض من شعراء وفناني ذلك العهد ، يتناقشون ، ويلقون آخر قصائدهم ٠ وقد دهمشوا جميعا للنبوغ المبكر الذي برهن عنه امامهم رامبو ، الذي هو « عبقرى ينهض » على حد تعبير احدهم : فالاد ، الذي وصفه بهذه الكلمات :

ـ « ٠٠٠ يدان كبيرتان ، قدمان كبيرتان ، وجه طفولي

كلية قد يلائم طفلا في الثالثة عشر من عمره ، عيون زرقاء عميقة ، طبع متوحش اكثر منه خجول ، هذا هو المخلوق الذي سحر او اربع كل اصدقائنا بخياله المليء قوة وانحطاطا لا مثيل لهما . . .

لكن رامبو وفرلين كانا يعودان الى المنزل في اواخر الليل متعتعين من السكر ، فلم تطق زوجة هذا الاخير صبرا على هذه الحياة ، وسرعان ما غادر فتى شارلقل بيت مضيفه بعد اسبوعين من نزوله فيه .

ترى ماذا كان مصيره بعد ذلك ؟ لقد قابله فرلين ذات يوم يتسكع في الشوارع بثيابه المتسخة الممزقة ، شاحبا يكاد يموت من الجوع . فذهب ليطلب له مساعدة من تيودور دي بانفيل ، الذي استأجر غرفة صغيرة للشاعر المتشرد ، وزوده بسرير . وما ان دخل رامبو مقره الجديد حتى خلع كل ملابسه ، ورماها الى الطريق ، ووقف عاريا امام النافذة متذرعاً بانه لا يستطيع ان ينام فوق فراش نظيف باسمال رثة مليئة بالقمل . وها هو يضطر بعد بضعة ايام الى نقل السرير الذي اعارته اياه زوجة تيودور دي بانفيل الى المختبر الذي كان يشغله الشاعر شارل كرو مع رسام من رفاقه . ثم آواه بعد ذلك الموسيقار تابانير في بيته . واخيرا ، ونزولا عند رغبة رامبو في ان يعيش جرا مستقلا ، تآزر اصدقاؤه ومعيلاه على تأمين ثلاثة فرنكات تصرف له يوميا ، واسكنوه على نفقتهم في حجرة حقيرة امضى فيها ثلاثة اشهر .

وكان من ثمرة مغامرة الشاعر المراهق في باريس ، التي استمرت نصف سنة ، ان طالبت ماتيلد موتيه بالانفصال عن زوجها فرلين التي راحت الالسن تلوك سمعته وعلاقته برامبو ، الذي انسحب الى شارلفيل في شباط من عام ١٨٧٢ ليهيئ لرفيقه جوا ملائما لمصالحة قرينته .

ولسوف يستعيد رامبو فيما بعد هذه الفترة من عمره في احدى قصائد « الاشراقات » : « حيوات - ع » حيث يعلن عن وعيه بقيمته كشاعر مبدع خلاق جدد في الاساليب الشعرية اكثر من كل الذين سبقوه ، وخبر حالات من الغبطة الخارقة ، والاشراق الروحي العميق والوحي الفني الاصيل ادرك خلالها جوهر الحب ، وارتقى على سلالها درجات من الوجد شبه صوفية . اما الان وقد عاد الى مزرعة امه ، فانه سيد اقطاعي متبطل في هذه البقعة الموحشة القاحلة الكثيبة من الريف الفرنسي . وها هو في هذا الجو الرتيب المليء بالمرارة يحاول ان يوقظ احساسه المتبلد وهموده الروحي ، بان يتذكر طفولته، وتشرده على الطرقات ، ومغامرة وصوله الى باريس كي يشق طريقه في دنيا الادب ، قدومه الى العاصمة هو الصبي المتوحش ، الرث الثياب ، الواقد من الريف ، المنضم الى حلقة الشعراء الباريسييين المتأقنين ، الندوات والمناقشات الادبية التي حضرها ، علاقته مع فرلين المتذبذبة بين التقارب والتباعد ، بين الود والنفور ، بين الصداقة والخصام ، حفلات العريضة والمجون التي اشترك فيها ، حيث كان عناده واستقلاله وقوة شخصيته ومزاجه الجامح يمنعه من مجارة

رفاقه والاندماج في جوهم ، والانسجام معهم ، كما حصل له ذات مرة بعد عشاء « الرجال الاشرار » حين حاول ان يهجم على الشاعر - المصور تارجا ، ويضربه بعصا مزودة بحربة سيف ، على اثر شجار نشب بينهما • لكنه لا يتحسر كثيرا على حالات الفرح الالهية التي كان يمر بها ، والتي كانت تخصص طاقتة الابداعية ، وتغذي ملكاته الفنية • لان الجو الكالح الحزين الذي يسود في هذه المقاطعة العجفاء يغذي نزعتة الى الشك والتشاؤم ، تلك النزعة الهدامة التي يحب احيانا الاستسلام لسلطانها الطاغية ، والتي تخنق كل الهام شعري ، وليست مؤاتية لاي ابداع فني • وبما انه يشعر بحاجة ملحة الى الكتابة فانه يجد نفسه في وضع حرج وصعب يكاد يذهب بعقله •

ولعل رامبو في قصيدة « حيوات - ١ » يعبر ايضا عن حالته النفسية بعد عودته من مغامراته الباريسية الفاشلة الى منطقة « الأردن » • ويعلن ان ارض الوحي اصبحت بعيدة عنه الآن • وان محراب الجمال الذي كان من سدنته في الامس ، لم يعد اليوم سوى مجرد ذكرى • كما ان معبد الحكمة والمعرفة الذي كان يملك جواز مرور دائم اليه بفضل الاشراقات الفكرية العميقة ، التي كان يعرفها ، فانه اصبحت حاليا من مخلفات الماضي • انه لا يزال يذكر اندق واقدم التفاصيل عن هذه الفترة الخلاقة من حياته :المتعات الجمالية، والنشوات والسكرات الروحية اللايعبر عنها ، والنااتجة عن احتكاكه بالطبيعة التي كان يدخل معها في حالات من الوجد

الصوفي والعشق والوصال شبه الجنسي ايان تجواله بين
الوديان والسهول وعلى ضفاف الانهار التي تنعكس الشمس
على صفحتها الفضية . ان نويات الحماس المذهلة التي كان
يمربها من قبل لا تزال اصداؤها تترجع بين حنايا نفسه . اما
الان وقد طرد من جنة الالهام التي كانت وطنه السابق ، فان
كبرياهه الجريحة تدفعه الى الاعتداد بامجاده الغابرة : لقد
عاش حياة حافلة مثيرة ، وارتشف من خمرة الجمال حتى
الثمالة ، وكان قلبه مسرحا لشتى انواع الروائع الفنية
والانسانية . وهو المؤهل لان يكشف للآخرين ما
ينطوي عليه الكون من غنى وسحر لا يوصف . انه يراقب
بشفقة هذه الخيرات المسكينة الحائرة التي يتكالب عليها
البشر العاديون ، وينخدعون بها . لكنه يعلم ماذا سيحدث
فيما لو اعلن ان الكنوز التي يتهاقون ويلهثون وراءها زائفة
تافهة لا تستحق الاكتراث او الاهتمام بها . وان الدرب التي
يدلهم عليها هي وحدها الجديرة بان يسلكها المرء . وان
الجواهر الفريدة التي يهبهم اياها دون سواها الثمينة
والغالية والقيمة بان يستमित الانسان من اجل الحصول
عليها . انهم لن يصدقوه ، وسيقابلون ادعاءاته بالهزء
والاحتقار ، وسيجاهلون وجوده . لكن حالة الشقاء التي
هو فيها ليست بشيء يذكر ، اذا ما قيست بواقع التفاهة
والبلادة والفتور النفسي الذي يفرق فيه السواد الاعظم من
الناس . هو عاش عمره بزخم ، وخبر ما تنطوي عليه الحياة
من عمق لامادي وجمال حقيقي . بينما يطفون هم فوق رغبة
الايام وعلى سطح ذواتهم .

ان رامبو ليشعر احيانا بخجل من نفسه ، ويود لو يحفر حفرة ويطمر عاره فيها • ويدرك انه طالما هو حي ، طالما ان تراب القبر لم يغيبه ، فانه سيستمر في ان يكون ذلك الصبي المزعج والحيوان الابله ، ذلك الشيطان الملعون ، والخائن الخبيث ، وتلك الهرة القذرة التي تلوث الارعاء برائحتها الكريهة ، كما يقول في قصيدة « عار » •

انه يجيب ، بصوت مختلج بالدموع ، امه التي تلومه لانه بطل ، بانه بالعكس يشغل كثيرا ، وان العمل الفكري هو اصعب من كل المهن الاخرى • لكن والدته تحتج بان نظم القصائد لا يفضي الى اية نتيجة ايجابية ، فيرد عليها : فليكن ، اني اكتب ، هذا واجبي •

لكن ها هو يستجيب لنداء فرلين في ايار عام ١٨٧٢ ويلتحق به من جديد في باريس ، التي لا يلبث ان يضجر من الحياة في محيطها ، والسكر في مقاهيها • ففي شهر تموز ، وفيما كان فرلين خارجا لياتي بدواء من الصيدلية ، اذا به يصادف رامبو يقصده حاملا رسالة يبلغه فيها انه سيذهب الى بلجيكا ، طالبا منه مرافقته في هذه الرحلة • وعبثا راح الشريك البكر يعتذر بان امرأته مريضة وانه لا يستطيع ان يتركها ، فانه سرعان ما خلف كل شيء وراء ظهره وتبع صديقه الصغير • لكن ماتيلد موتيه قامت بصحبة والدتها بمطاردة بعها الهارب لاعادته الى الحظيرة العائلية • فوصلت بلجيكا في ٢١ تموز ، واقنعت فرلين بضرورة الرجوع معها من اجل مصلحة ولدهما ، فاخذ بحجتها واستقل القطار

المسافر الى باريس • غير انه ترجل في المحطة على الحدود البلجيكية الفرنسية • واختفى ولم يظهر الا عندما اقلعت الحافلة واغلقوا ابواب المقصورة ، ليعلم لامراته بانها لا يستطيع مرافقتها الى الوطن • وكان هذا اخر لقاء بين الزوجين •

ثم هجر الشاعران المتشردان بلجيكا وجاءا الى لندن • واثناء وجودهما هناك ، وفي تشرين الاول ١٨٧٢ سافرت والدته رامبو الى باريس لتقنع زوجة فرلين الغاضبة بسحب شكواها لانها تسيء الى سمعة ابنها ارتور ، ولتسأل استرجاع دفاتر مؤلفه « الصيد الروحي » التي كانت في حوزة ماتيلد موتيه ، التي دمرتها فيما بعد • لكن الام المسكينة ارتدت خائبة ، ولم تفلح لا في اسقاط دعوى الطلاق ، ولا في استرداد المخطوطة الضائعة •

ولم يلبث رامبو ان هرب في كانون الاول عام ١٨٧٢ الى « الأردن » تاركا صديقه وحده في لندن التي رجع اليها من جديد في اواخر كانون الثاني ١٨٧٣ بناء على استدعاء فرلين الذي مرض هناك • وما ان استرد هذا الاخير صحته ، حتى رحل رامبو ثانية الى مسقط رأسه • ففي يوم الجمعة العظيمة الموافق في ١١ نيسان ١٨٧٣ وفيما كانت فيتالسي كوفي مع اولادها فرديريك وايزابيل وفيتالي في مزرعة روش ، اذا بقرعات تدق الباب • ويا لها من مفاجأة سارة عندما اكتشف افراد العائلة ان الزائر المجهول انما هو الابن الضال ارتور ، الذي يكتمل به شملهم ، الذي امضى النهار كله

مستأنسا بعشرة اهله الحميمة ، سعيدا لاجتماعه بهم بعد طول فراق ، متفقدا بحماس الاملاك ، متعرفا بفرح على معالم القرية ، والذي باشر في هذه الفترة تأليف « فصل في الجحيم » قائلا بصددده في خطاب بعثه الى صديقه ارنست دلاهاي :

— « ٠٠٠ ان مصيري يتوقف على هذا الكتاب ٠٠٠ » .

معريا في نفس الرسالة المؤرخة في ايار ، بانه متضايق جدا لانه لا يوجد كتاب في متناول يده ، في هذا المكان النائي من الريف الفرنسي ، ولا حانة قريبة ، وانه لا يجري اي حادث في الشارع .

وها هو مع فرلين في ٢٤ ايار يسافر مجددا الى لندن ، حيث تشاجر الصديقان في ٣ تموز : فلقد كانا يتولييان شؤون المنزل بنفسهما ويتناوبان القيام بمشترياتهما الشخصية . وذات يوم ، وقد كان دور فرلين في الذهاب الى السوق للتبضع ، ابتاع بعض السمك وقنينة من الزيت وعاد بها الى المسكن . فراح رامبو ، الذي كان يراقبه من النافذة ، وهو يدخل محملا بالاغراض ، يسخر منه . فرمى فرلين كل ما في يده من الحوائج ارضا ، وغادر لندن تاركا صديقه فيها دون نقود . وسافر الى بلجيكا حيث طلب من زوجته الالتحاق به ، املا ان يتصالح معها ، او ان ينتحر اذا اخفق في ذلك . لكن ماتيلد موته رفضت الانضمام اليه . فندم على فعلته ، ووبخه ضميره لتخليه عن رفيقه في لندن . فوصل رامبو في ٨ تموز سنة ١٨٧٣ الى بروكسل حيث سكن مع

فرلين ووالدة هذا الاخير في فندق خرج منه فرلين في السادسة صباحا من نهار الخميس الموافق ١٠ تموز ولم يعد الا ظهرا . لقد كان ثملا للغاية ، ومتوتر الاعصاب الى اقصى درجة . وقد شهر مسدسا كان قد اشتراه حديثا ، وعندما ساله رامبو : ماذا تنوي ان تفعل به ؟ اجابه مازحا : ان هذه الرصاصات هي لاجلك ، لاجلي ، لاجل كل الناس . بينما يدعي فرلين ، في الاعتراف الذي ادلى به في مركز الشرطة ، بانه انما اقتنى هذه القطعة من السلاح لينتحر بها في حال فشل مساعيه للوفاق مع زوجته . ثم نزل فرلين من الفندق عدة مرات ليشرب الكحول ويعود . لقد كان يحاول ان يمنع رامبو بأي ثمن من تحقيق مشروعه في السفر الى باريس ، وطالبا المال لهذه الغاية من والدة فرلين ، الذي اوصد الغرفة فجأة ، وجلس على كرسي امام الباب المغلق صائحا في وجه رفيقه الواقف مسندا ظهره الى الحائط المواجه : خذ هذه الطلقة بما انك تريد ان ترحل . وضغط على الزناد ، فأصاب رامبو في راسه الايسر . ثم وجه الفوهة نحو الارض وفجر رصاصة ثانية . لكنه ندم راسا على فعلته ، وتملكه يأس فظيع من جرائمها . فهب الى الغرفة المجاورة التي تقطنها امه ، حيث ارتقى على السرير كالمجنون ، ووضع مسدسه بين يدي رامبو ، وطلب منه ان يفرغه له في صدغه . ثم قام في الساعة الخامسة مساء مع والدته باقتياد الجريح الى مركز الاسعاف ، واقترحا عليه ان يبقى معهما الى ان يلتئم جرحه ، او ان يدخل المستشفى للمعالجة . لكن هذا الاخير

ارتأى ان اصابته طفيفة ، وان الافضل له ان ييمم شطر
 شارفيل ، فأعطته والدته قرلين عشرين فرنكا ليقوم بالسفرة ،
 ورافقته حتى المحطة هي ولدها ، الذي كان فاقد الرشيد
 من شدة قنوطه ، الذي كان يحاول بكل قواه ان يقنع صديقه
 بالبقاء الى قربه ، والذي تقدم قليلا عن الموكب ، ثم استدار
 واضعا يده في جيبه فوق المسدس ، وعاد نحو رامبو ، الذي
 خاف ان يكون الغضب قد استولى على رفيقه من جديد ، وان
 يكون هذا الاخير يدنو منه بنية اطلاق الرصاص عليه مرة
 اخرى . فنكص على عقبيه ، وهرب الى حيث احتوى باحد
 رجال الشرطة طالبا منه ان يوقف قرلين ، الذي حكم عليه
 بالحبس لمدة سنتين في سجن مونس (Mons) ، والذي ادعى
 في الاعتراف الذي ادلى به امام المحقق العدلي ، بانه حاول
 ان يمنع رفيقه من السفر ، وبأنه هدده بالانتحار اذا رحل
 عنه . لكن هذا الاخير فهم خطأ انه يتوعده بالقتل . بينما عاد
 رامبو الى « الأردنين » مضمد الذراع . وما ان وصل الى
 مزرعة روش حتى تهافت على كرسي في المطبخ ، ووضع
 رأسه بين يديه ، وراح ينتحب امام افراد عائلته الذين تجمعوا
 حوله مستفسرين عن حالته ، والذين كانوا جميعا باشراف
 الام القوية النشيطة ، يقومون بالاعمال الزراعية ، بدءا
 بفردريك البليد المتثاقل ، مروراً بفيثالي الهزيلة الحاملة ، انتهاء
 بايزابيل المتفرغة لتربية الارانب والصيصان . وحده ارتور ،
 الذي تصفه يوميات شقيقته فيثالي ، التي كانت حينذاك في
 الخامسة عشر من عمرها ، على الشكل التالي :

– « ٠٠٠ ان اخي ارتور لم يكن يشاركنا قط في اعمالنا الزراعية ، ان الريشة تشغل عنده اهتماما جديا لدرجة انها لا تسمح له بالانغماس في الاعمال اليدوية ٠٠٠ » ،

وحده ارتور انصرف الى امور اخرى لا تمت الى اشغال الحقول بصلة ، استغرق من جديد في تدبيج صفحات ذلك « الكتاب الزنجي » ، وانهك ما بين اواسط تموز واواخر آب ١٨٧٣ في اكمال «فصل في الجحيم» ، الذي كان قد باشره في نيسان من نفس العام ، والذي يصف فيه التمزقات الداخلية ، والصراعات الباطنة التي عانى منها ، والقذارات التي تمرغ في حمايتها . وكيف انه كان عبدا لضعفه الذي يقوده الى هزيمة تلو هزيمة . وكيف راح يشفق على حاله ، وعلى كافة اوضاعه النفسية ، على طهارته ، وعلى العالم تلك المهزلة المتواصلة التي يعيشها الجميع ، ويحسد القديسين على طمانينتهم ، لانهم اقوياء ونساک وقنانون من ذلك النوع الفريد الذي انقرض ، مدركا تمام الادراك ان انسانا يدمر نفسه بملء ارادته ، ويرتمي طواعية في حماة الشر هو شخص هالك لا محالة ، مخلوق ملعون يستجلب الويلات على رأسه ، ويوقع صك عذابه بيده ، منحدرًا احيانا الى درجات من الياس والانحطاط والرضوخ ، من الوحشة والهجران والراء للآخرين لا يبلغها الا خاطيء يتوق الى الخلاص ، ويطلب الصفح والغفران من ربه . وهكذا وصل الى اسفل الدرك الى حيث لا يستطيع النزول مزيدا ، بنوع ان اقل حركة منه ما عاد يمكن ان تكون الا للارتفاع الى فوق ، والصعود من وهده ،

والتوق الى النور والكمال . وهكذا راح وجهه يتقلص من
الالم ، ولازمه شعور بأنه لا يعيش حياته ولا ينتمي الى هذا
العالم ، ومات فيه كل حس ، وتبخرت كل احلامه ومشاريعه ،
وقرأت له كل امكانيات السعادة وكل جمالات الكون مجرد
سراب ، لانه متعب يتعذب ويتلظى بنيران اكثر من جحيم :
الكبرياء ، الغضب ، الشهوات الآثمة . لانه يموت من
الاعياء ، فالرذيلة ، التي هي اشبه بدودة الفناء التي تنخر
العظام ، قد قرضت جسده على مهل . والشيطان قد اذابه
بسحره . حتى لقد بات يفضل الهلاك النهائي ، الاستسلام
المطلق لليأس ، الرضوخ التام لحكم الظلام ، على الصعود
الى النور ثانية ومعاودة الحياة ، ورؤية عوراتها وتشويهاتها
وبشاعاتها الجارحة ، والآثار المريعة التي تتركها في نفسه
آفة التحشيش والعلاقات الجنسية المحرمة ، وضعفه وانحطاطه
وقساوة القدر عليه . وحتى لقد بات يستجير ويستنجد
ويسترحم من شدة الالم ، ويود لو تنشق الارض وتبلعه ،
وتواري ذله ، وتخفيه عن الانظار . لكن مع انه تدهور الى
اعماق دهليز فان العيون تلاحقه الى مخبئه المظلم تفضح
عييه ، وتسلب نورها العدائي على عريه . لان دمغة الجحيم
الموصومة على جبينه تجعله عرضة للانظار اكثر . ولانه
كلما تالم واحس بالذنب كلما تضاعف خوفه من احكام
الآخرين ، وزاد شعوره بالمهانة والنقص تجاههم .

ثم اصبحت صحته مهددة وانهارت اعصابه ، وصار
يعيش في حالة من القلق والتوتر والرعب ، ويقع طريق

الغراش لعدة ايام ، لا يفيق اثناءها الا لكي يكمل في البيضة الكوابيس التي رآها في المنام ، ويستمر في الهلوسة والهلذيان والاحلام الكثيرة المزعجة . حتى لقد غدا ثمرة ناضجة في يد الموت ، يقوده ضعفه على درب محفوفة بالمخاطر الى ما وراء افق الحياة ، الى مناطق التهلكة والظلام . لكنه اجبن من ان يعشق المنية ويفكر بالانتحار . مع انه اذا استعرض حالته لما وجد اي داع للأسف على فقدان عمره ، الذي لم يكن سوى سلسلة من الحماقات والتصرفات الجنونية الخرقاء ، وحلقة متصلة من الخيبة والمرارة . ومن حسن حظه انه لم يتعذب الا بهذا المقدار . اذ ان نزواته الهوجاء ونزقه الارعن ، وطبعه المتهور يرشحه لنصيب من الشقاء اكثر بكثير من ذلك الذي ذاقه بالفعل . واذا ان اخطاه الفادحة تستأهل قصاصا اقوى مئة مرة من العقاب الذي حل عليه في الواقع . كما ان حسه اللاواعي وعدم اخذه الامور عن جد يجعله يستخف بالكوارث التي تنزل به ، ولا يتأثر كما ينبغي بالحن التي يتعرض لها ، كما كان ليفعل اي شخص واقعي آخر لو كان في مثل موقفه المشؤوم . نعم لو ان الصعاب التي ارهقت كاهل رامبو واجهت احدا غيره من الرجال العمليين لما صمد لضغوطها .

ولقد بات يرفض الفراديس الاصطناعية التي تخلقها له الخمر ، ويفضل التحلل في مستنقع الحياة اليومية على حفلات السبكر مع الاصدقاء . فالحالة النفسية التي وصل اليها تشبه تلك الذوبات العصبية الحادة القمينة بأن توحى

بقصيدة مثل « تصفية » من « الاشراقات » حيث يعلن عن رغبته في التخلي عن كل شيء ، وحتى عن تلك المواد الغالية الثمينة التي انخدع بها في لحظة ما ، والتي كان يظن انه لا يمكن التفكير بطرحها جانبا . التنازل المطلق وليس فقط عن المفاسد ثمرة الغرائز المنحطة ، والمبازل معبودة الطبقات السفلى من الشعب . بل وحتى عن تلك المثل العليا والقيم الراقية ، والكنوز الروحية المتعالية على شروط الزمان والمكان . بما في ذلك تكوينه الفيزيولوجي الذي يحرمه من الانتماء الى اي جنس سواء فصيلة الرجال او فصيلة النساء ، الذي يكرس غريته عن اي عائلة ، وينفيه عن العالم ، ذلك التركيب العجيب الذي كان يظن فيما مضى انه يمنحه نوعا من الامتياز ، والذي يود الآن اسقاطه من حسابه دون اسف .

كما ينبغي التنصل من روحه الثورية وتعاليه واحتقاره لانظمة الحياة ، ومحاولته تغييرها ، ورفضه للتقاليد والشرائع التي يسنها المجتمع والاناس العاديون . تماما مثلما انه يدير ظهره لكل مستحدثات العلم من مبان عصرية ، ووسائل نقل متطورة ، وكل الكماليات وانواع الرياضة واللهو والترفيه ، وجميع اصناف الاكتشافات والاختراعات مع ما شقته من آفاق للمستقبل ، وما خلقتة من ضجة صاخبة وحركة لا تهدأ ، وشتى انواع التطبيقات التقنية التي تحاول السيطرة على الكون ، وتخلق في الانسان حوافز جديدة للتكالب على جمع الثروة ، والتراكم على المغام والمكاسب المادية ، وتنمي فيه الجشع ، وحب التملك والترف والرفاهية وتضاعف له وسائل

المتعة والتسلية الشعبية المبتذلة ، وتوفر له جميع الاسباب لاشباع غرائزه الدونية ونزعاته السفلية ، وميوله الفاسدة .
نعم لقد مر رامبو بفترات عصيبة قرر فيها الاعراض عن كل عطايا الارض . وحتى عن تلك الهبات النادرة ، التي لم يكن يظن احد بامكانية رميها من يده نظرا الى ان هناك هدايا اقل شأننا لم يتم تصفيتها بعد ، ونظرا لتعلق المرء الشديد بحطام هذه الدنيا . لقد اجتاز مراحل حرجة من نوع تلك الازمة الروحية الحادة المعاصرة لتأليف « فصل في الجحيم » ، الذي كان افراد عائلته يسمعونـه وهو يصوغ عباراته النارية ، ينتحب ، يئن ، يجدف ، يقهقه ، يتهمك ، ويصرخ من الغضب ، عبر خشب مخزن الحبوب حيث اتخذ له غرفة في مزرعة روش ، والذي صرح بخصوصه لشقيقته ايزابيل :

ـ « ٠٠٠ لكنت جننت (لو اني واصلت) ثم ان هذا كان شرا ٠٠٠ »

وما الداعي الى الاستمرار . لقد بلغ الذروة واعطى اقصى ما يستطيعه مخلوق ، ولم يعد عليه سوى ان ينسحب . وهذا ما يعبر عنه في قصيدة من « الاشراقات » عنوانها « حيوات - ٣ » ، حيث يعتقد بأنه تمكن ، رغم ضالة النقطة التي كان محصورا فيها ، ومحدودية المنزل الابوي الذي كان مسجوناً فيه ، ان يسافر بخياله في الزمان والمكان ، ويسبر من عزلته الضيقة غور النفس البشرية . كما ان خياله الخصب الجامع قد اتاح له بفضل العديد من اشراقات الفرح الخاطفة

ان يختبر كل انواع الجمال • ولقد انجز انتاجه الشعري الموسوم بطابع الدهشة والسحر ، الغارق في جو اسطوري عجيب في فترة باكورة جدا من حياته التي عاشها بزخم ، واستنفدها بملء ونفاد صبر ، وعجل لها ايقاعها بان خض دمه وبث السرعة في سرايينه ، وشحنها ، بحيوية متفجرة • فاذا بقطراته الوحشية الحارة الضاجة في جميع عروقه مجاذيف جبارة تقود مركبه خلال فترة وجيزة الى رحلة طويلة يحتاج اي زورق اخر مبحر بايقاع عادي الى حقبة مديدة كي يقطعها • لكانه ضيق الصدر مستعجل يصل قبل الاوان ، العمل الذي كان عليه تنفيذه خلال خمسين سنة مثلا ، اتمه خلال اربعة اعوام مكثفة فقط ، هي بمثابة عمر كامل • وانتهت هكذا مهمته وتقاعد ، وخرج من المعتكف ، ولم يعد عنده ثمة وظيفة يؤديها كتلميذ نجيب حفظ بدقيقة واحدة الامثلة التي يحتاج غيره الى ساعة لاستيعابها ، فبقي عنده فائض من الدقائق لا يعلم كيف يهدرها • لكان ايامه انقضت ودوره على مسرح هذه الارض انتهى ، لكنه ظل حيا مع ذلك ليشهد مرحلة ما بعد موته •

٣ - تغيير الحياة

« تبديل العالم ، قال ماركس تغيير الحياة ، قال رامبو
ان كلمتي الامر هاتين ، بالنسبة لنا ، لا تشكلان سوى كلمة
واحدة »

اندريه بريتون

ان نفاذ الصبر هو من اولى مميزات الطفل، الذي يرفض
بحكم طبيعته ان يرضخ لحقيقة الزمن . من هنا ان الضيق
الوجودي ، والحاجة الى الطهارة والنقاء الروحي الشامل ،
والعجز عن التكيف والتلاؤم مع الحياة يقود رامبو الى تاليه
طفولته ، والحنين الدائم اليها ، والعداء لكل ما هو غريب
عنها ، اي كافة مظاهر العالم ، السذي لا يغفر له بشاعته
ومظالمه لان البراءة لا ترحم ، لا تساوم ، ولا تعرف التنازلات .
انها لا ترضى الا بالمطلق . انهم لقساء متوحشون ، لكن
خلاص الانسانية مرهون بهم اولئك الاطفال من نوع رامبو ،
الذي طالما حدث رفيقه ارنست دلاهاي عن انواع التدمير
الضرورية ، عن الاشجار الهرمة التي يلزم قطعها ، وعن هذا
المجتمع الذي يترتب علينا الاطاحة به ، عن الثروات والامجاد
الفردية التي يجب هدمها ، وعن الحسد والتنافس والكبرياء

التي يتحتم علينا القضاء عليها ، ليحل محلها الانسجام
والسلف والمساواة بين البشر ، واتاحه فرص العمل للجميع
في خدمة الجميع ، حتى انه في النهاية « لن يبقى ثمة
الا الطبيعة » ، والذي قال لصديقه الانف الذكر سنة ١٨٧٠ :

« ٠٠٠ يا له من عمل ! يجب علي ان ادمر كل شيء ، ان
امحو كل شيء من رأسي ! أه سعيد هو الطفل المهجور فسي
زاوية نائية ، المترعرع على هوى الصدفة ، الذي يبلغ طور
الرجال دون اية فكرة مفروضة عليه من قبل اساتذة او عائلة ،
جديد ، طاهر ، دون ميادىء دون مفاهيم - بما ان كل ما
يعلمونا اياه هو مسخرة ! - ومتحرر ، متحرر من كل
شيء ! ٠٠٠ »

ان روح التدمير اذن المتأصلة في رامبو ناجمة عن
حاجته الملحة الى الطهارة ، ورغبته الصادقة في الصفاء
التي ليست سوى تعطشه الدائم الى المصادر الاولى ، الى
مناخ بكر نقي ، وفردوس من الحقيقة والجمال يصر على
اكتشافه خلف شرور وقوانين هذا العالم القديم الملتصق
المشوه ، وكل المظالم والدناءات التي يضطر الانسان البالغ
الى ارتكابها وهو يخوض غمار الواقع العملي .

يعترف رامبو في « فصل في الجحيم » انه منذ الصغر
يحب الحياة الخارقة غير المألوفة ، الخارجة على القانون ،
التمردة على كل النواميس الاجتماعية والاعراف السائدة ،
والتقاليد المتبعة . وهو لا يخفي ما يمارسه مصير المجرمين

وطريدي العدالة على خياله من سحر • لقد كان شغوفاً ، وهو طفل ، بان يتأمل احد المعتقلين المتوحشين الذين يقتادهم المسجان الى زنزانتهم ويغلق بابها وراءهم • وكأنست رؤية مجرم من هذا النوع ، منبؤ ، محكوم عليه من قبل المجتمع ، تبعث في نفسه فيضا من الاحلام • فكان يتقمص شخصيته ، ويزور بالخيال الحانات والاكواخ الخفية التي يتصور انه زارها قبل ان يتم اعتقاله • وكان يتغلغل بالوهم الى عقلية اللص ويحاول ان يتخيل كيف يجب ان تتراءى له السماء الزرقاء والحقول الزاهرة • ان حضور هذا الرجل الفريد المتميز عن القطيع البشري ، هو في نظر رامبو ، حدث مهيب كوطاة القدر ، وجليل كآثار التاريخ • انه يضيف هالة اسطوريته على الموضوع الذي يحل فيه • انه يبدو في عيني الشاعر الدهشتين اقوى من القديسين ، واكثر اثارة للخيال من الرحالة والمغامرين ، لانه لا يخضع لاي ضغط خارجي ولا يطيع الا قانونه الداخلي ومزاجه الشخصي ، وصوت غريزته الباطن ، ولانه يرسم لنفسه المنهج الواجب عليه سلوكه ، ولا يسير على الدروب المعبدة التي يفرضها عليه الغير • انه سيد مصيره انه يتحكم بقدره • انه حر مستقل يختار اسلوب المعيشة الذي يلائمه ويرتضيه لنفسه ، ويتصرف على هواه غير معترف بوجود اية سلطة خارجية ، محطما كل قيد يحاول الآخرون ان يكبلوه به ، وكل قالب جاهز يجربون ان يصبوه فيه •

لكن ماذا يعني رامبو عندما ينسب نفسه الى « الجنس

الناقص ؟ ان المتفوقين هم الرجال الاحقاء هم الفحول
 الاقوياء الذين يستطيعون تحصيل حقوقهم ونيل مبتغاهم . اما
 هو الفاقد الرجولة ، الحائر بين الذكورة والانوثة فانه من
 تلك الفئة الفاقدة الهوية ، من ذلك « الجنس الناقص » كما
 يسميه . وليس بمقدوره بالتالي ان يفهم الثورة الصحيحة
 تلك التي يقوم بها الرجل المشجاع والجبار ضد ظالميه ، يقاتلهم ،
 ينتصر عليهم ، ويحصل على مطالبه منهم ، وينتشل مراده من
 بين براثن الاسد . ان قمته العابثة التي لا تؤدي الى اية
 نتيجة ايجابية ، الهدامة التي لا تملك اية قدرة على البناء
 على انقاض ما دمرته ، هي نقمة العاجز الذي يكتفي باشاعة
 الفوضى وزرع البلبلة ، انها انتهاك مجاني للقوانين .

وهكذا يتبين لنا ان رامبو يؤمن بالتمرد لذاته ، لا من
 اجل ما قد يسفر عنه من اصلاحات عملية جذرية . انه يعول
 عليه للقضاء على رجال الصناعة والاعمال ، على الحكام
 والقضاة ، على النظام والقانون وكل الزواجر والموانع
 والضغوط والفروض التي تحد من حرية الفرد وتستعبد روحه .
 كل تلك الشرائع وعلى رأسها سنة العمل التي يجد نفسه
 عاجزا عن الخضوع لها .

في سن العاشرة دون رامبو هذه الملاحظة على دفتره
 المدرسي :

« ... انا لا اريد وظيفة ساكن ملاكا عقاريا ... »
 « بعرق جبنيك تأكل خبزك » . هذا هو العقاب الذي انزله

الله بأدم على معصيته • ولم يشعر أحد بعبء هذا القصاص واستحالة تحمله مثل رامبو • الحياة تلسعنا بسوطها ، وتأمرنا أن نتقدم الى الامام ، وأن نسير على دربها الوعرة رازحين تحت نير واجباتنا المرهقة • الى أين يسوقه هذا المهماز ؟ الى الحرب ، الى النضال ، الى منافسة بني جنسه على لقمة العيش ؟ لكنه جبان لم يخلق للقتال والكفاح • العرق البارد يتصبب منه • انه يصاب بدوار ويكاد يغشى عليه • انه خائف • انه ضعيف • الآخرون يتوجهون الى ساحة الوغى ، التي يستدرج هو اليها غصبا عنه ، مدججين بالعتاد والذخيرة يصوبونها الى صدره هو الاعزل من السلاح ، مزودين بالوقت والجلد وطول الاناة ، وهو النافذ الصبر ، الضيق البال ، العاجز عن المثابرة والمواظبة على عمل • انه يتمنى ان يهزموه فتنتهي مهزلة هذه المعركة التي ليس هو مؤهلا لخوض غمارها ، ان يستسلم لهم صاغرا دون ابداء اية مقاومة ، او ان يرتمي بحركة انتحارية تحت سنابك الخيل من الياأسس والرعدة والكساح • ان كل صراع قد يتورط فيه سوف يخرج منه مغلوبا : لكنه سيعتاد على الامر ، ولا عجب ، فالفرنسي هو ، في رأيه ، محارب فاضل •

في احدى رسائله الى صديقه بول دميني يشكو رامبو همه قائلا بأنه مسجون دون انقطاع في مسقط رأسه ، لا يعاشر احدا ، ينصرف بكليته الى كتابة الشعر ، ولا يرد على اسئلة الفضوليين واهاناتهم وازعاجاتهم ، ويدير ظهره للطفيليين وتدخلاتهم المؤذية الشريرة بشؤونه • وهذا مما يثير حفيظة

والدته المتسلطة العنيدة ، التي اتخذت القرار التالي : ان تفرض عليه الشغل الدائم الثابت المستقر في شارلفيل . وهي تهدده بالطرد من البيت اذا لم يعثر على عمل ضمن مهلة محددة . ولقد رفض الانصياع لمشيئتها دون ان يعطي اية مبررات ، او يبدي اية اسباب لذلك . ان الامتثال لارادتها اكراه مريع وفظيع بالنسبة له ، وهو يؤجل ويماطل ويرجس موعده تنفيذ رغباتها دائما بنوع انها باتت تتمنى رحيله حتى بصورة هوجاء غير مخطط لها ، وقراره وتواريه ، واختفاء العار الذي يشكله لها امام سكان شارلفيل . لكن لو هرب فعلا فانه معرض بسبب فقره وقلة خبرته لان ينتهي به المطاف في احدى الاصلاحيات ، وفي هذا خاتمة الاحزان . وان هذا الضغط المقرف الذي يمارسه عليه المجتمع يحفزها الى ان يطلب بعض المعلومات من مراسله ، اذ انه يريد ان يشتغل ، لكن حرا ، في باريس التي يحبها ، ولا يقبل الا :

« ... مشاغل لا تستغرقني الا قليلا لان الفكر يتطلب شرائح واسعة من الوقت ... »

ولقد سبق لصديقه بول دميني ان باح امامه بان المرء يظل في العاصمة قادرا على تأمين رزقه بفضل القيام ببعض الاعمال الوضيعة ، التي لا تستأثر سوى ببعض ساعات من نهاره . ان مثل هذه المهام الصغيرة توفر للشاعر لقمة عيشه ، وتغفر له كل خطايا في عين المجتمع ، وتعتقه من شتى الضغوط الخارجية ، وهي لذلك مستحبة في ذاتها . ثم يتساءل رامبو في ختام رسالته : لماذا يدين الناس الولد

الخصب الخيال على طباعه الجامعة ، ويحاولون شفاءه منها بان يزرعوا في رأسه اوهاما اخرى تحوز على رضاهم ، وبان يدلوه على طريقهم القويم واسلوبهم المكرس ، على تقاليدهم المقررة المعترف بها ، وانظمتهم العامة المتبعة .

لكن رامبو لم يحاول في باريس الالتحاق باية وظيفة :

ـ « ٠٠٠ دون ان استخدم كي اعتاش حتى جسدي واكثر بطالة من الضفدع ، عشت في كل مكان ٠٠٠ »

اذ انه يكره كل المهن ، ويرفض ان يكون صنيعا او عاملا او فلاحا . فكل هذه الحرف تثير اشمئزازه . ان اليد التي تحمل القلم لا تقل قيمة عن الساعد الذي يجر المحراث . لانها تكد وتنتج هي ايضا . فلماذا نعتبر الشاعر والاديب عاطلا عن العمل ؟ ألا يبذل مجهودا ؟ ألا يتعب ؟ ألا يثمر سعيه الدائب عن ابداع شيء من عدم ؟ اننا في عصر يقدر الشغل والحياة العملية . لكن رامبو عاجز عن الاضطلاع بمهمة نافعة للمجتمع تحظى برضى وموافقة اعضائه . انه يستصعب فكرة الاستخدام عند الناس ، ورهن حريته في سبيل كسب عيشه ، لان عبودية العمل ، والسعي وراء القرش تجبر المرء على كثير من التنازلات ، والاكراهات الذاتية التي لا تستطيع حساسيته الشاعرة تحملها .

كما انه لا يستمرىء حالة الشحاذة والبقاء عالة على غيره ، ولا يطيق ان يعيش في وضع من الذل تحت رحمة ومعروف المحسنين . وليس بمقدوره ايضا ان يسلك السبل

الاجرامية ، وينتهج الاساليب غير الشريفة كي يربح ما يكفيه من المال لاقامة اوده . لكن اذا استحال عليه الخضوع لثير العمل والانضواء تحت لواء وظيفة او حرفة ما تدر عليه معاشا ثابتا . اذا عز عليه ان يكون عبئا على الآخرين . اذا استحرم ان يسرق وينهب ويتعدى على حقوق المساكين كي يستحصل على النقود . وهذه هي الطرائق الثلاث الوحيدة المتاحة للمرء كي يعتاش . ما الحيلة ؟ . ومن اين عساه يتزود بحاجاته الضرورية ، ويضمن لنفسه اسباب الاستثمار في البقاء ؟ . لا يدري . انه لفي مأزق لا مخرج منه . وجل ما يعلمه هو ان طهارته الفردية لم تمس ، وان حرите الشخصية بأمان ، وانه لم يرهن روحه عند أحد ، وكل ما تبقى لا اهمية له ، وكل الامور الاخرى عنده سيان . لو ان الشعر بالنسبة له مهنة تدر عليه ما يكفيه لان يعيش ، لكان في هذا خلاصه . ان شخصا كفكتور هوغو مثلا يجوز له احترام الادب ، لانه يكتب ما يرضي اذواق الجميع فيعترفون به كشاعر ، ويقرون له بحقه في التفرغ لصياغة قصائده ، التي يكرسونها له مهنة شرعية ، ويقبلون على قراءة آثاره وشراء كتبه بما يدر عليه مالا ، يكفل له حياة رغيدة تكفيه مؤونة الاستخدام أو الشحاذة أو الاجرام . لكن الحال ليست كذلك بالنسبة لشاعر ملعون كرامبو لا ينشد انغاما تستسيغها اذان الجمهور ، لان :

— « ٠٠٠ لسانه جائن ٠٠٠ »

على حد تعبيره . وهو يستغز الاذواق ويتحدى قدرة

العقول على الفهم ، فتضمن عليه بلقب شاعر ، وتعرض عمن نتاجه الذي لا يعود بالتالي قادرا على تقديم اي عون مادي له . وهذا الحرمان التام من كل مدخول يجعله يبرز بمظهر العاطل عن العمل ، ويمنعه من الانتساب الى المهنة الوحيدة التي هو مؤهل لممارستها حقا الا وهي الادب . بهذا المعنى فان « لسانه الخائن » هو الذي يوجه كسله ، يصونه ، ويكرسه .

وهكذا عاش رامبو ، في الفترة الخلاقة من عمره ، بطالا ، فريسة حمى قوية ، يحسد البهائم على هنائتها وخلو بالها ، يشاق ان ينام بغفلة وبراءة الاطفال الطاهرين ، ويتردى في هاوية مظلمة تضيئها فكرة العمل البشري التي هي اشبه بقبلة تنفجر من وقت الى وقت .

لقد شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر تغييرات كبيرة ، بنوع اننا نستطيع بمعنى ما اعتباره عصرا جديدا لا يشبه الماضي ابدا ، ولا يمت الى ما قبله بصلة . لا خيال ، ولا احلام ، كما في القديم . اننا في طور التكنولوجيا والمنطق البارد ، في عهد الديمقراطية والمساواة بين البشر . لقد سيطر العلم على كل مناحي الحياة ، وصار له الكلمة الفصل في كل امر . لقد ناب الطب عن الرقى السحرية والعلاجات البدائية ، وحلت الفلسفة الوضعية مكان الخرافات والالهام السابقة ، ودخلنا في مرحلة التسلية الجماعية ، وتحكم الارقام ، وطغيان المادة . في حين ان رامبو لا يزال يؤمن بالروح وان لم يكن بالمعنى الديني لهذه الكلمة .

فهو في قصيدة « حركة » من « الاشراقات » يعلن بان
الاختراعات الحديثة وضعتنا في مناخ التقلب والخطر ، في
جو السرعة والتحول ، وذلك بفضل المكتشفين الرواد ، الذين
يقامرون ، يفضون بكاره المجهول ، يقتحمون الاموال ،
ويبدلون اساليب المعيشة ، انهم ابطال العالم الجدد :

— « باحثون عن الثروة الكيميائية الشخصية ٠٠٠ »

لقد عمموا في الحياة المعاصرة اسباب الرفاهية ،
وفنون الرياضة ووسائل النقل والسفر ، ووضعوا الثقافة في
متناول الجميع . ان عصر العلم هو الراحة بما ان الآلة تقوم
مقام الانسان في الاعمال المتعبة ، لكنه بذات الوقت الراح ،
بما انه زاد القضايا تعقيدا ، وخلق حاجات جديدة ، انه
الدرس والتحصيل ، واحداث ثورة على مختلف مستويات
الواقع عن طريق العقل . في المصانع والمستشفيات ، واماكن
اللهو ، في ساحات الحروب ، وادوات البذخ والتسرف ،
وتشابك الارقام نرى دائما ثمرة جهود وابحاث المخترعين
المأخوذون بلذة وبطولة الابتكار . لكن في خضم هذا الواقع
العملي ، وفي ظل سيادة الآلة ، وسلطان الطاقة المادية ،
ها ان الشاعر ، للعجب الشديد ، يستمر في ممارسته مهنته ،
رافضا التخلي عن نزقه ونزواته وطبعه الحالم ، وعن شبابه
الجامح ، وحماسه المدهش . انه ينعزل عن المجتمع ، ويقف
خارج حومة الصراع الصاخبة ، وورشة الشغل المحمومة
الدائبة ليغني الجمال ، وينشد قصائده . فهل تصرفه هذا هو
نوع من البربرية القديمة ، ونسق من المعيشة عفى عليه

الزمن ، ولم يعد يتلاءم مع متطلبات الحياة الحديثة ؟ هل ولى عهد الشعر ، واصبحت ممارسته خطيئة وآفة لا يستطيع الناس اغتفارها والتغاضي عن مرتكبها الا باظهار الكثير من كرم الاخلاق ، والتسامح ، ورحابة الصدر ؟

ان رامبو يسائل المؤمنين بالنفعية والمادية ، بالتقدم والتطور ، وبامكانيات التكنولوجيا اللانهائية ، من ابنساء اواخر القرن التاسع عشر ، عصر تقديس العلم الذي اصبح ديانة الجميع ، ونوعا من الارستقراطية الجديدة : تزعمون ان

العالم يسير الى الامام • ولماذا لا تفترضون انه يلف حول محوره • ان الزمان دائرة وليس خطا افقيا • ان التغير لا يعني بالضرورة الاتجاه نحو الاحسن والاندفاع صعودا ، بل قد يكون احيانا تفهقرا وعودة الى الوراء ، وتكوصا نحو الاسوأ • بما اننا ننجرف في حركة دائرية • ان الدين والعلم يتهددان ويتوعدان كل من لا يعمل ، ويتحالفان على التنديد به ، رامبو يدرك ذلك جيدا • ولكنه يعرف ايضا ان هناك الكثير من السواعد القوية لتسيير عجلة العمل ، وانهم يستطيعون بالتالي الاستغناء عنه • انه يعي ان هناك واجبا عليه القيام به • لكنه فخور بانه يقدر ، اسوة بالكثيرين ، التنصل من تبعاته ، وطرحه جانبا ، ولكنه يعلم ان جثث الاشرار والبطالين تثقل على ضمير الآخرين • هل ثمة مهرب من القانون الاخلاقي ، والنظام الاجتماعي • وماذا في وسعه ان يفعل ؟ انه يعرف ما هي متطلبات العمل الصعبة ، واعبائه

البغيضة • كما انه لا يستطيع القبول بمعطيات العلم التي يؤمن انها عاجزة عن بلوغ الحقيقة •

ان حياته تالفة فليتظاهر بانه يعمل • فليمارس كسله •
يا للشفقة ! ان يعيش ، ويستمر بالوجود ، ولا مهنة له سوى
اللعب والحلم بمغامرات الحب العجيبة ، والعوالم المدهشة ،
والقتدر ، وتحدي مظاهر الدنيا ، انه :

– « ••• بهلوان ، شحاذ ، فنان ، لص ، كاهن ••• »

انه من تلك الفئات من الشعب التي لا تنتج سلعة مادية
نافعة ، لا يثمر مجهودها عن انجازات عملية ، ولا تؤدي خدمة
ضرورية لا تعوض • ان سعادة الاستقرار والامان العائلي ،
والدعة البيئية ، محظورة عليه • انه ضعيف ومشتت :

– « ••• الحياة تزهر بالعمل ، وهذه حقيقة قديمة : انا
حياتي ليست ثقيلة بما فيه الكفاية انها تطير وتطفو بعيدا
فوق العمل هذه النقطة العزيزة للعالم ••• »

الحياة العملية ليست هي الحياة الحققة • ان كل فعل عندما
يتحقق يورثنا خيبة امل • اننا ننتظر ونترقب حصوله • لكن
ما ان تجيء الساعة حتى نشرع في انجازه وقد عيل صبرنا ،
فنفسد كل مخططاتنا ولا يأتي التنفيذ مطابقا لتوقعاتنا
وتصوراتنا حوله • اما القوانين الاخلاقية فانها لا تبرهن الا
على قلة عقلنا • بينما قد تعني الثورة احيانا تعطيل مجرى
الحياة الاعتيادي ، واشاعة الفوضى التي يستطيع رامبو ان

يتغلغل بين صفوفها ، ويختفي ويجد مبررا لبطالته ، فلاحكام معطلة في ظروف الفتنة والعصيان الاستثنائية ولا احد يفكر بادانته وتكيله واقتياده الى الحبس . انه يحلم بحركة تمرد يدخل بفضلها في شراكة حميمة مع رفاقه الثوار ، ووحدة مصير مع اخوة في السلاح مجهولين وهميين لا شك انهم سيهزمون في النهاية . لكن هذه مجرد تخيلات طوباوية ولن يتاح له ابدا النجاة من قبضة الواقع ، ومن قوانين الارض الصارمة .

ان ثورة رامبو هي محاولة تغيير روحية للعالم لا علاقة لها بشروطه المادية وظروفه السياسية . لكن :

— « ٠٠٠ اذا كانت البراكين لا تغير موضعها ، فان حممها تجتاز فراغ العالم الكبير ، وتقدم له مزايا تغني في جراحه ٠٠٠ »

على حد تعبير رينه شار الجميل .

وهكذا يسير مركب رامبو السكران على غير هدى فوق بحر الحياة . لان الثورة الداخلية ، والفوضى الوحشية التي يتميز بها قد حطمت كل الانظمة والقوانين ، وتحررت من كل الاعراف والتقاليد . انه لا يعبا بالقيود والواجبات ويرفض الا ان يعيش على رأسه متنكبا سلوك السبل المطروقة ، والانماط المألوفة ، والعادات المتعارف عليها ، التي تعانده وتقاومه بادىء الامر . لكنها تفهم اخيرا انه لا جدوى من رده ، فتركه فالتا على هواه ، تائها على الدرب التي

يرتضيها ويختارها لنفسه • انها تنفض يدها منه ، وتقرر باستحالة احلامه ، واخضاعه للشرائع والنواميس • انه يركض بكل عنف وضراوة فوضاه ، بجنون وحماس الاطفال ، مثيرا الدهشة والاستغراب حوله من كل جهة ، لم يسبق لها مثل •

ان ثورة رامبو هي نقمة عارمة على القيم العائلية ، موجهة ضد كل اولئك الذين يهيبون به ان : نحن اباؤك واجدادك الذين تعبنا وشقينا من اجل تربيتك • نبني لك البيت المريح الآمن ، الذي يحميك • نقدم لك كل ما تحتاج اليه من غذاء جسدي وروحي • ونوفر لك كل ما تتوق اليه من دفء وعطف ، من وجود وفرح ، شرط ان تطيعنا وتخضع للواجبات والتقاليد الموروثة • نحن نريد صالحك وفرشدك الى طريق للصواب • فانتهج اسلوبنا في العيش لانه وحده الاصيل ، الخالي من الزيف ، والنابض بالحياة والعاطفة القلبية الصادقة • لكن رامبو يفضل ان يعيش حياة زاهرة فوضوية مستقلة تنسجم مع مزاجه المتوحش وهواه الغريب ، على الاذعان لحالة الدعة والاستقرار والبلادة المبنية على الخنث والتصنع التي يدعونه اليها • انه يؤثر الموت على وضع نيرهم على رقبتة ، والهلاك عطشا على النهل من الينابيع المريبة التي ينعمونها بمياها العكرة •

ان ثورة الشاعر هي فورة غضب ضد كل هؤلاء البورجوازيين المتكالبين على المتعة وجمع المال ، المتهافتين على حطام هذه الدنيا ، ومآربها النفعية الرخيصة ، الحريصين

على نظافتهم ولياقتهم ، المتقيدين بالنظام ، الساعين الى
التناسل ، المتشبهين بالبقاء ، المتعلقين بالوجاهة والمظاهر
الخارجية الكاذبة .

ان ثورته هي صرخة احتجاج ضد ذلك الانسان العادل
البغيض المضحك بهيئته ووقاره وجلاله المقتل ، والذي يطلب
منه رامبو ان يهتم بشؤونه الخاصة ، ولا ينصب نفسه حكما
وقاضيا على الآخرين ، وحاميا للنظام والقانون ، ولا يتدخل
فيما لا يعنيه ، ويجعل من سلوكه معيارا ومثالا اعلى يجب ان
يحتذى ، وقاعدة عامة يسري مفعولها على الجميع ، لانه
كسبح عاجز عن مساعدة احد ، فلماذا لا يترك الناس وشأنهم ،
لماذا يدعي الغيرة على مصلحتهم والتقاني في خدمتهم ،
ويروح يلقي المواعظ الاخلاقية ، ويغدق نصائحه الثمينية
عليهم . انه يمثل الحكمة والرصانة والتعقل والطاعة العمياء
للقوانين الدينية والاجتماعية . انه جبان ذليل خنوع يثير
قرف رامبو المتمرد على كل السلطات والمضغوط كل الزواجر
والموانع ، المرافض لمنطق القطيع وشرائعه ونواميسه ، طريد
العدالة ، المجنون ، الملعون ، المفلوظ الى خارج المجتمع ،
الصائح بسخط :

— « ... ايها العادلون سنبول في بطونكم
الصخرية ! ... »

يجاهر رامبو في « فصل في الجحيم » ، بانه كان محقا في
كل احتقاراته والا لما كان هرب . كل الناس اشقياء وهو

اولهم • انه يعرفهم جميعا • لا احد منهم يجهل الآخر • انهم لا يضمرون ذرة من الحب لبعضهم • لكن معشر التجار والناس البسطاء والبشر العاديين المنتمين الى الطبقة المتوسطة • هؤلاء ، المحافظين على علاقات لائقة متبادلة ، والحريصين على كرامتهم ونظافة مظهرهم ، كيف عساهم يبدون في نظر المتفوقين ، ونقصد المتميزين لا عن جدارة او موهبة او استحقاق ، بل اولئك الانتهازيين الوصوليين ، الذين يحسنون استغلال الفرص بوحشية ، وهضم حقوق الغير ، والتغذي من ضعف المساكين ، والذين يحتاج المرء للتقرب منهم الى رشيد من الجراءة ، او نازع الى الذل • ان مواهبهم هي النوع الوحيد الذي ينجح ويعترف العامة بفعاليته • انهم عمالقة مزيفون وليس هم من يجدر به اصدار الاحكام ، ولا اضافة القيمة على الاشياء او تجريدها منها • انهم آخر من يحق له ان يبارك او يلغى من نقطة الاستعلاء •

يشبه رامبو نفسه في « فصل في الجحيم » بمحكوم عليه بالاعدام يبكي لان الجمهور الغاضب الناقم الملتف حول مقصلته يسيء فهمه ، ويدينه زورا وبهتانا • لكنه يغفر لظالميه ، ويود مخاطبتهم قائلا : ايها الاساتذة والكهنة والاسياد ، انكم تخطئون بتجريمي وتسليمي الى العدالة • انا لست من طينتكم وفصيلتكم • انا لا تنطبق علي قوانينكم وشرائعكم • انا لست مسيحيا كي تحكموا علي وفقا للاخلاقية الدينية :

« ••• اني من الجنس الذي كان يغني في العذاب ،

اني لا افهم القوانين ، ليس عندي حس اخلاقي ، اني وحش :
انكم مخطئون ٠٠٠ »

لا يوجد خير وشر بدون سلم قيم . ان الفضيلة والرذيلة
هما تصورات شخصية ، واقتراضات نسبية ، وتقاليد موروثة:

— « ٠٠٠ اظن نفسي في الجحيم اذن انا فيه . هذا تنفيذ
التعليم المسيحي . اني عبد معموديتي . ايها الاهل لقد
صنعتم شقائي، وصنعتم شقاءكم . يا للبريء المسكين ! الجحيم
لا يستطيع مهاجمة الوثنيين ٠٠٠ »

ان الشريعة الخلقية التي سنتها المسيحية ، والتي تبنها
المجتمع هي التي اوجدت مفاهيم الصلاح والخطيئة . انني
احكم على عمل من اعماله بانه حسن او رديء تبعاً
لمطابقته لو لمخالفته لهذا الناموس الديني ، وعلى هذا الاساس
اروح اعذب نفسي ، واعاني من تأنيب الضمير بينما الوثني
هو بمنجى عن كل هذه الاوجاع النفسية . ان اهل رامبو هم
سبب بلواه . اذ انهم بتعميدهم اياه وتلقينه التعاليم المسيحية
استعبده لهذه الوصايا المقدسة . وهم بذلك انما يورطون
انفسهم هم ايضاً ، لانهم يتالمون لا شك عندما يرون انهم
يعصى هذه الاوامر المنزلة ، ويسير على طريق الضلال . ان
القصاص مستحيل الا بالنسبة لقانون يعاقب الخارجين على
بنوده . اما بدون نظام خلقي مضمون من قبل سلطة الالهية
فانه لا يوجد كفارة ، وبالتالي لا يوجد جحيم .

من هنا ان رامبو يعرب في ختام « فصل في الجحيم » عن

اعتقاده بأنه قد أنهى مدة عقوبته ، وقطع علاقته بذلك الجحيم القديم ، الذي فتح المسيح ابن الانسان ابوابه بيديه • اذ لولا الفضيلة لما كان هناك رذيلة ، ولامعايير خلقية ، ولولا لوح الشرائع المقدسة لما كان هناك خطايا ، الا يقول الانجيل :

« ••• لو لم اجد لما كانت لهم خطيئة ••• »

يصرح رامبو في « فصل في الجحيم » بأن مشاعره الدينية تستيقظ في لحظات العذاب والالم ، وهذا من النتائج السيئة لتربية الطفولة • (الم يتشاجر ذات مرة وهو في الثانية عشرة من عمره مع بعض التلاميذ الذي يكبرونه سنا ، لانهم دنسوا المحرمات بأن رشوا بعضهم بالماء المقدس على عتبة كنيسة المدرسة ؟) الم يبلغ حماسه الكاثوليكي الاوج لدى مناولته الاولى ؟ ان الخوف من الموت هو اقرب حافز الى التقوى • ان الجبن والضعف يدفعنا الى التهافت في احضان الايمان • لكن لو استعاد الانسان قوته وعنفوانه لتخلّى عن كل هذه المعتقدات الوهمية • لقد تلقن رامبو ، منذ الصغر ، تاريخ فرنسا ، والكنيسة ، والحروب الصليبية • ولطالما سافر بخياله الى الارض المقدسة • ان عبادة مريم العذراء ، والحنان والشفقة على المسيح المصلوب لا تزال حية في قلبه ، راسخة في وجدانه رغم الحادة • انه لم ينس ما علموه اياه في المدرسة عن تراث القرون الوسطى المسرفة في ايمانها بالدين والسحر والخرافات • انه لا يستطيع ان يتصور نفسه خارج اطار الوطن الذي ترعرع في ربوعه ، والدين الذي

تربى في كنفه • لكنه يرى ذاته دائما وحيدا بلا عائلة ولا مسيح ولا كنيسة •

في قصيدة « المناولة الاولى » يؤكد رامبو ان الولد مدين بتربيته الدينية لاهله ، الذين يفرضون عليه الاخلاقية المسيحية المبلدة للحس ، الخائفة للروح ، والذين يدفعون للكاهن اجره مقابل ان يفسد عليهم حياتهم ، ويحرمهم بهجة العيش • ان اول قربانة تؤرخ صك عبودية الفرد لوصايا الله ، معها . يستيقظ في وعي الانسان الحس بالخطيئة ، ويتراءى له ان كل شهواته وغرائزه الطبيعية هي شر واثم • لكن ماذا تنفع كل هذه المحاذير القذرة المجنونة التي تشوه حياة المرء بما تدخله الى العالم من روح التوبة والالام والشعور بالذنب والشفقة والحقد ؟ ما جدوى كل هذه المحرمات عندما يتحلل الجسد ويتلف ، ويصبح عاجزا عن الاستمتاع ، بعد أن يكون قد صام عن كل لذة حين كان قادرا على اقتناصها • حين يموت دون ان يكون قد عاش فعلا • ما قيمة هذه العقلية الدينية التي تورثنا الشعور بالندم والاثم بعد ممارسة الحب ، الذي يصبح تحت ضوئها سبيل الموت والحزن لا بؤرة الحياة والفرح ، التي تفسد علينا جو عمرنا ، وتعلمنا القرف من كل شؤون الارض الحسية ، والتي تلقي في روع المرأة ان العشق عهر ، وان عواطف الهوى والهيام خطايا وذكريات شائنة ، يجب ان تمحوها من بالها • ان قبلة المسيح هي اشبه بوباء ينقل العدوى الى باقي اعضاء الجسم فيسقمها ، ويشحنها بالمرارة والاسف واللعنة ، ويحظر عليها بحقد وغضب ان تنعم باي من مشاعر الحب الجميلة :

— « ٠٠٠ ايها المسيح ! يا ايها المسيح ، يا سارق
الحيويات الخالد ٠٠٠ »

يهتف رامبو مضيقا : انت يا من حكمت على النساء
التاعسات بالذل والعار والعبودية والشحوب والمرض •

لقد تخلى الله عن البشر ولم يعد يبالي بالامهم او يمد
لهم يد المساعدة • انهم لا يستطيعون بعد انتظار الخلاص من
لذنه • فبينما يسقط الوف الشباب قتلى في ميادين الحرب
وساحات الوغى ، ينام هو مرتاحا خلف مذابح الكنائس
المزدانة بشراشف الاطلس ، المحاطة بالكؤوس الذهبية ،
المضمخة بعيق البخور ، تهدده ادعية المعلنين وتضرعاتهم •
وجل ما يفعله الكهنة بالنسبة لامهات الضحايا الباكيات على
فلذات اكبادهن هو جمع التبرعات منهن ، وابتزاز هذه القروش
القليلة التي تعقدها تلك النسوة الميائسات باطراف مناديلهن •
لا ان رجال الدين عاجزون عن انقاذ معذب ، من قلقه ، او
مساعدة محتاج ، او تعزية محزون • وهكذا يحاول رامبو
في قصائده الاولى انكار وجود الله باستعماله الحججة
التقليدية : تفشي الظلم والشر والبشاعة في العالم • كما انه
يلصق بالاكليروس التهمتين المهودتين اللتين طالما وجههما
اعدائهم ضدهم ، ويستخدم لتحقيرهم الوصمتين الخالديتين:
الشراهة في الطعام ، والكبت الجنسي الذي يولد الانفجار •
فالراهب المنزوي في غرفته يصبح فريسة للاحلام الشهوانية ،
لان العزلة تطلق الغرائز من عقالها ، حتى يرى الناسك الصنور
الاباحية في أبسط اشياء واثاث صومعته ، وحتى لترود اطياف

النساء المغريات في محبسه معذبة جوعه الجنسي كالسراب
الذي يلوح امام الظامى في الصحراء .

ان رامبو ينعت المسيح بانه شاعر شاب يثور على ما
يراه حوله من قبح وفساد (طرد الصرافين والتجار من
الهيكل) ، لا يخلو احيانا من نزعة كبرياء انثوية وطفولية ،
حساس لجمال المساء مثلا ، يلذ له السير وحيدا في دروب
الليل المقفرة ، وتأمل الورود ، والاعشاب المشعة بالوانها
السحرية والمفرخة بين بلاطات الطريق ، والحقول الغبراء
والزهور والسنايل الرازحة تحت وطأة الحر والضوء . ان
السامرة المدينة الغنية البطرة ليست ابدا مهياة لفهم الحقائق
الروحانية العالية التي اتى بها المسيح . انها عبدة الترف
والرتابة والتقاليد وحاميتها . ولقد ذبحت العديد من الانبياء
الذين جاؤا بحقائق جديدة تزعزع المفاهيم القديمة ، وتهز
البنيان الاجتماعي الذي ارسى عليه قاعدتها . ومن هنا ان
قول المرأة السامرية ليسوع انت نبي - (ففي ذلك الوقت كان
الرجال والنساء يؤمنون بالمرسلين اما في العصور الحديثة
فلقد باتوا يتطلعون الى رجل الدولة) - هو نذير شر . وهكذا
على مقربة من السامرة ، وعاجزا عن الدفاع عن نفسه اذا
عرف سكانها انه نبي ، لا سيما وانه قد افتضح امره بسبب
غرابة تصرفاته واقواله ، لم يسمع المسيح سوى الرحيل
والابتعاد عن هذه المدينة ، معلنا ان ليس لنبي كرامة في
وطنه . فالحوار مقطوع بينه وبين اهل بلده القاصرين عن
فهم تعاليمه . ترى هل يوحد رامبو هنا بين مصيري النبي
والشاعر ؟ ربما .

ان قصيدة « تصوف » في « الاشراقات » تؤكد ان الانسان ملاك يتشبع احيانا بثوب الطهارة ، يزهر الامل في قلبه ، ينضج بالقوة والجمال . لكنه ايضا شيطان يبعث العذاب بالسنة نيرانه من اعماقه السفلية . تارة تشرق شمس الخير في افقه ايدانا بحلول عهد النعمة والتقدم . وطورا تتلبد سحب الشر في فضائه وتتكاثر منذرة بالاجرام والحروب والكوارث . ينتمي انا الى هذه الارض بهومها ومشاكلها واحزانها ، وانا آخر الى السماء الموكبة بالنجوم بعذوبتها المشعة بالنور ، المزهرة بالبركات .

كما ان رامبو يقول في مسودة احدى مقطوعاته النثرية الانجيلية غير المنجزة « بيت صيدا » ان لحظة ضجر ، ان يوما حالكا ممطرا كثيبا يفرقنا في الجحيم ، ويفجر كل طاقات الشر الكامنة فينا . لكن رب اشعاع صغير من الشمس يبعث الملاك الهاجع في اعماقنا ، يغسلنا من كل اثمنا ، ويظهرنا من كل مفاسدنا ، ويفتح ابواب نفوسنا للخير . لكن النعمة تمضي بسرعة كوميض البرق ، ولا يلبث شيطاننا ان يستيقظ من جديد ، ويروح يردد ثانيا في الاماكن التي اعتاد ان يحصل فيها على حصيلة من الآثام والشرور والخطايا ، فترايلنا طبيعتنا الملائكية ، وتلبسنا طبيعتنا الجهنمية . فالانسان كي يبرأ من الدنس والعاهات النفسية بشكل نهائي لا بصورة انية عابرة يحتاج الى اعجوبة حقيقية .

ان ثورة رامبو موجهة ضد كل سلطة عسكرية فهو في قصيدة « استعراض » من « الاشراقات » يصف استعراضا

عسكريا اتيح له مشاهدته : انفار اشداء مضحكون من اولئك الرجال الاشاوس الذين يستثمرون الجميع ولا يسمحون لاحد باستغلالهم ، الذين يعرفون كيف يحصلون حقوقهم ، والذين يدوسون الآخرين باقدامهم متقدمين نحو اهدافهم . ليس لهؤلاء الجنود حاجة ضرورية ملحة ، او منفعة آنية ودائمة ، وقد لا يضطرون ابدا الى اظهار كفاءتهم القتالية ، او التعبير عن عواطفهم القومية المتأججة ، والدفاع عن الوطن ، وحماية الشعب . انهم رجال ناجحون وفحول كاملون . عيونهم تقدح شررا ، وجوههم لفحتها الشمس والريح مكتنزة او هزيلة ، حمراء او شاحبة . اصواتهم ترسل بحات مرحة ، مشيتهم تتمخطر بصورة احتفالية صارمة . يوجد بينهم بعض شبان يافعين ، لكنهم فقدوا تلك النظرة البريئة التي يتحلى بها الفتيان الطاهرون ، الذين بدأوا يحسون بالحب العذري العفيف يدغدغ قلوبهم ، دون ان تنغمس اجسادهم بعد في حماة الشهوات الجنسية . ان اصوات هؤلاء المراهقين قد اخشوشنت قبل الاوان ، وطاقتهم الشقية المتفجرة في وقت مبكر قد اوصلتهم الى مرحلة حرجة خطيرة . ومن هنا انهم يأخذون مأذونية ، ويروحون ويتمخطرون في الشوارع ببزاتهم الانيقة ، المثيرة لقرف رامبو ، متسابقين نحو ملاهي ومباني المدينة لاشباع غرائزهم المتطلبة ، وارواء ظمأ رغباتهم المتعطشة . ان مشهد هؤلاء المحاربين الغريبيين ، الضعيفين ، الجامحين ، السريعي الغضب ، يتناقض مع صورة فقراء ومساكين ودراويش الشرق الهادئين المسالمين . انهم ، بزيمهم الرسمي ، المصمم بقلة ذوق ، اشباح كابوسية تقوم بتمثيلات

هزلية ، وتؤدي ادوار ابطال مأساويين ، لصوص ، وانصاف
الهة ، لا تنطلي خدعتها على رامبو ، ولا يقتنع بها اطلاقا .
ان ملامح بعضهم تشبه سحنة الصينيين ، وبعضهم الآخر
يحاكي وجوه المزنوج . ان منهم من هو قريب الى هيئة
الفجر ، ومنهم من هو ند لمصاصي دماء البشر . بينهم
الاقزام وبينهم العمالقة الجبابرة العتاة . فيهم الضباع ، وفيهم
المجانين او الابلاسة التاعسون . وكما في كل استعراض
فان هؤلاء الجنود ، الذين يعرفون ان هناك عيونا تراقبهم
من الخارج ، يصبحون غصبا عنهم ممثلين ومهرجين ، يوالون
إمام النظارة وصلات طاووسية ، ويطولات مصطنعة ،
وحماسات قومية مقتلة ، متلاعبين بمشاعر الجمهور الوطنية ،
متظاهرين بالتفاني والتضحية في سبيل الشعب والمصلحة
العامة . وبهذا الاسلوب يضربون المتفرجين على الوتر
الحساس ، ويمارسون سحرا عجيبا عليهم ، ويشدونهم اليهم
بجاذبية مغناطيسية . حتى ليندمج المشاهدون مع ممثلي
المسرحية ، ويتفاعلون معهم فيلتهبون حماسا ، وتتأجج
عصبيتهم الاقليمية ، ويضج الدم الحار في عروقهم . الصدور
تنتفخ بريح البطولة ، العيون تدمع من التأثر ، القلوب تخفق
بروح النضال والكفاح . ان الخدعة التي ينشرها الجنود
حولهم خلال الاستعراض قد تستمر في ممارسة مفعولها على
عقول وعواطف الناس لمدة دقيقة او لفترة شهور عديدة . لكن
رامبو هو الوحيد الذي لا تنطلي عليه هذه المهزلة ولا لثانية ،
والذي يكتشف زيفها . ويعرفها على حقيقتها ، ويدرك ان

الحساسية القومية والروح القتالية ليست سوى بربرية لا تمت الى المدنية بصلة .

كما انه يندد في قصيدة « ديمقراطية » من « الاشراقات » بالمشاعر الوطنية التي تقود الى ابشع المظالم . اذ ان الحماس القومي يغذي النزعة العسكرية العدوانية والاجرامية احيانا . انه ينتقد ويفضح اساليب السياسة الديمقراطية الاستعمارية التي تفشت في فرنسا واوروبا في اواخر القرن التاسع عشر ، والتي هي حقارة وانحطاط وعهر . انها بما تثيره من استغلال وظلم للشعوب المستعبدة تدفعها الى ثورات محقة وعادلة ومنطقية . ثم تعد الى قمع هذه الحركات التحررية بالبطش والوحشية . ان الفاتحين يسلبون المواد الخام الموجودة في المستعمرات لاستعمالها في صناعتهم الناشئة ، وذلك بقوة السلاح والاحتلال العسكري . ان هؤلاء الغزاة الغاصبين مستعدون للمغامرة والرحيل الى اقصى الابعاد سعيا وراء الكسب والسلب والنهب ، ان هؤلاء المتطوعين الاختياريين لا يتورعون عن الذهاب الى آخر المعمورة ومجاهل الارضس لتحقيق مآربهم ، وهم يجدون المسوغات لتصرفاتهم الهمجية السافلة في فلسفة عنصرية رجعية تبيح للقوي هضم حقوق الضعيف ، وتلقي على عاتق العنصر الابيض المتفوق مسؤولية تمدين الملونين وبقية الامم المختلفة . انهم لا يفهمون من معطيات العلم الا ما ينتج عنها من اختراعات عملية . انهم يتكالبون على الرفاهية والترف والكماليات ، انهم جشعون ، انانيون ، يسيرون على جثث الآخرين لبلوغ غاياتهم . ان هذا

التنازع على البقاء هو ما تنادي به نهاية القرن التاسع عشر
وتحله اعلى مرتبة تحت شعار التقدم والتطور .

ان ثورة رامبو تستهدف كل سلطة حكومية .

فهو في الفقرة السادسة من قصيدة « جمل » في
« الاشراقات » يهتف : بينما تهدر اموال الدولة على اقامة
الاحتفالات الوطنية والاعياد القومية الزاخرة بمعاني التآخي
والتضامن الانساني ، فان بشائر الثورة تلوح في الافق ،
واجراس التمرد الحمراء تقرع بين غيوم المستقبل .

انه معجب بكمونة باريس ، التي بلغ من حماسه لدى
سماعه بقيامها انه توهم ان حركة العصيان على السلطة هذه ،
التي اندلعت في آذار عام ١٨٧١ ، ستسفر عن نتائج ايجابية
تفوق انجازات الثورة الفرنسية الكبرى . وانها تؤذن بان عهد
الضلال قد دالت دولته ، وان حكم الطغيان قد انقضى الى
الابد ، ان عصر الخرافات القديمة قد ولى الى غير رجعة ،
وان فجرا جديدا سوف يشرق على الانسانية مزودا المفرد
بقدرات فكرية وروحية مدهشة . ومما يؤثر عنه انه راح ذات
مرة يشرح اهداف الكومونة لكسار حصى مرددا امامه
بحمية وايمان صادق : لقد ثار الشعب من اجل الحرية
والخبز ، وهو سينتصر نهائيا بشيء من الجهود . . . ان كل
العمال يعانون من البؤس ، ويجب لذلك ان يتضامنوا جميعا ،
وان يحملوا السلاح يدا واحدة في وجه الظلم . وهو يتغنى
في احدى قصائده ببطولة امرأة باريسية ثائرة لوححت الشمس

ييديها القويتين ، اللتين لم تخلقا للانصراف الى اللهو والترف ، ولا الى الحب والاهام والاحلام ، واللتين لم تخشوشنا من العمل في متجر او مصنع ، ولا من الاعتناء بالاطفال والقيام بالاعباء المنزلية ، بل اكتسبتا الصلابة والمضراوة من التمرس بدق اعناق الاعداء ، ان صاحبتهما وجدت لتغني اناشيد الحرب ، لا لتترنم بتراتيل الكنيسة ، ان اصبايعهما جبلت على خنق النساء الفاسدات ، والسيدات الثريات المترفات الانانيات ، وعلى التمرس خلف الرشاش في خنادق باريس المتمردة .

في ربيع عام ١٨٧١ كان « ثيير » Thiers ، الذي هرب الى فرساي اثناء احداث كومونة باريس الدامية ، يحاول استعادة السلطة . وكان يلقي القنابل على العاصمة الفرنسية ، ويبطش بالثوار ، ويحاول قمع حركة التمرد والعصيان المدني بوحشية . بينما كان الشعب يعاني من المجاعة ورداءة الاحوال . وان رامبو ليتجهز في احدى قصائده على « ثيير » واعوانه التافهين ، الذين يشعلون الحرائق في باريس ، والذين هم من فصيلة اولئك الساسة الفاشلين الذين وقعوا معاهدة الاستسلام بعد الهزيمة مع الالمان ، والذين يذرفون دموع التماسيح على الام الامة الفرنسية ابان كل محنة ، ويتوعدهم بان الشعب لن يستسلم للقمع والارهاب ، وانه سيدك عروش الطغاة ، ويزلزل الارض من تحت اقدام كبار الملاكين المحتكرين الجشعين ، الذين يستثمرون خيراته ، ويستغلون تعبهم .

ثم يصف رامبو ، في قصيدة اخرى ، باريس بعد انتهاء

الكومونة : ها ان المدينة التي رقصت فوق براكين الغضب ،
ومزقت الخناجر صدرها تشرب من جديد من كأس الحياة ،
بعد استتباب الامن والنظام ، وعودة الامور الى مجراها
الطبيعي . ها ان الشوارع التي داستها ذات مساء اقدام
المقاتلين البربرية واضاءتها تفجرات القنابل الحمراء تسدب
فيها الحركة ثانية . ان عيون الرجال المحاربين المتأججة
بالشر والحقد والغضب فيما مضى ، تمتلئ الآن بجنون
الانسان الراكض وراء ملذاته في الليل المليء بالاغراء ، العامر
بالمتعة والمجون ، والذي تتميز به باريس وهي مدينة بلا قلب
لا تعباً بسكانها . فسيان عندها ان يكونوا من المرضى او
المجانين ، من الملوك او المهرجين والمشعوذين . انها تمص
دم ضحيتها ، ثم تطرحه جانبا كالليمونة المعصورة . انها
عامرة تدير ظهرها لعاشقها بعد ان تكون قد جرذته من كل
ماله وصحته . لكن رغم فجورها وانحلالها قانها تظل
غنية بالجمال في نظر الشاعر .

نعم ان عيون رامبو مغلقة دون نور الناس ، انه همجي ،
انه زنجي . لكنه يستطيع الحصول على الخلاص . لانه رغم
كل فسادة اقرب الى الفضيلة من الزوج المزيق ، اي كل تلك
الذئاب المفترسة من اصحاب نزوات انانية ، وتجار ، وقضاة
وحكام ، وعسكريين ، وقواد ، وكافة اعمدة المجتمع الخبيث ،
الذين يرتكبون الاثم في الخفاء ، ويعلنون غير ما يضمرون ،
ويسترون نقصهم وعيبهم ، افاتهم وعاهاتهم ، خلف مظهر من
الوقار المصطنع . انه يحقد على كل هؤلاء العتاة الظالمين ،

الذين يبحثون عن ضحية بريئة يعملون فيها انياهم الحادة . ويكره زيفهم ورياءهم ويود ان ينزح عن قارتهم ويهرب من جوهم ويرحل الى عالم السذاجة والغفلة ، ان يهجر بلاد الزنوج المزيفين ليدخل وطن الزنوج الحقيقيين . الم تفقده حياته ونشأته في اوروبا معنى العفوية والبساطة ؟ هل يعرف بعد ما هي طبيعته وفطرته الاصلية ؟ فلينس كل شيء وحتى الكلمات . فلنطو صفحة الماضي كلية ، وليعد الى الحياة البدائية ، متجاهلا اللحظة التي سيلاحقه فيها الرجال البيض الى الجزيرة النائية التي ابحر نحوها ، ويطاردونه الى النقطة القصية المجهولة التي استجار بها من اذاهم ، حاملين معهم الهموم والمشاكل المألوفة ، والسموم والمرارات التي فر من جورها لكن ها هم بالفعل يحطون الرحال على الشاطئ الذي انسحب اليه ، مزودين بأسلحتهم الهجومية ، وعداواتهم التقليدية . انتهى الامر . ويجب ان يخضع لهم ، ويرضخ للامر الواقع ، ويقبل باخلاقيتهم والفضائل التي تفرضها عليهم معموديتهم وانتماؤهم الى الدين المسيحي . ان يهتم بالمظاهر الخارجية ، ويختار له مهنة مكرسة ، ومعتزفا بها من قبلهم . يجب ان لا ينقل الى الآخرين عدوى قرفه وفساده وشذوذه وغرابته وأسقامه الروحية . انه يفضل ان يرهن روحه عند الشيطان ، ان يستسلم لاحط الغرائز ، ان يدنس المحرمات ، ويتهجم على المقدسات ، ان يحطم القلوب ويؤذيها دون رحمة ، ان يكذب ، ان ياثم ، من ان يخضع للنظام والقانون والاعراف المرعية والتقاليد السائدة ، ويعيش حياة

الدعة والتفاهة والفتور التي هي مجرد استمرار بليد في البقاء لا يكاد يختلف عن الموت البطيء ، حياة الجمود والاسـن والاختناق الخالية من الاخطار ، التي هي قدر الجميع ، والتي ليست في الحقيقة معاشة على الاطلاق .

« ٠٠٠ على كل حال هناك شيء هو مستحيل بالنسبة لي : حياة القعود ٠٠٠ »

قال ، في إحدى رسائله ، رامبو الذي كان يمضي في صباحه الباكر متجولا بخطى مسرعة تحت السماء الصافية المكوكة بالنجوم ، واضعا يديه في جيوبه المثقوبة ، مرتديا سقرته البالية ، وسرواله الرث ، خفيفا كالريشة بقلبه الفائض بالشعر ، المغمور بالاحلام والاماني العذبة ، محمولا على اجنحة الامل والفرح ، مدندنا قوافيه باتجاه حانة السعادة المترائية له عند افق الدرب ، التي كان يجلس احيانا على حافتها في اماسي ايلول الرائعة ، يرتاح قليلا مبلا بعرق العافية المتقاطر من جبينه ، كالندى فوق الزهور ، وكأنه وهو يربط سيور حدائه المهترىء من كثرة المشي ، شاعر جـوال يدوزن قيثارته ، ويشد أوتارها التي هي شرايين قلبه .

ان سر عذوبة النزهة وسحرها هو انها عيد صغير ، وعمل مجاني ، وغاية ذاتها ، وهي بذلك انما تشبه الشعر . انها تحمل لنا معنى المغامرة ، وامكانية العثور ، على منحنى طريق ، على مفاجأة مثيرة او طرفة مبتكرة : شجرة ، زهرة ، او مشهد غير منتظر . انها تسمح لنا ان نلقي نظرة بكر على

العالم ، وإن نهرب من الهموم والمشاكل النفسية المتحكمة فيه ، فنترك بالتالي ما وراءنا ونندفع الى الامام ، ندير ظهرنا للماضي ونعهدف نحو المستقبل . انها تتيح لنا ان نبث للسرعة في ايقاع الوقت ، وان نشعر بحريتنا المطلقة وسط عالم جديد يروح يولد امام اعيننا دون انقطاع . لكن لكي تثمر النزهة شعريا ، لكي تتمخض حقا عن احلام غنية ومخصبة للالهام ، يجب ان يكون السائر على دروبها وحيدا .

وغالبا ما كانت تشردات رامبو الطويلة على الطرقات تقوده الى بلدة مجاورة ما ، فكان يدخل حانتها عند الغسق بعد رحلة شاقة سيرا على الاقدام ، ويطلب عشاء ويجلس مسرورا على كرسي مريح ، ممددا رجليه على الطاولة ، متأملا بنشوة الصور السانجة المعلقة على جدران غرفة الطعام المعتمة ، التي تفوح منها رائحة عطنة ممزوجة بفوح الفاكهة ، مصغيا بلذة الى دقات الساعة . ثم فجأة كان يفتح باب المطبخ العابق بضوعه الزكي ، وتخرج خادمة حسناء ممتلئة الجسم ريانة بالصحة ، مرتدية ثيابا اباحية عمدا . وتروح تغويه بنظرات وابتسامات غانية لعب . وتصف الصحن امامه مداعبة بشرته الوردية باصبعها ، مؤشرة بفمها علامة تكشيرة صبيانية كلها فتنة واغراء . وكانت تقتل لتستثيره انها ترتب السفرة ، وتحتك به قصدا ، وتوشوشه بغنج ودلال لتحصل منه على قبلة : تحسس بشرتي لقد تلقيت هبة من البرد على وجنتي . فيما يروح يأكل بشهية عظيمة ، وتغيب الشمس في الخارج .

يقول رامبو في إحدى رسائله إلى أرنست دلاهاي : حذار
أن تدفن نفسك في مكتب الوظيفة ، أو في منزل البائثة ، أن أي
نوع من البلادة والتفاهة والجمود الذهني يظل مقبولا خارج
هذه الأماكن .

وهكذا نسمعه يعلن في « فصل في الجحيم » أنه قد تسكع
في معظم بلاد أوروبا ، وتشرذ على الطرقات في ليالسي
الشتاء دون مأوى ، دون ثياب تقيه غائلة البرد ، دون مأكل ،
ملبيا نداء صوت خفي لا يقاوم يخطف قلبه نحو البعيد
والجهول ، يغريه بالسفر ، يدعوهُ إلى المغامرة ، ويحثه
على الرحيل لا يعلم وجهة سيره ، ولا يدري غاية نزوحه .
المهم أن يقتحم المجهول ويكون مستعدا لتقبل كل الاحتمالات .
ومم عساه يخاف ؟ ليس عنده ثمة ما يخسره . أن شجاعته
هي تهور الجنون ، الذي لا يقدر العواقب ، ويستخف بكل
أمر هذه الدنيا . ولكم عاد من هروياته وجولاته الموهجاء
ضعيفا محطما ، مريضا جائعا ، بنوع أن أبناء بلده ما
كانوا ليتعرفون عليه ، ويتبينون هويته . ولكم من رأى
شعرية عجيبة تبنت له في المدن الغريبة التي زارها ، حيث
كانت بركة الوحل مثلا ، تلوح في عينيه مرآة ينعكس عليها
مصباح تهزه يد في الغرفة المجاورة ، والسماء تتكشف له
عن بحر من الحرائق والدخان ، والوف من الاخيلة المسحورة
تبرق حوله من كل جهة .

أن نزع رامبو الدائمة إلى الهرب نابعة من عجزه عن

تحمل ضراوة الواقع . وهكذا وجد نفسه ذات مرة على اثر
احدى مغامرات التشرد مقطوعا في مدينة غريبة (ربما لندن
او ميلانو) فأوته ارملة غنية لعلها وقعت في غرامه او رق
قلبها العطوف لحاله . ولقد كان في وضعه عند هذه السيدة
أشبه يعصفور مهاجر ، محصور في قفص يتوق الى الحرية .
لكنه لا يستطيع الانطلاق الى ما هو ابعد من عتمة زوايا هذه
الغرفة التي تأسره بين جدرانها في هذه الامسية المشهودة .
وهكذا ظل رامبو بين ذراعي هذه الحسنة الارستقراطية
كذب كبير مريض ، كئيب ، شارد بنظره الى الخارج نحو
اثاث هذا المنزل الفخم ، الذي يتوق الى الهرب من صاحبتة
والانصراف عنها بعيدا . وهذا ما حققه بالفعل بعد ان امضى
ليلة حب بين احضانها ، اذ انه فر في صباح الصيف الباكر ،
وطفر الى الحقول في ضواحي المدينة ، حاقدا على نفسه
لانهطاطه وارتكابه مثل هذه الحماسة ، نادما لانه استسلم
للاغراء ويظل هكذا الى ان يذعن للاغواء مرة اخرى ،
ويتورط في نزوة طائشة جديدة ، ويقع في احابيل الخطيئة
ثانية . لانه لا يتوب ولا ينصلح . ولقد وجدت هذه التجربة
الحياتية تعبيراً عنها في قصيدة « بوتوم » (Bottom) في
« الاشراقات » .

نعم لقد كان على رامبو ان يسافر ، ان يهرب كي ينجو
من تلك الافكار الشريرة التي تراود عقله كما يصرح فسي
« فصل في الجحيم » وعلى الطرقات ، التي طالما احب التشرد
عليها لانها تغسله من اوساخه واحزانه واكداره غالبا ما كان

يلوح أمامه اسراب الخلاص والعزاء والامل .

انه يحب الطبيعة والهواء الطلق وتعاقب الفصول وتوالي ساعات النهار والليل . ان الفرح هو هدفه هو قدره . ان ندم على فرحة في الماضي فهو على السعادات التي لم يستطع اقتناصها . وان تاق الى امنية في المستقبل فهو الى ارواء ظمئه من ينابيع النشوة ، وارتياذ مناهلها العذبة . وهذه الشهوة الى الفرح والتكالب على عطاياه هي التي تمنعه من تركيز جهده في عمل معين ، وتكرس نفسه لكتابة الشعر . ان سكرة الغبطة تأتي في المقام الاول عنده ، تنسيه كل واجباته وتطغى على جميع اهتماماته الاخرى . وفي احلك المدن واقسى الظروف كم من مرة كان الفرح ينشر شراعه في قلبه ، ويقلق به على ايقاع صياح الديك . كم من مرة كانت اجراس الفجر تبشره بان وقت الهناء قد حان ، وان عليه ان يتقدم منتقضا بالامل نحو وعود السعادة المنشورة امامه بسخاء . وان يرشف كأسه ثملا بخمرة الروح المذهلة . وفي مثل هذه اللحظات المباركة اية فصول عجيبة لم يكن يحلم بمعاصرتها ، اية قصور مسحورة لم يكن يتوهم سكنها . وعندئذ كان يرضى عن نفسه ، فيتساهل مع اخطائه السابقة ، ويصفح عن زلاته القديمة ، ويتسامح عن عيوبه ، ويدرك انه يستمتع بسعادة لم يعط لانسان آخر ان يذوقها ، فرح كيانى ليس له اي مبرر خارجي ، قد ينتج عن مجرد وجوده متجولا في الهواء الطلق على مشارف قرية فرنسية ، حين كان يشعر بالاكفاء ، وبانه لم يعد يريد شيئا على الاطلاق ،

لان كل رغباته قد تحققت ، ولان الحياة قد بلغت في مثل هذه
الهنئية الخاطفة ملء كمالها . ان هذه الغبطة كانت تستولي
على رامبو فجأة دون مقدمات ، وتعفيه من بذل اي مجهود
حتى لقد كان يشعر بعد زوالها وانتهاء كل هذا الامتلاء
والخصب والغنى بخيبة مريرة ، بفراغ وموات وفقر داخلي ،
وكأنه كان يحلق في السماء وفجأة انقطعت به الخيوط
وطرحته على الحضيض . لكن بما ان هذه الحالات الخارقة
من الفرح قد دالت دولتها ، واصبحت من مخلفات الماضي .
بما انه لم يعد يستغرق في خدر النشوة كما كان يفعل في
السابق ، فانه يستطيع بالتالي ان يكرس بعض الوقت لكتابة
الشعر .

وهو ذا رامبو في « فصل في الجحيم » ايضا يصف
وقفته في الميناء امام الباخرة الموشكة على الاقلاع ومغادرة
اوروبا . ان تلهفه الى السفر لا يقاوم . فلا الشوق الى
الوطن ، و لامحبته ارض الاجداد ، ولا الرغبة في العودة
التي تتملك المسافر وهو يغادر بلاده ، اذ يرى خلف ظهره
اضواء مدنها وهي تشع عند المساء وتدعوه الى الرجوع ، ولا
اي من اصوات الحنين الاخرى بقادرة على شده الى الوراء ،
وابقائه مكانه ، وحمله على الاقلاع عن فكرة الرحيل . ان
يوم عمله في اوروبا قد انتهى ، ولا بد له من الانصراف . ان
هواء البحر يعصف بشراعه ، ونداء المناخات الغريبة والآفاق
المجهولة تجتذبه بشدة . انه يحلم بالمشاريع التي سيجققها
هناك في البعيد . سيسبح على شطآن مجهولة ، سيذوق ثمارا

غريبة لم يختبر نكهتها من قبل ، سيصطاد وحوشا فريدة نادرة ، سيتسكع متفرغا ، متناسيا كل اعبائه وهمومه ، متنزها ، متفرجا ، جواب آفاق ، متخففا من كل مسؤولية ، غير خاضع لعبودية الغير واحكامهم • سيثمل من كحول عجيبة وقوية ، سيشرب بضراوة ووحشية اسلافه القدامى وهم يترعون الكؤوس حول نيران المدفأة • حتى اذا ما عاد الى الوطن بعد غربة طويلة ، وقد لوحث الشمس بشرته ، واكتسبت ملامحه مظاهر القوة ، واتخذ هيئة الرجال العتاة ، وجمع كمية من الذهب تكفيه لان يعيش بقية حياته دونما حاجة الى القيام بأي عمل لتأمين رزقه ، فلسوف تحيطه النساء بالعناية ، لانهن يسرعن عادة الى الالتفاف حول هؤلاء المهاجرين العاجزين والمتوحشين في آن معا ، الراجعين من البلاد الحارة اثرياء • وربما اشترى له بنقوده منصبا حكوميا وجاها عريضا يكفل له مستقبلا معززا مكرما ، وتحيطه بالرفاهية والراحة حتى آخر يوم من عمره • لكن هذا مجرد حلم • اما الآن فانه لا يستطيع السقر • لقد حلت عليه اللعنة التي هي قدره • انه يكره المكوث في بلده ، ويتوق الى الهرب • لكن انى له ذلك ، وهيهات ان يتاح له الخروج من هذا الجحيم الذي يقيم فيه • الافضل ان يخدر نفسه ضد الالم ، ويعيش في حالة اللاوعي والذهول ، ان يستعين بخمرة النوم والنسيان كي يتمكن من تحمل وضعه المتأرجح الذي لا هو بالرحيل ، ولا هو بالبقاء •

يقول رامبو في احدى رسائله من عدن ، بانه لو كان

بمقدوره ان يسافر دون ان يكون مضطرا للاستقرار في مكان محدد للعمل ، فانه ما كان ليمكث في نقطة واحدة اكثر من شهرين لان العالم كبير ومليء ببلاد عديدة عجيبة ومدهشة لا تكفي حياة الف رجل لزيارتها كلها .

وهو يحلم في احدى قصائده بانه ربما تمكن في يوم ما ، في اواخر حياته ان يعرف الاستقرار والطمأنينة في بلدة صغيرة آمنة ، يموت فيها سعيدا راضيا كأي انسان موزون طويل البال . وهو يتساءل : ترى لو هدا شيطاني الداخلي ، وروست طبيعتي الجامحة ، وتغلبت على نزقي وتهووري واهوائي الغربية ، ومزاجي المنهار ، وجمعت بعض الثروة التي تكفيني كي اعيش . فهل اختار السكن في مناطق الشمال الباردة ، او في اجواء الجنوب الدافئة . ان مجرد التفكير بحياة هادئة آمنة ، بليدة ، رتيبة ، عادية وخالية من الاخطار يثير ثائرتة . انه يرفض فتور الدعة والاستقرار ، ويفضل مناخ المخطر الصاخب العنيف ، وايقاع المغامرة المتقلب المثير . لكن حالة الترحال والتجوال لم تعد قادرة على تقديم اي عون له . لقد فترت همته للسفر ، ومات فيه ذلك التوق القديم والعشق السابق للطرقات ، والتجوال وذرع الآفاق ، وهمدت فيه غريزة الاندفاع نحو البعيد والمجهول . ان الحانة الخضراء ، التي كان يجدها دائما في نهاية اسفاره ، وعند آخر دروبه لم تعد تفتح ابوابها في وجهه الآن ، لان ذلك الحماس السالف قد ولى الى غير رجعة .

وها نحن نقابل رامبو من خلال احدى قصائده ، سائحا

في-بروكسل في شهر تموز ، متسكعا في ساحة المدينة الرئيسية ، حيث تلتحم الحقائق المزهرة والمقصور الفخمة تحت وهج الشمس ، وزقزقة العصافير الجدلى ، وحيث تستثير البيوت الجميلة الوادعة احلامه : فهذا يوحى بالمحبس الذي حجرت فيه اوفيليا . وذاك بالشرفة الواطئة التي كانت تناجي منها جوليت حبيبها . حتى ليقوم الشاعر بذهنه برحلات خيالية ، ويفرح برؤية حسناء جالسة على مقعد اخضر ، وبالتقاط وشوشات الاولاد المترفين المنبعثة من غرفة طعام ، وتتداعى خواطره ويشرد مع اوهامه اللذيذة امام نافذة منزل ارسنقراطي وانه ليتألف مع هذه الجادة الهادئة الصامته ويعجب بها ، ويخلق منها بخیاله الخصب مسرحا مثيرا لآلاف المشاهد الهزيلة والمساوية .

ولقد عرف رامبو ، غير بروكسل ، حواضر عديدة منها باريس ولندن وشتوتغارت وميلانو . وموضوع المدينة هو من الافكار المحورية في شعره . فها هو في قصيدة « مدينة » في « الاشراقات » يعلن انه انسان عادي مجهول في عاصمة كبيرة ، ليس لها من الحداثة سوى انعدام الذوق في مبانيها وبيوتها ومخططاتها الهندسي . ان كل ما فيها يخضع للمنطق العلمي . لا شيء متروك لتحكم الصدفة والايمان بالخرافات . ان القيم الخلقية الوحيدة المعترف بها في محيطها ، هي تلك القمينة بالمحافظة على وجود الجماعة ، والمؤدية الى غاية نفعية . ان اللغة الوحيدة السارية المفعول في بيتتها هي تلك المستعملة لاغراض عملية ضيقة ، وللتداول السطحي المباشر .

انها تغص بملايين من البشر لا يعرفون بعضهم ، يتشابهون في شتى نشاطاتهم التربوية والمهنية والاجتماعية ، ومختلف مراحل عمرهم ، الذين يبدو لهم قصيرا جدا لفرد ما هي ايامهم متماثلة رتيبة لا يشعرون انهم يعيشونها حقا . الا نقول عادة ان يوم المدينة يمر بسرعة ، دون ان نتمكن من تحقيق شيء خلاله ، ودون ان نحس بوجوده . اننا نقضيه في حالة اقرب الى اللاوعي : فكأن معدل اعمار سكان المدينة مبتور مختصر الى آخر درجة . انهم سيول من المارة المجهولين يتدفقون محاطين بهالة من دخان المصانع ، التي تلقي ظلا عليهم هو بمثابة اقياء الغابة ، ودهشة ليالي الصيف بالنسبة لهذا الوسط المحروم من كل مفاتن الطبيعة ، وسحر التقلبات المناخية ، وجمال الفصول . انهم يتدافعون ويواصلون طريقهم دون انقطاع في الشارع ، وكأنهم آلهة الندم التي تطارد ضمائر المجرمين . حتى ان رامبو لا يفكر اطلاقا بمغادرة غرفته في هذه المدينة التي يتشابه فيها كل شيء ، ولا يوجد فيها ثمة ما يغري المرء بالسعي الى مشاهدته . وعلى ماذا عساه يعثر في الخارج الا على الحب اليائس ، والجريمة الجميلة الصارخة في وحل الازقة ، والموت البليد الخالي من الدموع الدائب على متابعة عمله بامانة ، والذي يكاد ان يكون ظل الرحمة الوحيد ، وبارقة الخلاص الاخيرة في هذه المتاهة .

وها رامبو في قصيدة « مدن - ٢ » من « الاشراقات » يعلن ان المدينة تتجاوز اكثر مفاهيم البناء الحديث همجية وعملقة : نهار باهت ، وسماء رمادية تتحرك ، وطرقات تتوهج

بلمعات الاسفلت • ان كل المعايير المعمارية والهندسية
المعروفة تنمو هنا نحو الضخامة القصوى • فكأن البناءات
لوحات فنية معلقة في معرض اوسع عشرين مرة من اكبر
متاحف العالم • ان الطياطن هي التي بنت سلالم الوزارات
هذه ، التي تصفي الهيبة والاباء والجلال على ابسط الموظفين
والحجاب ، وعلى الحراس الجبابرة من ضباط ويوابين • ان
العمارات بتجمعها على بعضها تسد في الوجه كل المنافذ ،
حتى ليشعر الانسان انه مأخوذ في فخ ممنوع من الحركة
والرحيل • اما رصيف الكورنيش فانه محاط بمصابيح عملاقة ،
والحدائق فانها تمثل الطبيعة البدائية مشغولة بفن رائع وسط
المدينة ، حيث حتى المكائدراثيات التي كانت تبني بذوق وبروح
التقوى والخشوع فيما مضى ، لم تعد سوى كتلة هائلة من
الفولاذ • ان المدينة تبقى مجهولة لا يسبر لها غور ، ولا يمكن
الالام بكل اسرارها ، ويظل الانسان غريبا فيها ، مستوحشا ،
مفتقدا الى اللفة • فسواء اوقف على اعلى الجسور
والحواجز والمرتفعات ، او تسلق قمة السلالم والسطوح ، فانه
لن يتمكن من استشرافها كلية ، والاحاطة بكل جوانبها ، او
حل هذا اللغز المحير : على أي مستوى يا ترى توجد الاحياء
الاخرى العالية او الواطئة • ان السوق التجاري هو كناية
عن مستديرة ذات نمط واحد ، تنتشر المعارض بين قناطرها •
لقد حلت الصفقات الكبيرة على المبادلات الصغيرة ، ورجال
الاعمال الاثرياء محل اصحاب الدكاكين الفقيرة • وهنا وراء
مكاتب الشركات الضخمة يتم مقايضة شتى اصناف البضائع

الواردة من مشارق الارض ومغاريها . كم وكم من مأس قائمة
تمثل على مسرح هذه المتاجر ، التي هي اوكار للجشع
والطمع والانانية . نعم لا بد ان يكون هناك قانون ما يحمي
اعضاء المجتمع من بعضهم ، وينظم العلاقات فيما بينهم .
لكنه ناموس عجيب غريب لا يستطيع رامبو ان يفقه معناه ،
او ان يفهم عقلية واسلوب عيش سكان المدينة ، الذين يشعر
انه من غير طبقتهم وجنسهم . حتى الحسي الارستقراطي
الانيق المشع والنظيف ، حيث لا يوجد سوى عنصر ضئيل
جدا من الفئات الشعبية ، ليس منسقا ، اذ ان بيوت اسياده
المرفهين تتشعب حتى الضواحي ، وتمتد في الريف .

كما انه في قصيدة اخرى من « الاشراقات » « مدن - ١ »
يصف البناءات الشاهقة ، الحافلات العديدة التي تتحرك على
السكك ، الصهاريج الكبرى المتوهجة في المصانع الضخمة
تحت النار ، المباني ، والصخب والضوضاء ، وصفارة شرطي
السير الواقف وسط الزحام على مصطبة عالية . ان هذا
الواقع المؤلم المخبئ للامل يسحق الروح ، ويخفق فيها كل
تطلع الى المجد والبطولة والمغامرة والاحلام ، حتى ليمتلئ
الانسان شعور بالعدم والضجر فيحن الى الانعتاق والسفر
والهرب بعيدا ، وهذا ما يحاوله الشاعر بان يرنو الى السماء
حيث يروح يتأمل الاشكال الغريبة التي ترسمها الغيوم :
وعول ملائكية تتقدم وسط انهيارات الثلوج ، قمر يطلع محدثا
اضطرابا في بحر الفضاء ، تراقق بروزه أمواج الموسيقى ،
واصداء الجواهر والاصداق الثمينة ، التي تعتم احيانا فوق

حقول الحصاد متوهجة كلمع الحراب ، او الكؤوس ، قوافل
من الساحرات باثواب صهباء وبيضاء تصعد من الوديان ،
غزلان ترضع من صدر الالهة الصيد وتغرق قوائمها في
الشلالات والعليق ، نساء طافرات في الضواحي نائحات ،
بينما يحترق القمر ويولول ويتجول بين الغيوم ، حتى ليبدو
 وكأنه يدخل في كهوف الحدادين والنسك • عندئذ تستولي
شبهوات غامضة على الشاعر ، وبوحي من هذه النشوة
المفاجئة والاشراق الروحية الخاطفة التي تسببها له مسيرة
السحب في الفضاء ، ها انه يخيل اليه ان اجراس الامل تقرر
مؤذنة بتحقيق آمال الشعوب ، فتراوده الآمال الجميلة والاماني
العذبة ، ويدغدغ صوت المجهول اذنه ، ويضج كيانه بالحماس
والحيوية والنشاط وهو يرى الهالة التي يضيفها السحر على
الحياة • زلزال يزعزع كل القوانين والقواعد القديمة ،
ويحررنا من كل الضغوط والعبوديات والقيود ، فتغمرنا
المحبة الشاملة نحو الانسانية جمعاء ، وندخل في شراكة
حميمة مع جماعات سعيدة من البشر ، تتألف وتغني معا
اناشيد البعث والامل والانتصار على الظلم ، مأخوذة بموجة
من الحنان ، مدهوشة لهذه الغبطة المباركة التي توحد صفوفها
وتؤاخي فيما بينها • وفي نهاية هذه القصيدة يتساءل رامبو :
تري اية ذراع رحيمة ، اية لحظة ميمونة تنقله الى هذه المنطقة
المهتوءة حيث تخصب الاحلام وتكتسب حركاته انسجاما
ورشاقة غير مألوفين •

اما في « الاشراق » التي تحمل عنوان « متروپوليتان » فان

الشاعر يخلق بخياله زاوية وهمية يعيش فيها داخل المدينة المطوقة بالاسيجة والحيطان ، حيث يعاني من البؤس الشديد . فالفقير يزداد شعوره بالاملاق وسط غاية الذئاب المفترسة هذه ، حيث ترتفع تكاليف المعيشة وينعدم اي حس انساني ، وحيث لا يفكر احد بالشفقة على محتاج او اعالة مغوز ، ان رامبو ينتمي الى تلك :

ـ « ٠٠٠ العائلات الشابة الفقيرة التي تتغذى من عند باعة الفاكهة ٠٠٠ » بمعنى انها تستعوض عن الطعام الجسدي الحيوي للمحافظة على الذات (الخبز ، اللحم ، المواد الغذائية الضرورية) بالطعام الروحي ، بالجمال ، بالترف ، بما يقصد به ادخال البهجة والمتعة الى النفس اكثر منه التشبث بالبقاء (الفاكهة) . ان المدينة هي ساحة وغى ، هي ادغال تتصارع فيها الوحوش الكاسرة ، حيث كتب على المحارب التقهقر والهرب وسط دخان الهزيمة الحزين الاسود ، الذي يكسو الكون بوشاح الحداد . فاذا ما خرج الشاعر الى الضواحي ، راحت الصور الشعرية تولد في راسه : الاقنعة المنورة التي يراها على وجوه الناس المضاعة بمصابيح تهزها الريح في الليالي الباردة، الحورية التي يلحها في قاع النهر، الجمامج المشعة التي تلوح له من خلال اكواز الصنوبر ، والكثير من الرؤوس الاخرى . وهكذا كان رامبو ينتصر احيانا على قساوة صحراء الاسفلت هذه بفضل الوعي الشعري ، حين كان يستيقظ مثلا عند الصباح فيجد الشوارع مغمورة بالثلج فيتصارع اليأس والامل في قلبه الى ان تعقد الغلبة لهذا

الاخير ، وتذيب شمس الهامه جليد المدينة ، ويهزم بقوته
الروحية جبروتها المادي .

ثم يصف رامبو في قصيدة « جسور » من « الاشراقات »
سما متلبدة بالغيوم الرصاصية تبرى فيها بعض النجوم ،
ومجموعة من الجسور بعضها مستقيم وبعضها ملتو ، صاعدة
حيناً هابطة حيناً آخر ، متشابكة تارة ومنعكسة طورا على
صفحة المياه المتلألئة في مجرى القنال . لكنها كلها طويلة
وخفيفة لدرجة ان الواقف عليها يرى قناطر الضفاف ضئيلة
وواطئة للغاية . قسم من هذه الجسور لا يزال على جوانبه
بقايا بيوت واطلال مبان ، وقسم آخر تستند على حافته
الصواري والحواجز الرقيقة ، والاشارات واجهزة ارسال
الصوت من بعيد المستعملة في المراكب . وان رامبو ليتساءل
حين يلمح ، عن مسافة ، سترة حمراء وثيابا اخرى وبعض
ادوات الموسيقى ، وحين يسمع اصدااء انغام تنبعث عن
الضفاف : هل هذه اغان شعبية ؟ هل هذه بقايا الحان
ارستقراطية من العهود الخوالي ؟ هل هذه اناشيد قومية ؟
عندئذ تغمره موجة عرمة من الحب والعطف الاخوي ، والالفة
البشرية المؤنسة ، ويتدافع الى فكره فيض من الاحلام العذبة ،
المطبوعة بالنبل والفروسية ، ويضج كيانه بالحماس ،
وتعصف بشراعه رياح المجد والبطولة والعظمة . ان في مجرد
النظر الى هذه المياه سكرة بخمرة الجهول ، واغراء بالسفر
الى بلاد بعيدة ، وايمان بوعود المغامرة البراقة . لكن هذه
الانخطافة الروحية المفاجئة ، والنشوة السامية ، سرعان

ما تتبخر بفعل شعاع صغير من الواقع يأتي ليسحب رامبو من الحلقة المسحورة التي شرد نحوها ، وليمحو هذا السراب الجميل الذي التمع أمامه ، وليهدم كل هذه القصور الوهمية التي بناها بخياله الجامح ، وليلغي كل هذا الجو الاسطوري المثير الذي غرق فيه لبضع لحظات قصيرة .

وها رامبو اخيرا في قصيدة « مرتفع » (Promontaire) في « الاشراقات » ينقلنا الى سكاربورو ، وهي مدينة مياه تقع على مبعدة ثلاثمائة وثمانين كلم . من لندن ، ليصف لنا هضبتها التي تمتد في البحر كشبه جزيرة او لسان ماء ، والتي يخيل اليه وهو يتأمل مشهدها ، في لحظات الفجر او المساء الرائعة ، انه مركب على وشك الاقلاع نحو المجهول من مرفأ احد الجزر اليونانية او اليابانية او العربية . يوجد على قمة هذا المرتفع اطلال قلعة رومانية يتهيا للشاعر ان هناك مواكب احتفالية تحج اليها دون انقطاع ، وتروح الصور المجازية تتوارد الى ذهنه على الشكل التالي : حصون حديثة مبنية لحماية الساحل ، كثبان مزروعة بورود حنونة تدور عليها اعياد وثنية احتفاء بباخوس اله الخمر ، اقنية قرطاجة الكبرى ، سدود مبنية على مياه مدينة البندقية ، منحدرات حدائق فريدة تحني رؤوسها المتوجة بدوحات من اليابان . فيما يتحول زبد البحر الى نثار ورود ورغوة مياه ناتجة عن ذوبان الثلج ، وفورات بركان « الاثنا » وتقلب الجنائن المعلقة فوق هذه الهضبة المسحورة الى غسيل منشور محاط باشجار حور المائية . اما الفنادق الصغيرة التي تشع نوافذها

وشرفاتها بالاضواء ، فان خطوطا تتشعب من واجهاتها
الدائرية ، تتعرج ، تنغرز في الارض ، وتفضي الى الفندق
الكبير الفخم الانيق المبني وفقا لاروع ما توصل اليه الفن
المعماري في ايطاليا واميركا واليابان ، والذي ينتج عنه
السواح الاغنياء طلبا للهواء العليل ، فتسفع لهم المشروبات
الروحية اللذيذة بسخاء . وهكذا تضافر ساعات النهار بكل
جمال تنوعها ، ورقصات الامواج على الشاطئ ، وهبات
الريح الناعمة ، في خلق اطار مسحور تقراءى فيه الهضبة
والفندق والقصر المشيد عليها متشحة بحلة بديعة اخانها ،
محاطة بهالة نورانية عميقة .

٤ - العذراء المجنونة

« الساحر المزيف يريد ان يجزىء قوى الطبيعة ، يريد اذ يفصل العلم عن الايمان ، الذكاء عن الحب ، الرجل عن المرأة ، انه يراهما متحدتين كالمصارعين ، ويعتقد انهما يتقاتلان ، انه يجرحهما بأن يفرق بينهما ، وها هو وقد فقد توازنه هو ذاته ، سيكون دوريا رجلا وامراة ، بصورة ناقصة دائما ، لان تحقيق الزواج محظور عليه . هنا تتكشف كل اسرار التوازن الكوني وقانون الخلق . بالفعل ان الازدواجية الجنسية البشرية هي التي تلد ، الرجل والمرأة طالما هما منفصلان يظلان عقيمين ، كالدين بدون العلم ، والعكس بالعكس ، كالذكاء بدون الحب ، كالرقة بدون القوة بدون الرقة ، »

اليفاس ليفي

ان رامبو يروي علينا في احدى قصائده ، على لسان العجوز الابله ، بعض الترععات والاهواء والاحلام الجنسية التي كانت تراوده في طفولته : كيف كان يبتعد ، اثناء المعارض الزراعية ، عن اماكن اللهو السخيفة ، نحو المواضع التي تبول فيها الحمير ، ليتفرج على «ذلك الانبوب الطويل الدامي» ، كيف كان يحب ان يسترق النظر الى افخاذ امه وهي تتعري ، او الى عورة اخته الصغيرة ، كيف كان يقمن احيانا وهو جالس على ركبة والده ان يفتح له ازار بنطلونه ، وكيف كان يضطرب لرؤية الخادمة • وبعد ان يدلي بهذه الاعترافات الفرويدية ، ويسرد علينا كل هذه الوقائع البسيطة التي كانت في حدائته توقظ شهوته ، وتهيج غرائزه ، يتساءل : ترى لماذا تأخر نموه الجنسي بعد ذلك ، وتوقفت غدده عن افراز الهرمونات • لماذا رقدت فحولته بعد بلوغه سن الرشد • لماذا بات يشعر بالام وخوف وندم بعد اشباع رغبته ؟

هل مارس رامبو الحب مع النساء ؟ هل عشق الفتيات حقا ؟ ام انه تعلق بهن لما كان ينسج حولهن من قصص خيالية ، ومغامرات وهمية ؟ لقد حلم مثلا ان يسافر ، شتاء ، في قطار فخم هو وحبيبته يتعانقان في مقصورة مريحة ويتناجيان طوال الرحلة ، تنام صاحبتة على ذراعه و «تغمض عيونها كي لا ترى الواقع ، واشباح الظلام في الخارج ، اي من مخاوف وبشاعات الحياة» • ولسوف يجرح لها خدها من عنق قبلاته • ولسوف يلثمها على عينها • عندئذ تظن هي ان حشرة قد عقصتها وتغلغلت بين ثيابها ، فيروحان يبحثان

عن هذه البقة المزعومة في جميع انحاء جسمها . فهل هذه
الخواطر مجرد تمنيات عذبة تداعب قلبه ؟ وهل هي مجرد
سراب ايضا تلك المغامرة التي يرويها علينا في « السهرة
الاولى » احدى قصائده الباكرة ، وتلك الفتاة شبه العارية
الجالسة على كرسيه ، والتي راح يقبل اقدامها ، ثم عينيها
ثم صدرها وهي تضحك ، وتتمنع بغنج ودلال ممزوجين
بالاباحية والاغراء ؟ هل هي حورية من صنع الوهم تلك
الحسناء التي ينطلق معها في شعاب الوادي ذات صباح
مشرق ترتعش فيه الغابة الصافية ، التي يبدو ان الحب يقطر
من اطرافها ، حتى ليخيل للشاعر مع كل رعشة غصن ان هناك
اجسادا عارية تهتز . وان رفيقته التي تعشق الريف، لتتمرغ
على العشب ساهمة نحو الافق بعينيها الجميلتين ، وتركض
في ارجاء الطبيعة زارعة ضحكاتها المجنونة في كل الارحاء ،
مبتسمة له هو الضائع في سكرة وحشية ، فيشدها اليه محاولا
اغراءها ومعانقتها ، وتحسس نضارة بشرتها ، التي تقبلها
الريح كاللص . واذ تستسلم بين يديه كالميتة بقلب عامر
بالنشوة ، مرتعشة مطبقة جفنيها ، يحملها بين ذراعيه ،
ويسير بها في الدروب المليئة بزقزقات العصافير . ولسوف
يحادثها واضعا فمه على فمها ، معتصرا جسدها . وفي
المساء سينهجان طريق العودة المضمخة بارايح البساتين
والحدائق . وسيصلان الى القرية فيما تكون العتمة قد اخذت
تهبط عليها ، ورائحة الحليب والاسطبلات قد راحت تفوح من
هوائها الناعم . وهناك سيجدان امرأة عجوزا تقرا في كتاب

الصلاة ، ورجالا عادوا من اعمال الحقول يشربون الجعة مدخنين غلايينهم ، او متناولين عشاءهم وراء ابواب تتراءى من خلالها التخوت والخزائن تحت اضواء القناديل الخافتة . فيما تزجر ام ابنها وتغزل جدة قرب النار . وكم وكم من مشاهد ستتجلى لهما من خلال اشعة النور على زجاج هذه الاكواخ . وكم من اسرار عجيبة سيتلصصان عليها عبر نافذة غارقة بين الورود . . . لكن هل هذه المباهج كلها مجرد احلام لم تتح له الحياة الواقعية فرصة تحقيقها ؟

على كل حال نجد رامبو في احدى قصائده « اغنية من اعلى برج » يتحسر على ايام الصبا ، حين كانت عواطفه متأججة ودمه حارا ، حين كان مهيا لممارسة الحب . لكنه كان من الخجل والجبن بحيث كبت جميع رغباته الجنسية وحرم نفسه من المتعة ، وخنق في صدره كل وعود السعادة فلم يعرف سوى مرارة الوحدة . لقد ضاعت منه تلك الايام وما قدمته له من دعوات الى الهوى . اذ انه كان عبدا لاحكام الغير ونظرتهم ، وللضوابط الاجتماعية ، والزواج والموانع الخلقية . وهو يتوق الان الى معرفة الحب وتذوق ثماره المسكرة ، وحلول العهد الذي تتعانق فيه القلوب وتخفق بعواطف الوحدة المقدسة . لقد عانى من الكبت والحرمان بما فيه الكفاية ، والضغط يولد الانفجار . لقد انتظر طويلا ، وما هو نافذ الصبر . لقد جاع كثيرا وما هو عاجز عن المقاومة مزيدا ، والاعراض عن الصحاف الشهية المبسوطة امامه . انه ينسى كل الاعتبارات . واذ تتبخر

القيود والقيم والنواهي والمخاوف والآلام في الهواء ، يضج العطش الى الغرام في دمه ، وتجري الشهوات الدنسة في عروقه . انه اشبه بمرجة خضراء اهلكت طويلا وها انها تنمو مكحلة بالندى ، وتزهو مضمخة بالشذا ، مما يجذب نحوها الذباب والهوام والمجنحات القذرة التي تروح تحوم حولها . ان روحه المسكينة التي عانت من كل هذه الوحدة والوحشة والحرمان ليس لها من القداسة سوى صورتها ومظهرها الخارجي . كما ان وجهه لا يحمل من البراءة سوى قناعها الكاذب .

وفي « صحارى الحب » يصور لنا رامبو نفسه على شكل فتى يافع ، متشرد ، محروم من عطف وحنان الام ، غريب في وطنه ، رافض لمجمل العقلية السائدة حوله ، متمرد على كافة القوانين الخلقية ككثير غيره من الشباب الجامح ، متضايق من الحياة ، سئم بتكاليقها ، تواق الى الموت . وبما انه لم يحب النساء رغم حرارة دمائه ، فانه اضطر الى تصريف طاقته الجنسية وقوته العشقية في غير الاتجاه السليم ، والى ارتكاب حماقات غريبة واخطاء مشؤومة . وهو سيصف لنا اثنين من الاحلام الشبقية التي بصرها ليخلص الى بعض الاستنتاجات الفلسفية والعظات والعبر ، وليبرهن على ان الدين المسيحي باحتقاره للجسد وبمحاذيره ومعاييره حول الخطيئة والعقاب قد شوه مفهوم الحب ، وساهم في خلق العقد الجنسية ، التي يعيش ابناء الديانات الاخرى براء منها ، فيشبعون رغبتهم الطبيعية ، وغريزتهم الشهوانية

بصورة شرعية ظاهرة ، خالية من الشعور بالاثم والذنب .
اما هذا الحرمان من الغرام له عواقب وخيمة ، ولا يسعنا الا
ان نتمنى للنفس التائهة التي تعاني منه ان تجد تعزية ما ،
وتعويضا من العطف والحنان يساعدها على تحمل الحياة .
وسنعرض لهذين الحلمين اللذين يصورهما رامبو بشيء من
التفصيل :

انه يرى ، في اولهما ، نفس الريف الذي سبق له ان
بصره مرارا في احلامه . منزل اهله القروي اياه ، نفس
الصالة المنقوش فوق ابوابها مناظر رعوية ، واسودا ،
واسلحة صدئة مزنجرة . يوجد غرفة للطعام فيها شموع
وخمور واثاث من الخشب الفلاحي المحفور ومائدة كبيرة
جدا . كما انه يوجد هناك الكثير من الخادومات ، بالاضافة الى
كاهن من رفاق المدرسة القدماى لا يزال يذكر غرفته الحمراء
ذات الزجاج المغطى بالورق الاصفر ، والكتب المحظورة التي
كان يملكها . لقد كان رامبو مهجورا في هذا المنزل الريفي
الواسع حيث كان يقرأ في المطبخ ، ويجفف ثيابه المبللة بالمطر
والوحد امام الضيوف الذين يتجادلون اطراف الحديث في
قاعة الاستقبال ، حساسا لجمال ساعات النهار ، متأثرا حتى
الدموع لشاعرية لحظة الفجر او المساء . وما هو
في غرفة معتمة لا يدري ماذا جاء يفعل فيها . وما ان خادمة
تقترب منه : انها تستكين عند اقدامه بتواضع وذل الكلبة ،
مع انها حسناء تنضج بذلك النبل والعطف والحنان الامومي ،
الذي هو في امس الحاجة اليه . انها بريئة وطاهرة ، انها

امينة واليفة ، يطمئن اليها ويرتاح الى حضورها المؤنس ،
وينسحر بفتنتها وجاذبيتها الطاغية . انها تفرسه في ذراعه ،
لكنه لم يعد يتذكر لا وجهها ولا معصمها الذي كان يدعك
جلده باصبعه ، ولا فمها الذي كان يعتصره بشفاهه كموجة
صغيرة يائسة تعلق بأي بر نجاة ، وتستهلك شيئا ما دون
توقف ، ممتصة رحيقه . جل ما يعرفه انه اوقفها في زاوية
مظلمة في سلة مليئة بالمساند واشرعة السفن . ثم غفل عن
كل شيء آخر ما عدا سروالها المخرم . وفجأة اذا باطار
الحلم يتغير ، لياسه الشديد ، وينتقل به دون سابق انذار
من حالة العشق ، وجو ممارسة الحب الى مناخ قائم : ظلال
اشجار معتمة ، رماد وجد مكبوت ، حاجة ملحة الى الحب ،
جوع مؤلم الى الوطن والحنان ، نار من الشوق والرغبة يلتهم
بها المحروم نفسه لانعدام شريك يمنعه ان يكون وحيدا في
ظلام الليل .

اما الحلم الثاني فهو يتعلق بامرأة اخرى قابلها في
المدينة وحادثها . وها هم يعلمونه انها جاءت الى عقر
داره بغية الاجتماع به . وها هو يراها في سريره مستسلمة
له في العتمة . ولقد تأثر وانفعل كثيرا ، ولا سيما وانه في
المنزل الابوي . ولقد حزن لانه امام امكانية اشباع رغبته
الجنسية اخيرا . لكن هناك زواجر وموانع واعتبارات عائلية
وخلقية تأتي لتمنعه من ذلك . ومما يزيد في اسفه وحسرتة
هو انه يرتدي الاسمال بينما شريكته سيدة مجتمع
ارستقراطية ، انيقة ، مرفهة ، تشعره بنقصه . لكنه يصاب

بخيبة امل كبيرة ، واسى عميق ، عندما يعلم ان الحسناء قد تهجره لانها مضطرة الى الذهاب ، لذلك يتشبث بها ، فتقع من السرير عارية ، ويهوي هو فوقها وقد بلغ ذروة الضعف والخوف من ان تفلت من يديه ، وراح يتجرجر معها فوق سجاد الغرفة المعتمة . فيما كانت الاضواء العائلية تشع من القاعات المجاورة وتلقي اشعتها الفضاحة على هذا المشهد الغرامي المشين في نظرها الذي تشجبه وتحظره . الى ان اختفت المرأة ، واخذ رامبو ينتحب بشدة لانسلابه من فرصة الحب النادرة هذه التي اتاحت له اخيرا .

ثم هام على وجهه في المدينة اللامتناهية ، تعباً ، غارقاً في الليل الاصم الذي لا يرحم مطاردا طيف الفرح الهارب امامه . لكانه يركض في امسية شتائية قارسة تتراكم فيها اكوام من الثلج كافية لخنق العالم بكامله . اما الاصدقاء الذين كان يسألهم عن محل اقامة الفاتنة التي سلبت عقله ، فانهم كانوا يردون عليه باجابات خاطئة . ها هو يصل اخيرا امام واجهة المكان الذي ترتاده كل مساء . وانه ليركض في حديقة مطمورة تحت الارض ، ويبكي كثيرا عندما يطردونه ويدفعونه بعيدا . حتى اذا ما نزل الى موضع مليء بالغبار ، جلس على الراح من الخشب وظل ينتحب الى ان استنفذ دموعه قبل انتهاء الليل . لكن العبرات لم تنفع في تفريغ كربيته وتصريف حزنه الى الخارج . عندئذ ادرك ان فتاة احلامه منصرفة عنه الى شؤون حياتها اليومية ، وان دور الطيبة والحنان الذي لعبته معه لن يتردد ثانية قبل مدة طويلة جدا (هذا اذا تكرر ابدا) .

ان هذه الفرصة الثمينة في اشباع حاجته الى العطف الانساني ، التي لم تمنح له الا لكي تنتزع منه بنفس السرعة ، لن تسنح له مرة اخرى بهذه السهولة . ان نجمة الامل هذه التي اشرقت في سمائه الملبدة بغيوم الكبت والحرمان لن تظهر قبل امد بعيد . ان الواحة التي لاحت في صحراء عطشه الجنسي ، لن تلوح امامه من جديد قبل ابد من الدهر . ان هذه الحورية التي زارته في احلامه لم تعد ولن تعود قط ، الامر الذي لم يخطر له في بال حين كان في سكرة النشوة ، وذروة الانسحار ، وهو يبكي ذهابها وغيابها اكثر من كل اطفال العالم مجتمعين ، اكثر من كل الصغار الوحيديين المستوحشين المحرومين من الحنان ، ودفع صدر عطوف يسندون اليه رأسهم الضعيف .

ان الانسان المزدوج الجنس هو ، بحسب قصيدة «انتيك» « Antique » « الاشرقات » ، احد الحيوانات الجميلة السارحة في غابة العالم . انه احيانا تربة صالحة وخصبة للوحي والالهام . ان عيونه مهياة اكثر من غيره لرؤية الجمال ، واكتشاف الكنوز الثمينة المخبوءة في جوف الارض . انه كائن شقي عرضة لهموم ، قليل الحظ ، لكنه يحب الحياة رغم ذلك ، لان اندماج عنصري الذكورة والانوثة في جسده يخلق فيه قابلية هائلة للفرح والرضى ، مثلما ان اتحاد الرجل مع المرأة ينتج عنه نشوة الاكتمال ، ولذة الوصال . انه مفطور على التأمل والحلم لا على العمل والنضال . انه حساس جدا بفضل عاملي السلب والايجاب المتفاعلين في

نفسه • انه محكوم عليه بالعزلة والحرمان والعجز عن اشباع شهوته بصورة طبيعية • وعندما تستيقظ غريزته يخرج ليتنزه وحيدا في الليل ، متخفيا كاللص تحت ستار الظلام •

كما يعتقد لوتريامون ايضا ان الانسان المزدوج الجنس يتمتع بمنطق اعمق العقول المفكرة ، وحساسية ارفع القلوب الرقيقة ، ذكاء الرجل في اسمى واعظم معانيه ، وعاطفة المرأة في ذروة ما تستطيع الوصول اليه • انه يملك حساسا سادسا غير موجود عند الآخرين ، وجمالا خلقيا متفوقا ، وكنوزا من الحنان والعفة لا تقدر بثمن ، وهو يصفه في الفقرة السابعة من النشيد الثاني لـ « اغاني مالدورور » كيف :

— « ••• طفق يبتسم وهو يتلقى الضربات ، وكلمهم بفيض من العاطفة والذكاء عن كثير من العلوم الانسانية التي درسها ، والتي تظهر ثقافة كبيرة في ذاك الذي لما يتجاوز بعد عتبة الشباب ، وعن مصائر الانسانية حيث كشف النقاب كاملا عن نبل روحه الشعاري ••• »

ان رامبو يعترف في « فصل في الجحيم » بأنه مصاب بعمامة جنسية تضرب بجذورها السامة والمؤلة في جسده منذ بلوغه سن الرشد ، وتسكنه بشيطانها اللعين الذي يمزق كيانه ، يشده الى اعلى ، يجذبه الى اسفل ، يقلبه ، يجره ، يتلاعب به كالدمية ، ويمرغه في حمأة الوحل • لقد مضى عهد البراءة والطهارة والعفة ، لقد ولى الخفر العذري والحياء

البكر ، والخجل الذي يستشعره الآثم الذي يرتكب المعصية
لاول مرة . ان معاشرة النساء وحفلات الفسق والمجون
والليالي الحمراء التي يقبل عليها الرجال الاحقاء محرمة
عليه بالعزلة داخل جدران ذاته، العاجز عن الاتحاد والاندماج
مع شخص آخر من غير جنسه ، او اقامة صداقة حقيقية مع
فرد من نفس جنسه ، لانه لا يملك هوية جنسية واضحة
محددة المعالم .

عندما يقول رامبو « فلنسمع اعتراف احد رفاق الجحيم »
فان هذا الرفيق ليس احدا آخر
غير فرلين الذي ارتبط مصيره بمصيره
لفترة من الوقت معاصرة لكتابة « فصل في الجحيم » . فماذا
يقول فرلين بحسب رواية رامبو ؟ انه يعتبر نفسه اتعس
مخلوقات الله . انه مدمن على السكر يعيش حياة قذرة
مشوهة ملطخة بالوحل . انه يبكي ندما على ضلله ، ويعرف
انه سيذرف مزيدا من الدموع في المستقبل . انه يخاطب
« الزوج السماوي » اي امراته الشرعية التي كان يمارس معها
الحب الطبيعي الذي يرفع النفس ويشدها نحو السماء ،
ويستجير بها من هذا « الزوج الجهنمي » اي رامبو الذي كان
مرتبطا معه بعلاقة مريبة تنحدر به الى اسفل دركات الجحيم .
انه ممزق بين هاتين النزعتين : الرجولة التي تؤهله للعشق
السوي الذي هو السعادة الحقة ، وبين الانوثة التي تنجرف
به نحو ذلك الهوى الخاطيء الذي هو الشقاء المقيم ، وهو الان
يخضع لهذا النوع الثاني من الغرام ، الذي يذله ، ويتدهور

به حتى آخر درجات الانحطاط ، ويذيقه الوانا من العذاب ما عاناها انسان قط . انه يتالم ، انه يصرخ ، انه يكتوي باوجاع مبرحة حقا . لقد اصبح عرضة لاستهزاء وانذراء الجميع . حتى احقر عباد الله باتوا يشمتون بحاله . ولم يبق عنده ثمة ما يخجل به ، ولم يعد يملك اي رصيد معنوي يخشى اضاعته بما انه قد فقد كل شيء . انه اشبه بعاهرة خالعة كل عذار ، مات فيها كل حس اخلاقي . انه عبد لذلك « الزوج الجهنمي » ، لذلك الشيطان الذي تسبب في هلاك ارواح اخرى كثيرة ، والذي لا يستطيع التخلص من ربقته ، والتفقت من اساره . لقد فقد عقله ، لقد حقت عليه اللعنة ، لقد اغترب عن احداث العالم الواقعي ، وانسحب من الحياة . مع انه لم يكن على هذه الدرجة من الفساد ، لم يكن متحلا ، عبدا لغرائزه ، مستسلما للرذيلة ، بل كان انسانا راضيا عاديا يسلك بصورة طبيعية مع زوجته ، الى ان تعرف على رامبو وكان هذا الاخير ولدا مراهقا بعد ، فاغواه برقته الساحرة ، وحمله على ترك كل شيء وتناسي كل واجباته الانسانية ليتبعه . ويا لها من ايام فظيعة تلك التي امضيها معا . وعلى كل حال :

— « ... الحياة الحقيقية غائبة . لسنا في العالم ... »

وراح ينجر وراءه اينما يقوده كما ينساق المـرء وراء قدره المحتوم . وغالبا ما كان رامبو يثور ويغضب على ضحيته المسكينة ويروح يعنفها ، لانه شيطان وليس رجلا ولا انسانا عاديا . انه يقول : انا لا اهوئ النساء ، ولا اؤمن بالحب ولا تنطلي علي خدعته . المرأة لا تبغي سوى الزواج

كما يتوق العاقل عن العمل الى العثور على وظيفة ، وعندما تحصل على مرادها لا يعود هناك جمال ولا غرام ، ولا عاطفة متبادلة ولا سعادة بيتية بل احتقار بارد ورتابة مميتة . لكنه كان يحلم احيانا - وقد بقي هذا مجرد سراب - ان يلتقي بحبيبته يعرف الهناء قريبا ، يطفىء شهوته بين ذراعيها الدافئتين ، ويشبع على صدرها الحنون جوعه الى العطف الانساني ، وحاجته الى الرفقة المؤنسة . وبدل ان يخجل رامبو من الاعمال الحقيرة الشريرة التي كان يقتطفها، فانه كان يجد فيها مدعاة للفخر ، ونوعا من الجمال والسحر . كما انه كان يتباهى بأنه ينتمي الى جنس متوحش ، يسكنه ابليس رجيم ويستمرىء الانزلاق في حمأة القذارة والبشاعة والوحل . وغالبا ما كان يهدد فرلين بأنه سيأخذ بالزئيق وسط الشارع لاثارة الفضيحة . وغالبا ما كان يعتمد الدخول في نوبات جنونية من الغضب ، او كان يصرح بأنه يرفض ان يشتغل وان يربح رزقه بعرق جبينه ، متصرفا كفتى مدلل لا يتحمل اية مسؤولية ، ويريد ان تقدم له الحاجات على طبق من ذهب . انه يحب الترف والبذخ وحياسة ثروة لم يبذل اي مجهود لاقتنائها ، تتيج له حياة رغيدة كابن ذوات ، يعيش من ريع ارزاقه الموروثة . وكم من ليلة حمراء امضاها الشعاعران الصديقان معا ، يتشنجان ويدمران نفسيهما في سرير ذلك الشيطان اللعين الذي استولى على روحهما .

وكم من مرة وقف فيها رامبو متعتعا من السكر وسط الشارع ، او في ارجاء المنازل لافتعال فضيحة ، واثارة هلع

رفيقه المسكين المرتعد حتى الموت تحت تهديدات هذا المراهق
الحرون الضعيف المراس ، الذي تنقمصه ارواحه الشريرة
على حين غرة ، فيروح يستنجد من اعداء وهميين ويستجير
من اخطار اعتبارية ، ويستسلم غصبا عنه لاغراءات طبعه
الاجرامي . ولقد كانت تأخذ رامبو احيانا موجة من الحنان ،
يروح اثناءها يتكلم عن الموت والندم الذي يستشعره المحتضر ،
الذي لم تسمح له فسحة العمر الضيقة بتحقيق ما كان يصبو
اليه ، فيذهب الى القبر مليئا بالخيبة والمرارة ، أسفا على
اخطائه الماضية ، عن البؤساء الذين تعج بهم الدنيا ، عن
الاعمال الشاقة المرهقة التي يقوم بها الكادحون ، عن الوداع
والرحيل المؤثر الذي يمزق نياط القلب .

وفي الحمأة الموبوءة ، في الخمارة الحقيرة التي كان يعربد
فيها مع فرلين ، غالبا ما كان يبكي من الشفقة لرؤية كل هذا
القطيع البشري المحيط به ، السائر تحت سياط الفقر والعذاب
والانحطاط . وغالبا ما كان يقيّل السكارى من
عثراتهم في الشوارع المظلمة ، راثيا لحالهم ، كما تعطف ام
شريرة على اولادها الصغار ، حانيا عليهم برقة تلميزة مدرسة
تمر في نوبة من الورع الديني ، والتقوى الصوفية . وكان
يدعي انه مطلع على كل شاردة وواردة في التجارة والفن
والطب . وكان فرلين يتبعه صاغرا ، عاجزا عن مقاومة
اغرائه ، واقعا تحت تأثيره كما تحت سحر التنويم المغناطيسي ،
وتحت سطوة قدر لا مهرب منه ، محاولا ان يضع نفسه مكانه ،
ان يفكر بعقليته ، وان يحلم بمخيلته . لكن لقد كان من

المستحيل عليه أن يدخل الى عالم رامبو الخاص ، ويفهم وجهة نظره ، ويحس بأحاساسه ويرى الاشياء بعينه ، فرامبو كائن عجيب غريب يتعذر على المرء تلبس شخصيته ، والدخول في جلده .

ولكم امضى فرلين من ساعات وليال ساهرا قرب جسد صديقه العزيز النائم يتساءل : ترى لماذا يحاول هذا المخلوق الناشز أن يتهرب من الحقيقة . فما من انسان عاقل يفعل ذلك عامدا . ان شخصا من هذا النوع يشكل خطرا حقيقيا على المجتمع . انه يملك ربما سرا خاصا لتغيير العالم . لا ، لقد صرح ان ليس في ذهنه اي مخطط واضح من هذا القبيل . انما هو يسعى الى البحث عن واحد . ان فرلين هو اسير غواية هذا الصبي الشيطان الذي اجتذب قلبه برقية سحرية . ولا يوجد انسان آخر يتمتع بمثل قوته على مجالدة اليأس ليتمكن من تحمل عبء هذا الحب اللعين ، والرضى بالعيش تحت جناح هذا العشيق الجهنمي . ان كل فرد يرى مزاياه ولا يرى خصال الآخرين . وهكذا يعتقد فرلين بأنه يتمتع بصفات غير متوافرة عند سواه ، تتيح له وحدها ان يصبر على عشرة رامبو ، الذي يعجز لهذا السبب عن تصويره برفقة احد غيره . ان رامبو يتظاهر بالبرود والجفاء تجاه فرلين ، لانه يخجل بتعرية عاطفته نحوه ، والاعتراف بها . انه يدعي ان قلبه خال من الهوى ، ويفرغ ردهات قصره الداخلي ، لانه يائف من رؤية متسول حقير كفرلين يتجول فيها . لكن هذا الشحاذ المسكين يعيش تحت سطوة محسنه ، ولا يستطيع

الخروج من تحت ظل سيده مهما طرده هذا الاخير . انه متعلق به . انه عبده لكن ماذا يريد هذا الحاكم المستبد بحياة تابعه التافهة الوضيعة العديمة المعنى ؟

انه يبغى تدميره ، ودفعه درجة درجة على سلم الهلاك وجره على دروب التحلل والفساد ، واقتياده الى الموت .

ولقد كان فرلين يقول احيانا لرامبو بأسى : « اني افهمك » . لكن هذا الاخير كان يهز كتفيه بشماتة ، مدركا ان صديقه لا يمكن ان يكون قد سبر غور نواياه ، وتقمص شخصيته ليعي حقيقة مشاعره ، وطبيعة سلوكه ، لانه من غرابة الاطوار بحيث لا يستطيع احد ان يكتنه جوهره ، ومن اللامعقولية بحيث يعجز العقل عن استيعابه . وهكذا كان عذاب فرلين بعشرة رامبو يتفاقم ويتجدد يوما بعد يوم . وكان يحتقر نفسه ، ويعرف ان الجميع يشتمزون منه ، ويشجبون ضلاله . هذا اذا صح انه كان قد بقي بعد ثمة من ينتبه الى وجوده ، ويتنازل بالقاء نظرة عليه . منذ ان نبذه معارفه بسبب آفته وعاره ، ولفظوه بعيدا ، وعزلوه عن دائرة الاسوياء الشرفاء ، ومنذ ان تجاهله بنو جلدته وتناسوه وتنكروا له . ومن منفاه ، من خلف هذا السياج والنطاق الذي يضر به المجتمع من حوله ، كما يقيم الاصحاء عازلا حول الابرص خوفا من تفشي الوباء ، ها ان حاجته الى عطف وحنان رامبو تتضاعف لانه اصبح ملاده الوحيد . انه يدخل بفضل الفتة وصحبته الحميمة الى سماء قاتمة يحب ولوجها ،

والبقاء فيها فقيرا اصم ابكم اعمى • لقد انس الى هذه الحالة
كما يعتاد المدمن على الافيون والخمر •

وكان الرفيقان الشاعران يتجولان بحرية كولدين هائمين
في فردوس التعاسة ، كانا على وفاق ، وكانا يعملان معا بود
مؤثر • لكن رامبو كان يصارح فرلين فجأة بعد ملاطفة عميقة:
ان وضعنا هذا سيبدو لك غريبا للغاية بعد ان اهجرنا •
عندما تستيقظ فلا تجد ذراعي حول رقبتك ، ولا فمي على
عينيك ، ولا تعثر على قلب حنون ترتاح اليه ، او ساعد قوي
تتكىء عليه • لاني يجب ان اذهب يوما ما بعيدا ، بعيدا جدا •
وبعد سماع هذه التهديدات ، وما ان كان رامبو يدير ظهره ،
حتى كان فرلين يصاب بدوار ، ويقع فريسة لآلام مريضة تضعه
في ظل ملكة الموت • ثم كان يلح على شريكه الصغير الى ان
يحملة على التعهد بأنه لن يهجره • وكان هذا الاخير يأخذ
على نفسه مثل هذه الالتزامات مئات المرات دون ان يفي بها ،
تماما مثلما ان الاول لم يكن صادقا عندما كان يدعي انه
قد فهم مزاج صاحبه • لكن فرلين سرعان ما كان يطرد من
ذهنه افكار الغيرة هذه ، ويروح يقنع نفسه بأن رامبو لن
يفادره لانه فتى غر ، شارد حالم ، يريد ان يعيش كالدائنخ
السكران ، رافضا التعامل مع الحقائق الحسية الملموسة ،
عاجزا عن العمل وشق طريقه في الحياة ، والتلاؤم مع ظروف
الواقع •

واحيانا كان فرلين يتناسى ويتجاهل هاوية الشقاء ، التي
يتردى فيها ليحلم بأن رامبو سيجعله قويا وسعيدا • بأنهما

سيسافران سوية ، سيصطادان معا في الصحارى البعيدة ،
وينامان في شوارع المدن المجهولة بغنوب خالية من الهم ،
متحررة من كل الروابط العائلية ،
متخففة من كل الواجبات والاعباء
الاجتماعية . او انه سوف يستيقظ ذات صباح فيجد ان
الانظمة والقوانين ، ان العادات والتقاليد قد تغيرت بفضل
قدرة رامبو العجائبية . ألم يصرح هذا الاخير بأنه يريد ان
يغير العالم ؟ فطالما بقيت الامور على حالها ، فان فرلين
سيظل ضحية شهوانيته وكسله ، ومجونه . ولا امل ولا خلاص
له الا في حدوث انقلاب جذري في سنة الكون . لقد تألم
كثيرا فهل يستطيع رامبو ان يقدم له حياة المغامرات الحافلة
التي يصادفها المرء في الاحلام بمثابة تعويض له عما عاناه ؟
لا ! انه يجهل كل شيء عن رامبو ، انه لا يملك اية معلومات
عن ماضيه او مستقبله ، انه لا يعرف ان كان مؤمنا او ملحدا .
فهل يستجير بالله ويطلب منه ان يساعده على رفيقه الشيطان
هذا ؟ ان من ينحدر الى قعر الهاوية لا يعود بمقدوره الصلاة .
لكن على افتراض ان رامبو قام يشرح له احزانه ومسراته ،
فهل هو مؤهل لان يفهمها ؟ ان الاول يتهم على الثاني ،
ويمضي ساعات في جرح احساسه وتحقير كل ما يعجبه
ليحمله على الخجل بعواطفه وذوقه والبكاء من المهانة والذل .
وعندئذ كانت تثور ثائرة رامبو ، ويستنكر دموع فرلين ، الذي
كان يبيلغه احيانا : انك ستتسبب بموتي لفرط ما تدينني من
الوان العذاب ، وهذا قدرنا جميعا نحن ذور القلوب الرقيقة .

واحيانا كان البشر الجادون الرصينون المنغمسون في مجرى الامور العملية يبدون في عين رامبو دمي متحركة خيوطها ايدي العبث ، وتعصف بها رياح الهذيان ، فيروح يضحك ويضحك في قهقهات مرعبة وهو يرى الحياة مسحرة ينخدع بها بعض الناس ، ويأخذونها عن جد ، ويتراءى له العالم وهما خادعا ينطلي زيفه وبطلانه على السذج وحدهم ، الذين ينظر اليهم من خارج فيهزا منهم في سره وهو يراهم مندمجين في مسرحية الحياة ، حيث يمثلون ادوارا هزلية ينفصل هو عنها ، ويتفرج عليها من بعيد فاضحا الالوعية كلها .

ثم كان رامبو يتبدل فجأة ويروح يعامل فرلين بود ، ويصبح اكثر عطفًا من ام شابة ، واكثر رقة من شقيقة محبوبة . لكنه متعب وقاتل حتى في لطفه وحنانه . لو انه اقل وحشية لكان في ذلك خلاصا لكليهما . ان فرلين المجنون المسكين خاضع له ، واقع تحت سيطرته لا يستطيع منه فكاكا . انه يحس بأن رامبو لا بد ان يختفي في لحظة ما بطريقة لا مألوفة . فهل سيكون اختفاؤه خروجًا من الجحيم ومن حماة الرذيلة والشر ، وصعودا الى السماء محاطا بهالة من القداسة ، وايدانا بحصوله على الخلاص اخيرا . ان فرلين ليتمنى له كل خير . على كل حال ما اعجب هذه الرابطة الحميمة التي توثق بين قلبي هذين الشعاعين الضالين ، اللذين يبعث سلوكهما غير الطبيعي ، ومنهج عيشهما المحير على الضحك والاستغراب .

كما ان رامبو في قصيدة « متشردون » في « الاشراقات » يعبر ايضا عن تجربته مع فرلين ؛ ذلك الاخ المسكين المثير للمشقة ، الذي امضى برفقته الكثير من الامسيات المريعة . انه لا يفهم هو نفسه طبيعة عاطفته نحو هذا الشقيق البكر ، والتي هي مزيج من المحبة والرثاء لحاله والارادة الصادقة في انقاذه وتفهم وضعه ، بعد ان استغل ضعفه وآفته ، وتسبب في هلاكه ، وجره الى حياة التشرد والشقاء . لقد كان فرلين يعتقد ان رامبو هو طفل بريء وقليل الحظ . واذ كان يعرب عن بعض الهواجس الباعثة على القلق كان رامبو يجيبه هازئاً ، ويبتعد عنه نحو النافذة متابعاً الاحلام التي تتوارد الى ذهنه تحت تأثير الافيون ، الذي لا يكاد ينتهي مفعوله اللذيذ ، الفظيع ، والمسرّع العطب ، حتى كان رامبو يتمدد على فراشه ، حيث سرعان ما كان فرلين يستيقظ من رقاذه ، ومن كابوس يلقي في روعه ان اسنانه متأكلة وعيونه مقتلعة ، ويسحب رامبو من ذراعه الى الغرفة . مولولا ، مفصحا عن الحلم المزعج والسخيف الذي راه . بينما اخذ هذا الاخير على عاتقه بكل اخلاص ان يحرر صديقه من كل العبوديات والضغوط الخارجية ، ويعيده الى حالة البراءة والطهارة ، الى دنيا البكارة والعقوبة التي خلقت عليها الطبيعة الانسان ، تلك الفطرة الاصلية التي يسعى رامبو الى العثور على اسلوب لبلوغها ، والى التفتيش عن المكان الذي تستوطنه متشرداً من اجل ذلك مع رفيقه . يجوبان الدروب وينامان في الاقبية .

فهو ذا رامبو في فقرة من « جمل » في « الاشراقات » يقول بأن فرلين رفيق فقير ، وطفل مريض ، لا مبال حيال بؤس العالم ومشاكله وتعقيداته ، ومصاعب وهموم صديقه رامبو ، الذي يرتاح لوجود انسان لا واقعي خيالي مثل فرلين الى قربه لانه بفوضويته وتهوره الجنوني ، بغفلته وانعدام كل حس عملي فيه ويتجاهله للكارثة التي تحيق به ، انما ينجح في ان يلهي شريكه عن هذه المأساة ، وينقذه من اليأس الذي تحتمه كل وقائع حياته . وفي فقرة اخرى من « جمل » يعلن رامبو انه قد انسى فرلين كل علاقاته الماضية ، وربطه اليه بوثق محكم لا فكك منه ، وسيخنقه بحبه ، ويتسبب في هلاكه . اما في فقرة الثالثة من « جمل » فان الشاعر يهتف بأن الحب هو عيون تنظر بدهشة الى لغز الحياة المحير ، ومشهد الكون المسحور الذي يسلب الالباب ، هو طفلان مخلصان هائمان على الشاطئ يحلمان بالسفر والمغامرة ورؤية المجهول ، وهو بيت آمن يسوده الهدوء والانسجام ، يعيش فيه كائنان متآلفان يغدقان الحنان والعطف المتبادل على بعضهما . بينما تعرف فقرة رابعة من « جمل » الحب بأنه شعور بالاكتمال والاكتفاء ، بالطمأنينة والخشوع ، بالثقة بالنفس والايمان بجمالها ، والقدرة على الاستغناء والاستقلال عن الآخرين . واخيرا تجاهر فقرة خامسة من « جمل » بأن العالم لا يعبأ بنا . ان احدا لا يخاف منا ان كنا اقوياء ، او يحفل بنا اذا عيسنا . اما اذا ابتسمنا قاننا لن نجد من يشاركنا مرحنا ، ويضحك لنكاتنا . ان شربنا او خيرنا لن

يؤثر على سير الاحداث ومجرى الامور . وكما ان العالم لا يهتم بنا ، كذلك علينا نحن بدورنا ان لا نكثر له ، وان لا نخضع لضغوطه وقوانينه ، لاصوله وتقاليده ، وان نمنعه من الحؤول بيننا وبين الاستجابة لدوافع الحب بحرية مطلقة . فنضرب عرض الحائط بهزئه واستنكاره ، باعرافه وشكلياته لنطيع اهواء ونزوات قلبنا .

ان الغرفة التي كان يقطنها قرلين ورامبو في باريس عام ١٨٧٢ لا تكاد تتسع لفوضى الثياب والاطعمة المنثورة في ارجائها . ولا تكاد جدرانها تكفي لحماية الشاعرين الصديقين من اقاول الناس الذين يشجبون مسلكهما الغريب ، ويتدخلون في شؤونهما ، محاولين تعكر جو حياتهما ، ومن احكام المجتمع القاسية الذي يتخذ موقفا عدوانيا تجاههما ، ويشكل مصدرا للازعاج المتواصل لهما ، ويحيك ضدهما مؤامراته اللامجدية سعيا للتفريق بينهما . ان العنكبوت يعيش في زوايا هذه الغرفة ، وحتى بين حنايا الخزائن ويبقى هناك . لان شاغليها لا يقومان قط بترتيبها وتنظيفها ولانهما غالبا ما يتغيبان عنها دون ان يكون عندهما اعمال ضرورية وجدية تقتضي ذلك ، بل مجرد التشرذ والتسكع في الخارج . ان الرياح غالبا ما تقتحم هذه الغرفة الحظيرة اثناء انصراف ساكنيها عنها ، وحتى مياه المطر تتسرب اليها وتتجمع حول سريرها . ان الصديقين بعد ان يمضيا فيها ليلة مهتوءة تنتهي السكره ويحين دورهما كي يدفعوا غالبا ثمن المتعة التي ذاقها ، وكي يشبعوا ازعاجات ومضايقات وخاصة من قبل

ما تيلد موتيه زوجة فرلين • نعم لقد كانا يعرفان السعادة الحقيقية ان لم يأت ائذار من العالم الخارجي يعكر عليهما صفوهما • نعم لقد كانت اشعة القمر الحاملة الناعسة البيضاء تحيط نافذة غرفتهما بهالتهما السحرية ، ان لم يلتمع البرق على زجاجها كطلقة بندقية بعد الغسق •

— « ••• معي انا وحدي تستطيع ان تكون حرا ••• »

كتب رامبو الى فرلين في تموز عام ١٨٧٢ ، مع انه ، في نهاية « فصل في الجحيم » يطلب مساعدة ، يتوق الى يد صاحب تمتد اليه • لكن هل الصداقة ممكنة ؟ ألم يختبر مرارتها واستحالة اقامة اية علاقة مخلصه بين انسان وانسان ؟ ألم يفتضح اوهام الحب الكاذبة وزيف هذه الرابطة المزعومة التي تشد بين كائنين ، والتي هي اوهى من خيوط العنكبوت ؟ ألم يكتشف العزلة المطلقة التي حكم عليه بها ، والمنفى المؤبد الذي هو مسجون فيه ؟ ألم يتبين له انه محصور ضمن جدران ذاقه ؟ لكن هنا في هذه الفسحة الحميمة الضيقة فقط سيكتب له اكتشاف الحقيقة ، وامتلاكها ، والتعبير عنها •

ان بشاعات هذا العالم تجرح الانسان المثالي في صميم قلبه ، فيروح بملء كيانه يبحث عن الخلاص • لكن اين عساه يجده ؟ اعند المرأة ؟ انها ليست « شقيقة الرافة » المنشودة • انها لا تستطيع ان تساعد ، انها بالاحرى تطلب العون منه • انها عاجزة عن العطاء ، مقطورة على الاخذ • اعند الفن او العدالة ؟ اعند العلم او الطبيعة ؟ كل شيء يخذله والعزلة

المخيفة هي قدره الوحيد . فلئن فكر بالاهداف السامية والاحلام الجميلة ، بالنزهات الرائعة والحقائق الخالدة . فانه في اعماق روحه وبكل فلذة من اعضائه المريضة انما يتوق الى الخلاص النهائي ، الى « شقيقة الرافة » الحقيقية : الموت .

لقد وعى رامبو كل تناقضات الوجود، ولا معقولية العلم . لقد ادرك اننا نفنى وتستنفد ايامنا دون انقطاع . الثمار تقطف ، الازهار تذبل ، وفي اليقظة كما في المنام ، في السراء كما في الضراء ، لا يكف نهر عمرنا دقيقة واحدة عن الجريان . فالانسان اشبه بمركب شراعي يغرق حتى قبل ان يتاح له ان ينشر قلاعه ، ويجهض مشاريعه دون ان يتمكن من تحقيق اي منها كما كان يحلم . انه يفشل منذ خطواته الاولى . ان رامبو لا يؤمن بالحب لان العاشق اناني يريد استغلال عشيقته لمتعته الخاصة . انه لا يقيم وزنا لمشاعرها ولا يستهويه فيها سوى لذته الشخصية . كما انه لا يثق بالصدقة لانها لا تستطيع ان تنتزه عن الاثرة وحب الذات ، وان تقوم على تفهم كل من الرقيقين لنفسية الآخر ومراعاة احساسه . ان الحب والصدقة لا يدومان ، انهما خدعتان . كما انه لا يوجد عنصر في هذه الحياة يظل ثابتا على حاله . فانا سرعان ما نحتقر ما كنا نقدر من قبل ، ونكره ما كنا نعبده سابقا ، ونحزن لما كان يفرحنا بالامس . فما اسخف اولئك الذين يأخذون الامور عن جد ، ويعتقدون بالقيم المطلقة، ويعتزون بشرفهم وجاههم جاهلين ان كرامتهم ومكانتهم قد

تزولان بطرفة عين •

ان جمال المرأة مكون من مادة قابلة للتحلل والفساد •
ان اعضاء الجسم اذا تأملناها بما هي خلايا من لحم ودم
خاضعة للتلف ، لاصبحت مثيرة للقرف • ان اجمل حسناء
اذا تمعنا في انحاء جسمها بما هو بؤرة للفناء لاصبنا
بالاشمئزاز : العنق العيل ، عظام الرقبة الثخينة النافرة ،
الظهر المنحني الذي يتقوس ويستقيم ، بطة الرجل ، الشحم
المتكاثف تحت الجلد ، القلب الاحمر • عندما نتفحص كلا من
هذه الاجزاء على حدة ، ونفكر بوظائفها الحيوانية يخيّل
الينا اننا نشم رائحة كريهة تنبعث منها ، انها قبيحة منفرة
بشكل مخيف ، انها عورات وشوهات تحتاج الى عدسة مكبرة
كي تظهر •

الحب وهم تخلقه فينا بعض اللحظات الشعرية
العابرة : جولة تحت سماء عاد اليها صحوها بعد زخة من
المطر • نزهة تحت اشجار الربيع المزهرة نزنو اثناءها الى
سرب من الفتيات السائرات امامنا ، او مشوار تحت ضوء
القمر نصادف خلاله بعض الصبايا في طريقنا • وان رامبو
ليسخر الان من كل مغامرات الهوى التي سبق له ان عرفها ،
ويكتشف انها لم تكن سوى مجرد اضاليل • فلطالما خيل اليه
في مثل هذه السورات الوجدانية انه شاعر ، وهو يقضب
على نفسه الآن لانه استسلم لميوعة عاطفية من هذا النوع ،
وانخدع بخزعبلات مضحكة من هذا القبيل تدغدغ الغرور ،
تتلاعب بالمخيلة ، وتضفي على من يقع ضحية لها عظمة كاذبة

وامجادا زائفة • ثم ها هو يصف كل الغثائث التي ترافق عملية الحب : رائحة الشعر ، الخصلات التي تدخل الفم ، اللعاب الذي يسيل على النهed المدور ، العضات واللطمات التي تترك آثارها على الصدر العاري • نعم انه ليتقزز الآن من صراعات الهوى وكل هذه الفورات الانفعالية الرخيصة التي انطلقت عليه بدعتها لفترة ما ، لا سيما عندما يفكر بأن هؤلاء الفتيات اللواتي وقع في غرامهن ، وتراءين له في لحظة آنية اشبه بحوريات ساحرات سيتقدمن في السن ، ويصبحن يوما ما عجائز شمطاوات يعرجن ويزحفن بثاقل • فيتعجب ، نادما حانقا على نفسه ، كيف انه تعلق وتغزل بمثل هذه المسوخ المشوهة ، والكتل من الشحم واللحم التي تنخر فيها سوسة البلى فتنفسخ وتتعفن مع الوقت ، هذه الجثث المنتنة التي سيؤول مصيرها في النهاية الى نفايا مهملة في الزوايا ، او الى راهبات هرمات يخدمن في احد الاديرة بذل وخنوع ، او الى ربوات بيوت مسنات يعشقن كل تفاهة الحياة البورجوازية البليدة الخالية من الشعر •

٥ - الأبدية المستعادة

« ليس عنده شيء آخر يكشفه سوى انه عثر على
الأبدية ، ليس عنده شيء آخر يكشفه سوى أننا لسنا في
العالم » .

بول كلوديل

لقد رفض رامبو كل معطيات الحياة ما عدا امرين :
الطفولة والطبيعة ، اللذين يندمجان معا ليؤلفا جنة خضراء ،
ما انفك الشاعر يحن اليها ، بنوع ان كل مجهود عمره لم يكن
الا السعي للعثور على بديل ومعادل لهذا الفردوس الضائع .
انه يعشق الارض بشهوانية ، ويجني عسل قصائده من
مروجها الزاهرة . ان ابسط الوقائع الحسية تغذي شعره .
فالمادة هي منطلق الى الروح ، والفن هو ما تقدمه لنا حواسنا
مختلطة ممتزجة بعضها ، حيث اللمس يطغى على الرؤية ،
والشم على السمع .

ان سر الطرافة والابتكار في نظرة رامبو الى الطبيعة
هو في انه لا يصفها بصورة سكونية ، في انه لا يراها وهو
واقف او قاعد ، لكنه يبيت فيها الحياة ، ويفاجؤها وهو
متشرد او تائه ابان جولاته ورحلاته وهروباته المتواصلة ،

او يوحى بها في فيض من الافعال والعبارات النابضة بالحركة . اذ انه عاش قريبا منها ، نام في الهواء الطلق على دروبها ، واستلقى على هضابها ، قرب خمائلها ، وعند اطراف غاباتها .

انه في احدى قصائده المبكرة « نائم الوادي » ، يصور لنا من جهة جمال الطبيعة وسكنتها : الوادي الاخضر المشع بالاضواء ، الجدول الرقراق ، قطرات الندى ، الجبل الاشم ، الجرجير الازرق ، والورود الشدية ، ومن الجهة الاخرى فطائع الحرب واهوالها : البشاعة والضراوة والوحشية وفساد الانسان الذي لا يزال ذنباً لاخيه الانسان .

لقد كان مركب رامبو السكران اثناء طفراته المغامرة وهروياته الهوجاء ، يجد الطبيعة تفتح له صدرها الرحب ، وتبارك حماساته المتوثبة ، فيروح يهيم في جنباتها ، متخففاً من كل اعبائه وهمومه ، سعيداً ، مستسلماً بين احضانها ، غير هياب او خائف ، مقدماً على اعنف المجازفات ، مرتاداً المجهل والمخاطر ، غير آبه للتحذيرات والتنبيهات التي تحاول ان تنهاه عن ارتيادها . وهكذا كان يشرد اياماً بطولها دون مأوى ولا مأكل او امان ، غير اسف على العالم القديم الذي هجره ، وعلى الاناس التافهين الصغار الذين غادرهم ، غير مبال بنظرات التقريع واللوم والوعيد والشماتة التي يشيعونها بها . ولقد كان يختبر متعة حسية فائقة للوصف اثناء احتكاكه بالطبيعة ، التي كان يقرن بذهنه دائماً بينها وبين اية فكرة عن الفرح .

قال ارنست دلاهاي لرامبو فيما كانا يتنزهان معا في اوائل الربيع : ان عصر الديمقراطية والعلم والمساواة سيقود الى التفاهة ، وانه لن يعود هناك فن ولا جمال ولا عظمة . فما كان من الشاعر الا ان قطف زهرة عن حافة الدرب . واجاب صديقه : انظر الى هذه الوردة ! اين تستطيع ان تشتري تحفة مشغولة فاخرة تضاهيها بهاء ومهارة صنع . عندما ستزول كل المؤسسات الاجتماعية ، فان الطبيعة ستظل تقدم لنا بتنوع مذهل ملايين الجواهر .

ان رامبو المتنزه علي ضفاف نهر مجهول ، ينساب بين الوهاد الغربية ترافق هديره رفيف اجنحة الملائكة ، ونعيب مئات الغربان - التي يحب ان يتأملها وهي تحلق فوق البراري الباردة والاكواخ المنهارة ، بعد صمت اجراس المساء كجيش غامض يرسل اصواتا وحشية حادة فوق ساحات الوغى المزروعة بجثث قتلى المعارك الغابرة - يمتلىء بالخيالات والاحلام : سفرة في الزمان والمكان نحو بلاد قصية واجيال سحيقة القدم ، زيارة حصون منيعة وحدائق غناء ، اكتشاف اسرار مغربية ، تصور قصص غرام ملتبهة وحكايات مثيرة حول مغامرة فرسان تائهين ، والاستمتاع بطراوة الهواء اللذيذ المنعش . ان السائر على ضفاف هذا النهر ، تنتفخ رثائه برياح البطولة والشجاعة ، ويمضي قدما بحماس ، ناسيا تفاهة العالم البغيض كلية .

يصف رامبو في احدى « اشراقاته » « عيد شتاء » شلالات المطر حين تهدر حول غرفته طارقة زجاج نافذتها ،

داوية على سقفها ، الرعد حين يقصف ، والبرق حين يلتمع
في السماء كأسهم نارية حمراء بلون المغيب وسط نشيش
المياه في الحدائق والممرات المجاورة . فتستيقظ غريزته
الجنسية ، ويشعر بحاجة الى دفء الانثى وحرارة جسدها ،
هي القادرة وحدها على اشباع جوعه الهاصر الى الاحلام
والعطف . ويتوق الى مزيد من المطر وقد اخذته موجة من
الحنان ، ويبحث فيه ذلك الكائن الذي يحب الشتاء ، ويتمنى
ان يغمر العالم الطوفان ، او ان يسد الثلج كل المنافذ ، ليبقى
هو قرب المدفأة مقطوعا في غرفته عن المحيط الخارجي ،
ويعصف به الحنين الى السفر والرحيل نحو قارات بعيدة
واجواء اسطورية يرى فيها العجائب والغرائب .

وفي قصيدة اخرى عنوانها « دمة » يصور لنا رامبو نفسه
وهو يشرب من نبعة ماء في دغل محاط باشجار البندق
لا تؤمه العصافير ولا القطعان ولا القرويات ، ذات بعد ظهر
مغمور بالضباب تمازج جوه رطوبة مخضوضرة . انه يعاني
من الضجر والتفاهة بين هذه الشجيرات ، فوق هذا السندس
الذي لا تزهر عليه اي وردة ، وتحت هذه السماء الملبدة
بالغيوم التي تنذر بالعاصفة . وفيما هو حزين على هذه الحال
اذا بالرعد يدوي فجأة وينطلق الاعصار فيغير وجه السماء
حتى المساء ، ويتحول المشهد على مسرح قلب رامبو لصالح
الفرح . وها هو يرى إقطارا مجهولة ، وبحيرات ، واسماكا
نادرة وقباطر محطات ينطلق منها في الليالي السنية ، مسافرا
الى مدن جميلة طالما حلم بها . انه اشبه بصياد على

الشاطيء ينتظر رزقه والكنز ذاهلا مخطوفا عن نفسه ، مرتويا
من اكسير سماوي يعفيه من كل اشربة الارض .

وهكذا يمر رامبو في فقرة من احدى « الاشراقات » :
« جمل » في نشوة جمالية وهو يتأمل الضباب المتصاعد من
المستنقع فيخيل اليه ان ثمة ساحرة من بنات الجن ستظهر في
هذا الغسق الابيض ، وان ثمة خمائل من البنفسج تزهر
امامه .

وهكذا تعلن قصيدة « ميشيل وكريستين » : اذا ما
غادرت الشمس شواطيء الفضاء ، واستحالت الى كلب اسود
يكفهر معطفه شيئا فشيئا ، ويهرب من وجه الطوفان ، ومن
ساعة البروق المتفوقة ، واعتمت الطرقات واشجار الصقصاص ،
وراح الاعصار يرمي بأول قطراته في الباحة . اذا ما هربت
قطعان الغيوم كجنود شقر يحرسون الجسور المنيع والادغال
الهزيلة ، ويهبطون الى عزلة افضل ، سابحين في الكبريت
والظلام ، وارتدت السهول والصحارى والمروج والأفاق لباس
العاصفة الاحمر . فان خيال الشاعر يسافر بحثا عن سماوات
الجليد القانية تحت السحب الالهية التي تركض وتطير ،
ويهاجر الى سهوب اطول من القطارات . ان همومه ومخاوفه
تتبخر في هذا الاصيل العاصف المخيم بخشوع ديني فوق
العالم القديم ، الذي تهيم فيه الوف من القبائل الرحل ، وتخب
الفرسان على احصنتهم الشاحبة معلقين حبالهم المحمرة في
السماوات السوداء ، وترن الحصى تحت حوافر هذا المركب

البطولي الظافر • وبتأثير من الحالة النفسية الجيدة التي نقله اليها هذا التحول المناخي ، وقبل ان تنتهي هذه النشوة المسحورة ، وهذا الامتياز غير المتوقع ، ها ان فيضا من الاحلام والاماني تولد في خاطر الشاعر ، فيتساءل ان كانت ستتاح له الفرصة كي يرى الغابة الصفراء والوادي المشرق والوطن العزيز ، كي يقابل الزوجة الوفية الجميلة والرجل القوي وكي يعرف الامن والسلام •

وفي احدى « الاشراقات » وتدعى « عمال » يصور رامبو صباحا دافئا في عز شباط ، حين يذكره هذا الطقس الذي يحل في غير اوانه بتشرده وفقره المدقع ويؤسه التام • وان منظره وهو يمشي مع رفيقه فرلين ، الذي يرتدي ثيابا رثة عتيقة من العهد الفائت ، لاكثر كآبة من مسيرة ماتمية • انهما يتجولان في ضواحي المدينة (ربما لندن) تحت سماء ملبدة بالغيوم ، فتتهيج الرياح الجنوبية الحارة الخانقة اشجان رامبو ، تفتنه بخيبة اماله ، وجفاف روحه • بينما لا يتضايق فرلين من هذا الجو الحزين الى هذه الدرجة ، لانه بطبيعته اللاواقعية ومزاجه الخيالي يتعامى عن التعاسة المحيطة به من كل جهة • انه لا يرى في البركة الآسنة الباقية من فيضانات الشهر الماضي ظلالة مشؤومة تنعكس على الصفحة الوسخة ، كما هو مفترض ان يفعل • بل يوحى له ركود المياه باسماء وهمية تسبح في الاعماق • ان المدينة بدخان مصانعها وضجتها الصاخبة تلاحقهما حتى هذه الدرب النائية • فيتحسر رامبو على ذلك العالم

الإضر ، على الريف الذي يسكنه أناس
محظوظون يستمتعون بنعمة السماء الصافية ، التي لا يعكرها
عيق المحروقات وبركة الأشجار الخضراء والظلال الرحيمة .
ان هذا الانقلاب المناخي المفاجيء ليلفت رامبو الى بعض
الوقائع المريرة من طفولته ، الى نوبات اليأس التي كانت
تفتابه أحيانا في الصيف ، الى كميات من القوة والحكمة
يتحسر لان القدر حرمه الاستفادة منها . لا ، لقد قرر الرحيل .
فهو يرفض تمضية فصل الصيف في هذا البلد البخل المجف
الذي لن يكون فيه هو وفرلين سوى « خطيبين يتيمين » . انه
يعز عليه ان يبقى مع شخص أثير الى قلبه في هذا المناخ
الكالح ، الذي انضب فيه كل معين للحب ، فتحجرت عواطفه ،
واصبحت ملكاته الابداعية بالعقم .

عندما تعبت الريح بالزهور والاعشاب في شهر نيسان ،
فان حالات قديمة من السعادة والطهارة تطل برأسها وامقة
الى الشرب من هذا الأكسير السماوي الذي يسكبه لها هذا
الطقس المحير . فالضباب الذي ينتشر دائما على منوال
واحد ، لا يحوي على شيء من الاشرار والبهجة ، بينما
ترتاح النفس الى اللحظات اللامالوفة ، والمراحل الانتقالية ،
والاجواء التي لا هي بالحرارة ولا الباردة .

ان رامبو يحب ان يذهب مع قدوم الربيع ، حين تكتسي
الارض بالبراعم ، وتتعلق الاوراق الزاهية على الاغصان
كالاجراس ، ليقطف الازهار ويجني الاثمار المتألثة على

الافنان كالاغاني الروحية • انه يخرج جذلا ويكاد من فرط الفرح ان يتمرغ على العشب ، عندما يخترق اول شعاع من نور الربيع ضلوعه ، ويضج الدم الفتى في عروقه ، حين يتأمل الدوالي وقد اينعت من جديد ، والسماء وقد عادت جميلة كالملاك ، والاثير والريح وهما يتحدان متعانقين • ان الحياة مليئة ، عادة بالضجر والازعاج • لكنه الآن يتخلى عن همومه ويود ان يربط عجلته بدولاب الصيف السعيد الحظ، متناسيا وحدته وتقافته لكي يغني في الطبيعة وجدا وهياما • انه يحسد الرعاة الذين يغارون لا شك من اهل المدن ، ولا يلقون على الريف تلك النظرة الشاعرية التي يخصه بها رامبو • انه يعشق دورة الفصول ، ويستسلم لسحرها الاخاذ بكل كيانه منتظرا منها وحدها ان تقدم له الخلاص ، وتروي كل ظمئه • وتشبع كل جوعه ، فلا خدعة من هذا العالم تنطلي عليه • في مثل هذه اللحظات المباركة يصبح المرء مهيا لقبول الحياة كما هي ، والرضى بكل امور هذه الدنيا • لكن رامبو يرفض ذلك ، ويريد ان يسلك درب الحرية مهما اعترضه من عقبات ولاقاه على جنباتها من حظ عاثر وعذاب مرير • انه يصر على المضي في مغامرته الهوجاء الى آخر الرحلة مهما كان الثمن • الحرية لعنة لكنه يباركها ، وعيب مرهق يتحملة عن طيب خاطر • انها قدره وقسمته ، ولن يتخلى عنها مهما بلغت التضحيات •

ولقد عبر رامبو عن احساساته لدى عودة الربيع نبي اولى « الاشراقات » « بعد الطوفان » : ما ان عاد الربيع

وانتهى طوفان المطر ، حتى بعث الحيوان والنبات من هجعتة الطويلة ، وهب نافضا عنه وسن الشتاء وخيوط العنكبوت التي نسجتها حوله الطبيعة خلال شهور مديدة • وراحت ابحار كريمة تسفر عن كنوزها المكنونة ، وورود مبرعمة تتفتح وتتطلع حولها بدهشة وفضول • وفي الشارع الملطخ ببقايا الامطار والوحول والثلوج الذائبة ، ها هم ينصبون اخواخ البيع ، وها هم ينزلون النقوارب الى البحر العالي الموج الهادئ اخيرا بعد طول اصطخاب بخفة وجمال ، وكأنهم رسوم اشخاص في صورة مسحورة • المياغي ، المسالخ ، اماكن اللهو ، تضج بالحركة والحيوية • فاشعة الشمس تبث دما نضرا في العروق وتهيج الغرائز • بينما تغادر الحيوانات جحورها ، وتتراكم فناجين القهوة وكؤوس الكحول في المقاهي • وفي البيت ، الذي ما امحت بعد آثار خيوط المطر عن زجاجة ، ها ان الاولاد يخلعون عنهم ثياب الكابة التي كانوا متشحين بها ، ويتأملون بانخطاف وفرح المشاهد القاتنة التي تتوالى امام ناظرهم • الابواب تصفق • الناس تخرج • القبضات تلوح ، تحت زخة الربيع الفجائية ، باتجاه دوارات الطقس وتمائيل الديكة على الابراج التي تسجل سرعة تيار الريح ، مطالبة بالصحو • ويرق الهواء عازفا الحانه برفق وهدوء مبشرا بالربيع موعد الفصح والعنصرة ، حين ترتدي الطبيعة العذراء ثوب العفاف والطهارة ، وتحيي على مذابحها الف قداس للجمال ، حين تستيقظ في الانسان روح المغامرة والرغبة في السفر ،

والقابلية اللامتناهية على الدهشة ، وحين يطلع القمر على
ايقاع عواء الثعالب السارحة في براري الصعتر ، ويغني
الرعاة اناشيد السعادة في المروج المزهرة ، ويتضوع البنفسج
في الحدائق المبرعمة ، حيث تعلن النعمة والسحر عن حلول
موسم الدفء والخير . لكن بعد الفرحة الاولى بقدم الربيع
يسود الضجر والتعاسة ثانية ، وتأخذ الارض بالانغلاق على
اسرارها والانكفاء على ذاتها كما من قبل ، حتى ليتمنى رامبو
لو تعود المياه الى التفجر في البرك والزيد الى التعالي فوق
الجسر والضباب الى الصعود فوق الغابات والبرق والرعد
الى الوميض . ولو يغمر الطوفان العالم من جديد .

لقد كتب رامبو الى اهله من عدن يتمنى لهم صيفا طويلا
يدوم خمسين عاما ، ويهنئهم لانهم حصلوا على صيف جميل
هو بمثابة تعويض عن قساوة الشتاء ، وهو يصف في
احدى فقرات « جمل » في « الاشراقات » يوما في عز تموز
لكن سماءه مع ذلك عابسة ملبدة بالغيوم ، وجوه كالح
مكفهر ، وهواءه مشبع بطعم الرماد . حتى لتنبعث رائحة
الحطب من المدفأة التي اضطروا بسبب رداءة الطقس غير
المنتظر ، الى استعمالها في غير اوانها . وحتى لتتعطل
النزهات في الهواء الطلق ، وتبتلل الورود بالمطر ، الذي
يسمع خرير خيوطه الرقيقة النادرة في اقنية الحقول . لم
يعد ينقص الا الهدايا وضوح البخور كي نشعر بانفسنا في
عيد الميلاد ورأس السنة اي في قلب الشتاء .

في آخر « فصل في الجحيم » يتساءل رامبو : ها هو

الخريف قد حل منذ الآن • لكن لماذا عساه يأسف يا ترى
على اقول الشمس ، وانصرام ايام الصحو طالما انه قد نذر
نفسه لكتابة الشعر ، واكتشاف شعاع سماوي يغنيه عن نور
الارض • وطالما انه قد انسحب من العالم الواقعي وحياة
البشر العاديين ، الذين يفرحون ويحزنون على حلول وانقضاء
الفصول ؟ ويجب بأن مرد ذلك هو ان الخريف يعني بالنسبة
له موسم الشقاء • انه قارب يشق الضباب متجها نحو مرفأ
البؤس ، تلك المدينة الكبيرة ذات السماء الملطخة بالنار
والوحل ، تلك الحشرة مصاصة الدم التي تتغذى بقطرات
ملايين البشر ، وتميتهم لكي لا تلبث ان تنصب نفسها ديانا
عليهم • ان الخريف يذكره بالاسمال البالية ، بفتاات الخبز
اليابسة المبللة بالماء،بالسكر والعريضة،بمغامرات الحب المشينة
المثيرة للقرف التي تترك في داخله جروحا لا تندمل • انه
يستثير في باله صورا عن تشرده قدرا مريضا ، وعن
تعاسته وغريته الوحشة • لكنه يكره الشتاء ايضا لانه فصل
الرخاء والرفاهية على حد قوله • وما عرفه من السعادة في
هذه الحياة يقتصر على بعض التماعات خاطفة ، واشراقات
مفاجئة قد تنتج عن رؤيته لبعض قطع من الغيوم البيضاء
تسبح في زرقة السماء الصافية ، او ذوابات الفجر تشع
بالوانها الباهرة المتعددة في الريح الهادئة • في مثل هذه
اللحظات كان يمتلىء بالحماس اللانهائي ويفيض قلبه بالشعر،
وتملكه قدرة على الخلق فائقة للطبيعة •

اذا كان رامبو حساسا جدا كما راينا لدورة الفصول ،

فانه لا يقل تأثرا بايام الاسبوع . فها هو في قصيدة من « الاشراقات » « صبا - ١ - الاحد » يصف حالته النفسية ذات نهار احد راح يحاول فيه عبثا ارغام ذاته على العمل وكد الذهن وبذل المجهود . ثمة جو من الضجر والكآبة والوجوم يسود غرفته ، وفيض من الذكريات يتدافع الى رأسه ، فيتحسر على فترة الطفولة والصبا الباكر ، حين كان الالهام يستجيب له بعفوية ودون عناء ، حين كانت ملكاته الابداعية يقظة مشحونة الى اقصى درجة . اما حاليا ، اما في يوم الاحد هذا ، اما وسط هذا العالم الآلي الحديث ، الذي غيرت الصناعة معاله ، واخترقه « الطاحون الفحامي » من طرف الى طرف ، وراحت وسائل المواصلات تشق طريقها عبر كثافة مدينته ، فليس امامه سوى الفراغ والوحشة ، سوى الاسى والوحدة . حتى ليترق من اعماق انسحاقه ويأسه القاتل الى انفجار ، الى كارثة تنقذه من وضعه الأسن ، الى سكرة من كحول قوية تنسيه بؤس حاله ، الى صدمة ، الى جريمة ، الى جرح عميق يخرج من الفتور والبلادة والموت الروحي . لكانه طفل متشرد مقطوع في هذه الدنيا ، عاجز عن الكفاح في معتركها ، وتحصيل حقوقه وسط ذئاب غابتها المفترسة ، يخنق عن قهر وتخاذل التجاديف واللعنات التي تتعالى الى شفاهه ، ويهيم وحده على درب الحياة الوعر ، وفي ليلها الحالك الحزين . لكن يجب عليه ان يواصل الدأب ، ويواظب على كتابة الشعر ، رغم البضجة الصاخبة العدائية الصادرة عن العالم الخارجي ، والتي تحاول ان تخلق فيه كل تطلع روحي ، كل طموح فكري ، وكل عاطفة جمالية .

كما ان رامبو يملك حساسية مرهفة تجاه ساعات النهار . وهو يصف لصديقه وابن منطقته ارنست دلاهاي جمال الاستيقاظ عند الفجر في باريس ، حين تزقزق العصافير على الاشجار ، وتظهر عنابر المدرسة الصامتة امامه ، وتدوي طرطقة العجلات الاولى على الطريق . ان شروق الشمس غبطة خاطفة لا تدوم اطول من صياح الديك ، تلقي اثناءها زقزقة العصافير ليل الاجتهاد والعمل في غياهب الماضي ، وتفسح المجال لآفاق المستقبل ، حيث يستطيع اي احتمال ان يحدث ، وتزول خلالها استمرارية الديمومة لتخلي الساحة لحظة تجل عن الوصف ، وتشبه الابدية ، تصالح الانا مع العالم في نوع من الوجود المشترك ، وتخلق فينا رغبة تصبو الى الغد ، وراحة قلب يغمره الآن الحالي بكل ما يريد . انها موعد ساحر لا يعبر عنه ، كان رامبو يؤخذ به دائما ، وهو يكتب لمراسله من العاصمة الفرنسية قائلا :

— « ٠٠٠ ان اول فجر في الصيف ، واماسي كانون الاول . هذا هو ما سحرني دائما هنا ٠٠٠ »

انه يعطي افضلية لهذين الوقتين المتناقضين من السنة . لكن الفترة من النهار الاثيرة عنده هي الفجر ، لانها لحظة البداية المطلقة ، والولادة الجديدة . انها مرحلة انتقالية حائرة بين الليل الذي انتهى ، والنهار الذي لم يأخذ مجراه بعد ، تفجر في النفس شعورا بالفرح والقوة ، بالوجود والامتلاء . انها نقطة اتصال ونقطة انقطاع في ذات الحين . ان سر عذوبتها ونضارتها هو انها عهد من النسيان التام .

ورامبو لا يمل من وصفها في قصائده • فهي راقصة ستتلاشى مع الاشعة الاولى كالورود السريعة العطب، وستخلي الساحة امام الاتساع الرائع للمدينة المزدهرة التي نحس بلهاثها ، وهي حدث جميل جليل ومفيد في آن معا ، اذ انها شرارة ضرورية لانبثاق الحياة ، والشروع في مباشرة اي نشاط ، انها ومضة من الطهر تمحو كل اثام الليل •

ان الفجر هو موضوع قصيدة « فكر الصباح الطيبة » حيث يصف رامبو الساعة الرابعة من بعد منتصف ليل الصيف ، فيما لا يكون العشاق قد استيقظوا بعد من ليلة الغرام ، وفيما يكون البناؤون بقمصانهم التحتانية مبادرين الى التوجه نحو مركز عملهم بكل نشاط وحيوية تحت الشفق المخرج بالدم • انهم يشيدون المستقبل الجديد بسواعدهم القوية ، انهم يرصفون حجارة مدينة الغد بزئودهم المفتولة • انهم يشقون ويكدون كعبيد ملك بابلي • بينما لا يزال الآخرون يغطون بالنوم • وان رامبو ليتعاطف مع هؤلاء الكادحين في هذه الساعة الفجرية التي يكون فيها القلب منفتحا لمحبة الجميع ، ويحلم لهم بماء زلال يروي عطشهم ، ويبجر هادئ يتبردون فيه ويفسلون عرقهم عند الظهيرة ، ويتمنى ان لا تكون الحياة ظالمة معهم اكثر مما ينبغي ، فتأخذ من المترفين السعداء ، اصحاب الامتيازات ، وتعطيهم هم المحرومين •

كما ان « فجر » هو عنوان احدى اجمل قصائد « الاشراقات » ، حيث يقول رامبو :

— « لقد عانقت فجر الصيف ٠٠٠ »

نعم لقد تذوق رامبو كثيرا جمال الصباحات المشرقة ،
حين كان يستيقظ باكرا ، فيجد ، في هذه اللحظة المسحورة ،
ان البيوت هي قصور نائمة لا تصدر عنها اية نائمة او حركة ،
ان جمود الموت يخيم على المياه ، وان فرق الظلال لا تزال
تحتل طريق الغاية • عندئذ كان يمشي جذلا ، متنشقا بعذوبة
طراوة الهواء ، مستقبلا بنشوة هبات النسيم الناعمة على
وجهه ، ورفيف اجنحة الطيور التي تشق الفضاء باجنحتها ،
سايحة فوق رأسه بسكون ، ونفحات الالهام الذي يعثر
حوله على الف جوهرة وجوهرة تنظر اليه باغراء ، مقدمة له
نفسها ، لا تطلب منه سوى ان يمد يده ليلتقطها ، ويتلقى
عطية الشعر وهبة القول • ففي الدرب العابق بالنور الباهر
المنعش ها ان :

— « ٠٠٠ زهرة تقول لي اسمها ٠٠٠ »

ففي هذه الهنيئة المباركة تنفلق امام عين الشاعر
القشرة التي كانت تحجب عنه جوهر الاشياء ، التي تكشف له
عن سرها ، وتمنحه حقيقتها متعرية امامه ، فتروح الكلمات
تتصاعد الى شفاهه مسمية الاشياء كما هي في حقيقتها •
انه يرحب بكل ما يقع بصره عليه ، ويهلل له ، ويجد فيه
مادة صالحة لقصيدة • واذ تسرب اشعة الفجر من خلال
اشجار الصنوبر ، التي تبرز الشمس من وراء قممها الفضية ،
يروح الشاعر يرفع الحجب عن وجه الجمال نقابا نقابا ،

مجذفا بيديه في الممر من فرط النشوة والحماس ، مذيعا في السهل سر قدوم الشمس على الديك ، الذي يأخذ بالصياح مبشرا بوصول الملك وشروق عهده ، مطاردا القرص البازغ الذي يهرب امامه في المدينة ويختفي بين قباب الكنائس والمباني ، على ارضفة المرمر ، وفي اعلى الطلعة قرب اشجار الغار ، واخيرا يشهد الشاعر في الغابة تحقق الشروق الفعلي ، ويتلقى سطوع الاشعة المحيية التي يمتصها بكل جارحة من جوارحه ، يحتضنها ، يعانقها ، يضمها الى قلبه بوجد ، ولا يستيقظ من سكرته وحميته الا عندما يتجاوز النهار مرحلة الصباح .

فالظهيرة مرحلة انتقالية بين صحوة الفجر الذي دالت دولته ، وبين ضجر بعد الظهر الخالي من الامل . انها تعلن افول الوجه المسحور للحياة ، التي يتباطأ ايقاعها عندئذ ، ويتوقف عن الجريان .

وهو ذا رامبو في قصيدة اخرى من « الاشراقات » :
« اثار عجلات » يستوحي ايضا فجر الصيف : الاوراق تستيقظ مرتعشة ، البخار يتصاعد ، الضجة تتعالى في زاوية الحديقة ، خميلة البنفسج تعكس ظلها على الدرب ، الذي تترك عليه عجلات العربات اثار مرورها . انها نشوة ضافية ، واشراق روحية مباركة يخلل لرامبو اثناءها ان موكبها مسحورا يمز بعجائبه وغرائبه امامه هو قافلة السيرك المتجولة هذه التي تعبر على مقربة منه بعرباتها المحملة باشرعة وحيوانات من

الخشب المذهب ، بالواح واطارات مزخرفة ، السائرة كلها على ايقاع خبب عشرين حصانا مبقعا • فيتسارع تيار الحياة التي تفقد من ثقلتها ورسانتها ، من جهامتها وجديتها ، وتصبح مسرحية مسحورة تتوالى وسط جو مدهش ، وتعمر بمخلوقات زاهية منتعشة محاطة بهالة نورانية عجيبة ، جذيرة بالاعجاب والاجلال كشخصيات تاريخية وابطال اسطوريين يشتركون كلهم معا في عيد ريفي بهيج يتم في ضواحي المدينة • الاولاد والرجال من مهرجين وبهلوانيين وممثلين يركبون اغرب الدواب، واندر العربات المزدانة بالزهور كمركبات وهمية قديمة في قصص الخرافات مليئة باطفال يرتدون ملابسهم الاحتفالية ، بينما يتوج الريش رؤوس خيول استعراض زرقاء وسوداء تتهادى في مسيرة مهيبه •

وكما يحب رامبو فجر الصيف فانه يهوى ايضا في لياليه الجميلة ان يتنزه بين الحقول متحسسا بلذة نداوة الاعشاب تحت رجليه ، ورطوبة الهواء على بشرته ، ويهيم جدا بكل ما يراه ، ويمضي وحيدا كجواب آفاق ، سعيدا وكأنه برفقة امرأة • فالمحروم من غرام الانثى غالبا ما يملأ فراغ قلبه بعشق الطبيعة • كما ان الاشراقات تصف في مقطع من « جمل » الليل وهو يهبط قاحما بلون الحبر الصيني، ذاريا بهدوء مسحوقه الاسود على السهرة ، فيطفئ الشاعر قنديله ، ويرتمي على فراشه ويدخل مملكة الظلام ، حيث يرى فتيات احلامه ، واميرات خياله ، ويسرح في دنياوات مسحورة مدهشة •

نعم ان مركب رامبو السكران يحب العاصفة ، حين تلتحم البروق في السماء ، وتصطبغ امواج البحر وتثور مرغية مزبدة ، والمساء وهو يحل اخيرا ، والفجر الباعث على الحماس كسماء مملوءة باسراب الحمام . ولقد تذوق كل جمالات الطبيعة افضل من اي انسان آخر . فتأمل مبهورا الشمس وهي تغيب محاطة بهالة من الرهبة والخشوع ، صابغة الافق بالوانها الارجوانية ، مختفية بجلال كمثلي مأساة يسدل عليهم الستار ، مرتعشة بانعكساتها الاخيرة على صفحة المياه . كان قلبه مربوطا الى عجلة الفصول التي كان يراقب دورتها بلذة وشغف ، فيحلم ان يستيقظ ذات صباح فيجد الثلوج الباهرة قد كست العالم بوشاحها السحري ، وراحت تتهاوى بهدوء ، ينتظر عودة الربيع بشوق ، مصغيا بنشوة الى ديبب النسج اللامسموع الساري في بدن الارض ، ويستمتع بمشاهدة ارض الخريف بشحوبها الكالِح ، وسماء الصيف بزرققتها الصاقية .

ان رامبو مؤهل بحكم طبيعته الشاعرية البكر للعثور على الابدية في اللحظة ، على تلك الثغرة الصغيرة التي تحدث فجأة في الزمان ، وفي عالمنا اليومي ، فتجعلنا نتعالى بصورة خاطفة سريعة الزوال على ايقاع الوجود الرتيب ، ونستشرق اعلى القمم الصوفية ، وننتصل بالعالم الآخر . انه مرشح اكثر من سواه بفضل مزاجه الطفولي الطاهر البريء لان يعيش ذلك :

ـ « ٠٠٠ الحاضر الابددي ، على شكل دولاب ، كالشمس ،

وكالوجه البشري ، قبل ان تطليه الارض والسماء ، باذى ،
فيما هي تشده اليها ٠٠٠ ،

الذي عناه رنيه شار ٠

بهذا المعنى فان نشيد الفرح المسحور غالبا ما يتعالمى
من قلب رامبو الجذل السكران ٠ فكل انسان ، مهما كانت
حياته شقية يظل له حصة من الغبطة محفوظة على اسمه هي
قسمة ونصيب لا بد ان ينالها ، ولا مرد لها كالمقدر المحتوم ٠

عندما تحل نعمة السعادة على رامبو ، وهذا ما لم يكن
يتوقعه هو الملعون ساكن الجحيم ، يخيّل اليه ان المستقبل
سيكون مشرقا امامه ، وان ايامه القادمة لن تكون عبئا بغضضا
لا يحتمل ، ويرضى عن حياته الماضية التي يشعر بأنه لم
يرتكب الاثم والشر خلالها ٠ ويتحرر من الندم وينسى
الاضطرابات النفسية التي عانى منها في السابق ، حين كانت
ابواب روحه التي يسهر تائب الضمير على فتحاتها كشماع
جنائزية موصدة في وجه الخير ٠ فكأنه ما عرف قط
مصير ابن العائلة الضال الميت قبل او انه والمدفون في
تابوت مغطى بالدموع ٠ نعم الخطايا التي ارتكبها بالامس
بشعة ويجب ان يرمي القذارات جانبا ٠ لكنه في هذه
اللحظة يشعر ان هناك شيئا آخر غير الالم والخيبة والمرارة ٠
فهل عاد طفلا يلعب في فردوس الغفلة والبراءة بنجوة من
كل الهموم والمشاكل والعذابات ٠

ايقاع الحياة ، التي تغدق عليه وعودها البراقة بسخاء،

يجري بسرعة فتمتد امام ناظريه امكانات مدهشة ، حتى
ليقتنع بأن الانغماس في شؤون الواقع المادي تفاهة وابتذال .
وان تلك الحالة من الوجد الفائقة للطبيعة والغبطة الالهية
وحدها التي تحمل لنا مفاتيح المعرفة ، وتتيح لنا ان نرى
الجمال والخير في الكون ، الذي يتراءى لنا مقبولا طيبا ، وان
نودع ضلالات واوهام واغلاط البارحة . ان هذا الانخطاف
الروحي المهنوء هو قارب الخلاص الذي يجذف فيه الملائكة
منشدين اعذب الاغاني ، حيث يغمر رامبو حب لا نهائي
نحو جميع البشر ، فيتمنى ان يفتديهم وينقذهم ، ويرفض ان
ينجو وحده بينما يتخبطون هم غارقين في اللجة . انه يريد
ان يشاركوه مصيره وان يقاسمهم الخطوة التي نالها ، الآن
وقد تنزه عن الاغراض والغايات الانانية الضيقة ، وراح
يبارك الحياة ، ويحب القدر الذي يمدده بالقوة ، الان وقد
تحرر من الضجر والغضب ، من الرذيلة والجنون والكوارث ،
وارخى كل حملة القديم ، وعاد الى حالة البراءة والطهارة
المفقودة . لكنه لا يذهب مع القديسين والمتصوفين الى ان هذه
الغبطة الفائقة للطبيعة ، وهذه النعمة الاسرة هي دليل اتحاد
مع الله . ان رامبو يطلب خلاصا فرديا حرا مجردا من اي
مدلول ديني ، يتحقق هنا والآن ، دونما مساعدة من اي قوة
عليها . اذ انه لا يحتقر الارض ، التي لسنا بحاجة الى
التسامي فوق واقعها ، والامعان في العاطفية والماورائية
لبلوغ النعمة :

« ... اني احتفظ بمكاني على قمة هذا السلم الملائكي
للحس السليم ... » :

ان نسمة هواء ناعمة تهب على بشرة رامبو كانت تكفي
احيانا لابتعاث نشوته ، فيخفق شراع مركبه السكران بالامل ،
وتنتب له اجنحة للطيران ، ويتهادى ، على درب هذه المتعة
الروحية التي لا تحتاج الى اكثر من اريج زهرة ، مرنح
الاعطاف ، ثملا دون ان يكون قد ارتشف قطرة واحدة من
الخمير . اما اذا ما سئم من الحياة وتكاليها فان السفر
والتشرد على الطرقات ، وهو عزائه الاول وخلاصه الاكيد ،
كان يقدم له مفاجات سارة تغمره بالفرح فيظل للحظات ذاهلا ،
مخطوفا عن الواقع كأمرأة راكعة على الارض ، مستسلمة
لتيار الغبطة الساري في كيانها .

فالابدية ليست قائمة فيما وراء هذا العالم ، بل هي
موجودة ضمن نقطة محددة من محيطه ، وفي لحظة معينة من
تاريخه ، نستطيع استعادتها ودخول رحابها فعليا اثناء رحلة
عمرنا على هذه الارض ، وذلك خلال بعض اشراقات مباركة
قد تنتج احيانا عن اتفه الاسباب : عن تأمل منظر طبيعي
جميل : البحر ، الشمس . او عن التجول في الهواء الطلق ،
والشروود بين احضان الطبيعة ، حين تستيقظ الروح الخالدة
الهاجعة في اعماق كل منا ، وتؤكد نفسها ، متغلبة على تيار
الفناء ، كاشحة حجب الظلام ، مطفئة نيران الجحيم التي
نتلظى بها عادة متحررة من حروف الايام والليالي ، منعقة
من كل الاعباء والاثقال والضغوط والهموم البشرية ، متخففة
من كل النواهي والواجبات والشرائع والقوانين لتطير وتحلق
«الليقة من كل قيد . وعندما نعبث الى نطاق الابدية نشعر

بالامتلاء والاكتفاء والحصول على كل مطالبنا • هنا لا
ماض نتحسر عليه او نتذكره ، ولا مستقبل ننتظره ونهفو
اليه • لا التقات الى الوراء ، ولا تطلع الى الامام • فتوزع
الانسان بين الامس والغد هو مصدر شقائه وعذابه • اما في
الابدية التي هي غاية ذاتها ولا تحتاج الى اي عنصر خارجي
غريب عنها ، فانه لا يوجد الا الحضور الدائم والتجرد من
كل الرغبات والاماني •

عندما تسمع انا الفرح في رامبو صوتها تخرس كل
التساؤلات والشكوك التي لا ينتج عنها الا الدوار ، ويستسلم
لتيار الحياة السهل المرح المتفجر بالحماس كأغنية عذبة
تجسد الغبطة وتجعلها مرئية بالعين المجردة • نعم العالم
ملئ بالنقص والعيب ولكنه يحتوي على بعض لحظات غنية من
الغفلة والصفاء مسروقة من العمر منزهة عن الدوام ، نفلت
خلالها من قبضة الفناء ، ونتحرر من الزمان ونعيش الناحية
الروحية الملائكية من كياننا ، يجب ان ندعن لها حين نحظى
بها وننعم بخيراتها ، متناسين كل نقص وعيب • كل شر
وقلة حظ • نعم من بين الانوات العديدة المختلفة التي تتكون
منها نفسية الانسان يوجد انا فرح تسكره بخمرة المجد دون
أن تصيبه بالدوار •

تعلن قصيدة « رحيل » في « الاشراقات » : كل المشاهد
متشابهة قبلناها في كل مكان ، كل الاصوات متماثلة
سمعناها هي من الصباح الى المساء ودائما وابدا •
كل الاحداث مترادفة • كل الاحكام على نمط واحد ومعروفة

سلفا • يجب تحطيم رقابة الحياة ، يجب ان نعيش عمرنا
بوجد وحماس ، ونبحث عن الجدة والطرافة ، عن الاثارة
والمفاجأة •

اما في الاشراق « الى عقل » فان رامبو يؤكد ان لحظة
اشراق واحدة تكفي كي « تفجر كل الوان السعادة ، وتحل
الانسجام الكوني ، وتخلق فينا انسانا جديدا يسير الى
الامام بخطى واثقة تجيش بالعزيمة والامل • وفي لحظة
الابدية هذه تغمرنا المحبة الشاملة نحو كل انسان ، فحيثما
تلفتنا وجدنا موضوعا جديدا لوحينا • وعندئذ نناشد ،
ياندفاع طفولي ، الغبطة التي تغمرنا من كل جهة ان تغير
قدرنا وعجلة حظنا ، وان تقضي على كل آفاتنا وأوبئتنا
واولها عبء الزمان ، ونرجوها ان تسمو بمادة احلامنا
ورغباتنا وتمنياتنا ، وترتفع بمصيرنا الى اعلى درجات
الرقى » لانها قدرة فائقة للطبيعة ابدية ولا متناهية :

— « ••• قادمة من كل زمان وستذهب الى كل
مكان ••• » •

بينما يصرح رامبو في قصيدة « متوحش » في
« الاشراقات » بانه قد بلغ درجة من الغبطة تضعه خارج
الزمان والمكان • قلبه يضج بالدم الحار ، ويصبح زورقا
سكرانا يسبح فوق البحور الهادئة كالحرير ، عابرا الجزر
المسحورة التي يعمرها خياله بجنائن الورد المدهشة • ولقد
نجي من نوبات البطولة الزائفة التي لا يزال صداها يترجع

في باله ايضا ، والتي كان يمر بها بفعل المخدر ، الذي تخلص من سلطانه ، جمرات متأججة في فؤاده تطفئ جليده السابق ، وتملؤه الى الابد بالدفء الانساني ، فيروح يقذف خيراته وكنوزه الى الخارج ، حيث يصبح بكل ما تقع عينه عليه جوهرة ثمينة ، ويكتشف ، بعيدا عن الاحقاد والاطماع القديمة ، جمالات الكون وانسجام الوجود وحرارته ، التي تثير حماسه كذوبان الجليد لدى ارتطامه بالكواكب ، يا للعدوبة والسحر ! الاشكال تتلاشى ، التعب يزول ، المظاهر تختفي ، والعيون تنفذ الى الجوهر ، وتأخذ النفس موجة من الحنان ، حتى لتكاد تبكي من فرط النشوة ، وزخم الحب البشري الذي يغمرها من كل جهة .

ثم يقول رامبو في قصيدة « قلق » من « الاشراقات » :
ان لحظة من الفرح تنسينا كل خيبات الامل ، كل الاحلام المجهضة ، وكل الرغبات المخنوقة في مهدها . ان ربحا قصيرا من الرخاء المادي يغتفر كل فترات الفقر والبؤس التي عانينا منها سابقا . ان نجاحا صغيرا يعوض علينا كل اخفاقاتنا القديمة ، وكل ما كنا نشكو منه في الماضي من فشل وعار ، من قلة مهارة وانعدام كفاءة فطرية . ان الغبطة هي جوهرة غالية ، هي نصر مبين ، هي الحب والقوة . انها اشراقة روحية وانخطافة عميقة تتجاوز كل حالات الفرح التي سبق لنا ان عرفناها في اي مكان وفي اي حين . انها طاقة الالهة شيطانية تستولي علينا ، تجدد نضارتنا وشبابنا وحيويتنا ، وتبعث الطفل الهاجع في اعماقنا من

رقاذه • ان المحبة الشاملة التي تعترى النفس ابان لحظة
 الغبطة هي الحافز الى مشاعر التآلف بين الشعوب والتعاطف
 بين البشر التي تنادي بها المذاهب السياسية ذات النزعة
 الانسانية • ان العالم المسحور الزاخر بالفضول والايمان ،
 بالعجائب والمعجزات ، العامر بروح الدهشة والحماس
 والمغامرة الذي تقودنا اليه اشراقة الفرح ، هو الدافع الى
 الكشف العلمي ، وغريزة الاختراع والابتداع والبحث عن
 الجديد • ان واقع الغبطة يشبه الحالة المهنوءة التي عشناها
 في العهد السعيد الغابر ، الذي امضيناه في فردوس الطفولة
 المفقود • ولعلنا انما نحب الدعوات السياسية الى التآخي
 والمساواة والاكتشافات العلمية لانها تعيدنا الى براءة العمر
 الاول • لكن دودة الفناء التي تنخر عظامنا دون كلل ،
 ومصاصة الدماء التي تستنزف عمرنا دون انقطاع ،
 وهاوية العدم التي نحملها في قرارة نفوسنا ، والتي هي
 مبعث قلق وخوف دائم لنا ، تجعلنا مهيضي الجناح ، خافتي
 الصوت ، مهذبين ، سلسي القياد ، نذعن لكل امر ونرضى
 بكل شيء • لاننا نعرف اننا ضعاف لا نملك القدرة على
 الرفض وعلى فرض ارادتنا • ونقبل بالمتع القليلة المتاحة
 لنا في اوقات الهدنة القصيرة لانه ما في اليد حيلة ، ولاننا
 باعراضنا عنها لا نفعل سوى ان نزيد حالتنا بؤسا وتعقيدا
 وموقفنا صعوبة واحراجا • فاما ان نلتقط هذه الفضلات
 القليلة التي يتركها لنا صراعنا مع الفناء ، واما ان نحرم
 نفسنا من كل متعة فنجتز اوجاعنا وعذاباتنا في جو من
 الملل والرتابة ، ووسط صمت ولامبالاة العالم العدائي

الظالم ، حيث حتى الامنا تهزأ بنا ، وتشمست بصراخنا
وأنيننا ، الذي تقابله ببرودها الوحشي الخفيف ، المتوالي
دائما على وتيرة واحدة •

وهكذا نجد ان الامل لم يمت في قلب رامبو رغم شقائه
وحياته المجدية ، وانه سيظل دائما يستيقظ بعد ليل طويل
ومظلم ليستقبل الفجر بعينين طاфحتين بالبشر :

— « ٠٠٠ لقد مددت حبالا من قبة جرس الى قبة
جرس ، عقود زهر من شبك الى شبك ، سلاسل ذهب من
نجمة الى نجمة ، ورحت ارقص ٠٠٠ »

وهو يحلم بعالم بكر ، وبعث جديد للانسانية ، باسلوب
حديث في العمل ، ومنهاج طريف في العيش ، بزوال الطغاة
والجلادين ، وطرد الابالسة والخرافات القديمة ، وبعهد من
الخير والبركة والخلاص للجميع سيكون هو اول المرحبين
به ، والمبشرين بقدومه ، والمهللين لتحقيق وعود السماء على
الارض وتقدم الشعوب وانعتاقها من عبودياتها وبؤسها
وشتى انواع المظالم والمفاسد • وهو لئن كان من العبيد ،
من المحرومين والمُعذبين في الارض ، فانه لن يلعن الحياة :

— « ٠٠٠ وفي الفجر ، مسلحين بصبر متأجج ،
سندخل الى المدن الرائعة ٠٠٠ »

اما في اخر قصيدة من « الاشراقات » وعنوانها
« عبقرية » فان رامبو يضعنا امام حالة من الانخفاف الروحي

العميق ، والغبطة الخارقة للطبيعة التي لا يمر بها سوى كبار القديسين والمتصوفين . انه لا يصف تجربته هذه على انها اتصال بالله (الذي قد لا يكون مؤمنا بوجوده) لكنه يصف لحظة الابدية تلك الفرصة النادرة التي نحقق اثناءها الانفصال عن جسدنا وننحاز الى ذلك الجانب الروحي من كيانتنا . تلك النعمة المباركة التي تحل على المختارين فيكتشفون ان ملكوت السماء موجود في داخلهم ، وانهم يستطيعون الاتحاد بالله هنا على هذه الارض . لقد اشرف النور الرياني على قلب رامبو كما لم يسطع الا في احشاء الاصفياء والبررة ، ولقد اجاد تصوير هذا الضياء ونقل اشعته السنية الى الآخرين ، وعكس وهجه الخارق على مرآة نفسه كما لم يفعل سوى الانبياء والمرسلون . لكن هل ادرك يا ترى ان هذا الموميض صادر عن الله ، وان هذه الحديقة المسحورة التي اتيح له التنزه في رحابها هي الجنة وقد فتحت ابوابها في وجهه ؟ ان الحيرة التي تنتابنا حيال هذا الامر تجعلنا نعي ما عناء كلوديل عندما نعت رامبو بانه :

— « ٠٠٠ متصوف في حالة التوحش ٠٠٠ »

وبانه نبي حل عليه الروح ، وطفل بريء ومرعب ، معهود اليه فجأة برسالة سامية لا يفقه حرفا واحدا من نصها ، وينبوع من الوحي الديني ضائع في ارض مجدبة ، رافض الاستجابة لنداء الله ، والتعرف الى المراسيل التي توجهها له السماء . لكن هذا الصوت الذي تصامم عنه

رامبو واكتفى بنقل بعض نغمات منه الى شعره اثر على سمع
شخص كبير كلوديل كانت اذنه حساسة ومهيأة للاصغاء
اليه ، ومن هنا نفهم ان يكون الاول هو الذي قاد الثاني الى
الايمان بالله .

— « ٠٠٠ اني مدين لرامبو بارتدادى الى الدين ٠٠٠ »

فلقد صرح كلوديل بان فجر عودته الى الحظيرة
المسيحية يبدأ مع اكتشافه لهذا الشاعر المعون . وكان ذلك
في ايار من عام ١٨٨٦ في حديقة اللكسمبورغ ، حيث دخل
ليتصفح مجلة كان قد اشتراها هي « لافوغ » (La Vogue)
التي باشرت بايعاز من فرلين بنشر القسم الاول من
« الاشراقات » على غير علم من مؤلفها الذي كان حينذاك في
الحبشة . ولقد كانت هذه القصائد بالفعل اشراقات بالنسبة
لكلوديل ، فتغيرت حياته كلية بفضل هذه المقتطفات القليلة
التي ظهرت في هذه المجلة الصغيرة ، التي كانت كافية
لتقويض اركان كل الجهاز الفلسفي الذي كان يشيد عليه
حياته الفكرية حتى ذلك الوقت ، والتي كشفت له ان الفائق
للطبيعة هو المرافق الدائم للطبيعة ، حتى لقد بعث في ٢٦
تموز عام ١٨٩٧ برسالة الى مالارمي جاء فيها :

— « ٠٠٠ منذ الهزة العنيفة الاصلية التي اصابتني لدى
تسلمي مجلة « لافوغ » حيث قرأت ، لأول مرة ،
« الاشراقات » استطيع ان اقول اني مدين لرامبو بكل ما انا
اياه فكريا وخلقيا ، ويوجد ، فيما اعتقد شواهد قليلة على
مثل هذا الزواج المتين بين روحين ٠٠٠ »

كما انه يقول في رسالة اخرى بعث بها الى باتيرون
بيريشون صهر رامبو :

« ٠٠٠ هناك كتاب اخرون قد علموني ، لكن ارثور
رامبو وحده بناني ٠٠٠ »

وهكذا مع ان مؤلف « الاشراقات » يدير ظهره لكل دين،
مع انه ليس متصوفا ، فانه يقودنا الى الايمان ، لانه يشير
لنا الى وجود عالم اخر غير هذا الذي نعيش فيه ، ويثير
حنينا اليه .

فكيف تصف لنا قصيدة « عبقرية » تلك الغبطة الخارقة
للطبيعة : انها حالة من الوجد ، والحاضر الخالص . انها
آن ابدى متحرر من معايير الزمن ، يتطهر خلاله كل شيء ،
ويستعيد نكهته وعذوبته ، ويبدو ممتعا ولذيذا . الرحيل يتراءى
لنا جميلا والبقاء كذلك . انها نعمة خارقة يحصل علينا
اثناءها الامل والقوة والحب ، وتبرق كالشهاب الملتمع في
سمائنا ، حيث تخفق فجأة بيارق الغبطة ، التي نتوق اليها من
اعماق وضعنا العادي المثير للغضب والازعاج ، وواقعنا
المؤسف الغارق في الالم والمرارة التي هي نصيبنا المألوف من
الحياة . انها المحبة وقد اعيد خلقها من جديد . لاحب شخص
بالذات ، او امر محدد ، بل التعاطف مع كافة البشر
بالتساوي ، بصورة شاملة كاملة مدهشة ، لا تستثني احدا ،
ولم يسبق لنا ان شعرنا بها ، تفتح قلبها للجميع ، وحتى
لاولئك الذين لم نكن نتوقع ان نشرع لهم ابوابنا في يوم من
الايام . فالمرء :

— «... لا يستطيع وهو يخرج من الطفولة ان يخلق
قريبه الى ما لانهاية ...»

كما يقول رينه شار . انها الابدية هبة القدر المقدسة ،
واعز مطلب للانسان . انها جوهر غالية . نحرص عليها
اشد الحرص ، ونخاف على فقدانها . لاننا اذا اضعناها
خسرنا ذاتنا وكل كنزنا في هذه الدنيا . انها دليل على
بلوغنا اعلى درجة من الوجود ، وهي بالتالي فرحتنا بتمتعنا
بالصحة ، ورسوخنا على ارض البقاء . انها تفجر كل
طاقاتنا الخلاقة ، وتخصب كل ملكاتنا الابداعية . اننا نتعلق
ونتمسك بها ، ونتعبد لها تماما مثلما انها تعشقنا بكل زخم
شغفها اللانهائي . حتى اذا ما غابت عنا رحنا نستدعيها
بكل جارحة من جوارحنا . لكن لئن ابتعدت عنا فان الوعد
بها يستمر بمداعبة وجداننا ، وتبشيرنا بانتهاء عهد الخرافات
والتعاسات القديمة ، وايقاعات الرتبة السابقة ، والايام
الشائكة الحالكة . انها اذ تهجرنا لا تغادرنا الى الخارج ،
واند تحل علينا لا تحط من اجواء غريبة بما انها كامنّة في
قرارة كل منا . انها لا تفتدي الامنا ونقصنا وخطايانا ولا
تعدنا بالثواب في الاخرة ، ولا تعلننا بفردوس قائم فيما وراء
هذا العالم . انها لا ترجى تقديم الجزاء والمكافأة لنا الى
ما بعد ، بل تمنحنا اياها فعليا ومباشرة ، وتعطينا السعادة
الموعودة والخلاص هنا والان . وهذه الهدية ليست شيئا اخر
سوى هي ذاتها ، سوى ان تهبط نفسها ، ان تكون ، وان
نحبها . ما اذ انقاسها . ما ادفا احضانها . ما اجمل

دروبها • فتحت تأثير فعلها السحري تكتسب كل حركاتنا
وافعالنا خفة ورشاقة وانسجاما ، وتتشح الاشكال الخارجية
بالرونق والبهاء • ونتجلى الامتلاء والاكتمال في كل مكان ،
ونرضى عن كل تصرفاتنا ، ونغتني بخصوبة روحية عميقة •
واذ يتراءى لنا الكون رحبا واسعا حافلا بالامكانات نحصل
على ذلك الانعتاق الذي طالما حلمنا به • وتحطم نعمة أسرة
الاصفاد التي كانت تكبلنا والسلاسل التي كانت تقيدنا • واذا
ثبت في اوصالنا قوة وحيوية ونشاطا جديدا ، تحررنا من
كل انواع الانذالات واصناف الابعاء والهموم الماضية ، وتزيل
كل العذابات التي كنا نعاني منها ، تخنقها ، وتكبت صوتها
وسط انغام معزوفتها السحرية •

ثم تحملنا على اجنحتها الى بلاد العجائب والغرائب ، الى
مناطق مجهولة لن يتاح لنا زيارتها على اقدامنا ، او بواسطة
اي من وسائل النقل الاخرى المباحة لنا في الظروف العادية،
مهما جمحت بنا الرغبة الى السفر ، وعصفت بشارعنا رياح
المغامرة • وعندما نستأثر بهذه الخطوة المباركة التي ترفعنا
عاليا فوق مستوى القطيع البشري ، وتميزنا عنه ، نصبح
معرضين لان نقع ضحية للكبرياء وفريسة للغرور • لكننا
لا ننزلق الى تلك الغطسة الانانية والتفرد عن الآخرين ،
والاستعلاء على من هم دوننا مقاما ، الذين لا نجافيههم او نبتعد
عنهم ، لا نأنف من مصافحتهم او ننفر من التعامل معهم •
بالعكس اننا نعطف عليهم ونشفق على رؤسهم ونحنو على
حقارتهم • اننا لا نستغل تفوقنا للحط من قدرهم واقامة حاجز

بيننا وبينهم • بل نندفع نحوهم لنساعدهم ، ونغدق عليهم من
العطايا التي هم محرومون منها ونؤاسيهم • اننا اشبه بملك
متواضع يتراف بالفقراء • ان هذه الغبطة الخارقة للعادة
تنشأ من هذا العالم الذي نعيش فيه ، حيث لا يوجد سوى
حالة من الالم تتجدد دون انقطاع اصنافا واللوانا • وبما ان
لكل فرد منا حصة في وليمة الفرح هذه التي هي قدر لا مرد
له ، فيجب ان لا نياس عندما يخيم علينا ظلام الليل ، وتعصف
من حولنا الانواء ، بل ان نعرف كيف ننتظر شروق النور ،
وعودة الهدوء • وكيف ندعو الخلاص ونسبج به ، فلا ندع
رؤيته تغيب عنا بل نظل مؤملين به في احلك لحظات العمر ،
في الاخطار والشدائد ، في التفاهة والضجر ، في مبادئ
الحياة اليومية ورتابتها المميتة ، في الذل والهوان • وان نلمح
صورته وراء قشور واعراض وامجاد هذه الدنيا الزائلة ،
تواقين دائما اليه ، متطلعين ابدا الى نجمته بنقاد صبر ،
تعبين سئمين من كل ما ليس هو ، متابعين طيفه باستمرار ،
ملاحقين دون انقطاع انفاسه وشمسه وطلاقة اجوائه الرائعة •

٦ - الرائي

« الشاعر هو الذي يرى ، وماذا يرى ؟ الفردوس !... »

أندريه جيد

الالهام شرارة لا يعرف الفنان متى تندلع في باله ،
وتفجر الطاقة الابداعية الثاوية في اعماقه ، فتقتصر مهمته
عند ذلك على مد يده لاغتراف الخيرات • لكن العالم لايساوي
شيئاً خارج نطاق الشعر ، الذي هو الحياة الحقيقية ، والذي
لا يتم الا في الابدية ، التي لا نرقى اليها الا نادرا ، وخلال
بعض ومضات خاطفة كالبرق يصعب علينا بعدها ان نعود
الى ايقاع الرتابة البطيء ، وفي الظلمات التي تعقب هذه
اللحظات المشرقة ، فان :

— « ٠٠٠ الزمن بين الفراغ المريع الذي يفرزه ، وبين
امل - احساس باطن لا ينبع الا منا ، وليس هو سوى الحالة
المقبلة من الشعر الاقصى ، والرؤيا التي تعلن عن نفسها ،
الزمن سيجزىء نفسه ، سينساب ، ولكن لصالحنا ، نصفه
بستان ، ونصفه صحراء ٠٠٠ »

على حد تعبير رينه شار •

ان قصيدة « سحر » في « الاشراقات » تعلن ان اللحظة الجمالية تضفي رونقا وبهاء على ساعات النهار ، وتبث فيها النبض ، فيجري النسخ في عروقها :

– « ٠٠٠ في الظلال العذراء والاشعة المهادنة في الصمت الكوكبي ٠٠٠ »

انها تزيد تعاقب الفصول روعة حتى لتتراءى لنا حرارة الصيف اشبه بـ :

– « ٠٠٠ عصفير خرساء ٠٠٠ »

توحي بالهدوء والسكينة النفسية . ويبدو لنا ان تراضي وخمول الطقس الدافئ هو قارب مائمي جليل يوعز بالهيبة والوقار ، ويثير في القلب موجات قديمة من الحب ، ويبعث ذكريات باهتة مية . ان اللحظة الجمالية قد تتولد عن الاحتكاك بالطبيعة : الشلالات والفيضانات ، الينابيع والانهار بهديرها ، الرياح بصفيرها ، الهواء الطلق بانفاسه الرحيمة ، الغابات بحفيف اوراقها ونداوة ظلالها ، الحيوانات المرجعة اصدااء اصواتها في الوديان . كما أنها قد تصدر عن روح الطفولة المفعمة بالحب والحنان ، الغنية بالتعاطف مع كل المخلوقات والاشياء ، والقابضة على احاطة الكون بهالة اسطورية مدهشة . ان قابليتنا على الاعجاب والحماس اثناء لحظة الابدية يفوق اضعاف المرات كل ما تستطيع الحياة ان تقدمه لنا ، سواء على صعيد ساعات النهار ، او توالي الفصول ، او سحر المناظر ، او فريدة الوقت . ان جو عنا

الى الجمال في مثل هذه الهنديات لا يستطيع قوت اشباعه
مهما بلغ من الندرة والقيمة ، لانه توق وعطش الى المطلق .

وفي الاشرقة « كائن الجمال » يقول رامبو : ان طيف
الجمال المهيب يطل علينا خلال لحظة استثنائية خاطفة ، تحل
فجأة كالثلج وتذوب بسرعة مثله ، تعصف به رياح الحياة
والموت فيظل متأرجحا بين هذين القطبين ، يرتفع وينخفض ،
ويهتز ويرتفع كشبح محبوب مهدد بالزوال في اي حين ،
بفعل بذرة الفناء المزروعة في جسده . ان الرؤيا الجمالية
تغير العالم من حولنا ، فاذا بالوانه الباهتة من قبل تصبح
نضرة زاهية واضحة المعالم ، واذا باشكاله ترقص امامنا
متحررة من ثقالتها المادية . ان رياح الدمار تصفر من كل
جهة محاولة تحطيم الجمال انا الرؤوم ، متضافرة مع امواج
البقاء والفناء الآتية وراعا من بعيد من العالم الذي هجرناه ،
في الاطاحة بها ، فتجفل ، تتراجع ، وتشرئب بعنفوان للصمود
بتحد وابطاء في وجه كل التهديدات . وكأن كونها عرضة
للزوال والاختفاء ليس الا ليزيدها بهاء واصراراً على
الاستمرار ، ويعلي من قيمتها في نظرنا ، ويجعلنا اكثر تعلقا
واحتفالا وقابلية على الاستمتاع بها ، فنتأملها بنشوة ،
لكأننا نولد ثانية ، وننظر الى الدنيا بعيون بكر ، فنعشق كل
ما نراه :

— « ١٠٠٠هـ ! ان عظامنا تكتسي بجسد عاشق

جديد . . . »

لكن الجمال سريع العطب ، ينقطع فجأة ويخبو اواره

كلمع السراب • وما أصعب حالة الموت التي نعيشها بعد زواله ، حين يذوب الثلج فنعود الى رتابة الحياة اليومية ، وإيقاع الدقائق البطيء •

بينما يؤكد رامبو في قصيدة « ملكية » في « الاشراقات » انه ، حين تستولي السكينة النفسية والهدوء الداخلي عليه فيحس بجلال وسمو روحه وروعة وجمال عالمه الباطن ويتوهم نفسه ملكا ، انه ، في لحظة مسحورة مباركة كهذه ، يهمل فرحا وحماسا ويهتز تأثرا وهو يكتشف ان الالهام يستجيب له أخيرا ، وان جهوده الفكرية قد اسفرت عن نتيجة واعطت أكلها ، واجتاز الامتحان بنجاح ، مبرهنا عن مقدرة وكفاءة • وعندئذ يعيش ذاته معجبا بها ، راضيا عنها ، ويغيب عن الوعي من فرط الغبطة • ان لحظة الالهام قصيرة جدا • لكنها مليئة وغنية بنوع ان الشاعر يخل اليه أثناءها انه قائد مظفر يدخل المدينة التي فتحها ، بينما الحشود المتزاحمة عن الجانبين تراشقه بالورود ، وتضفر أكاليل الغار حول جبينه •

ان الفنان يخترق قشرة الواقع الذي هو ألم وبشاعة الى الجمال والحقيقة الكامنة فيما وراء المظاهر الكاذبة • وهكذا يعيش في قلب الطبيعة مكتنها جوهرها ، منتشيا بالخمرة المديرة للرأس التي تسكبها له ، ذاهلا من هذا الفرح الخارق للعادة الذي تغدق عليه • اننا ننطلق من دنيا الحس الى دنيا الروح • ان أبسط الوقائع الارضية قد تكون احيانا الشرارة التي ننبثق منها الى أجواء السماء • ان الرؤيا الشعرية الابداعية تولد عن تدمير الواقع • انها ليست مجرد

حلم لامادي ، وليست وهما تبتكره الحاجة الى الهرب من الحقيقة ، وليست مهزلة تكفي اقل نسمة هواء كي تجعلها تتبخر . انها ارادة خلق .

وهكذا فان رامبو ، ضحية بشاعة هذا العالم الترابي الذي يسحقه ، يبحث عن الخصوبة المنشودة بان يفتح بابا على الجانب الآخر من كيانه ، على الناحية الروحية حيث يجد أشياء جديدة مدهشة ورائعة ، جديرة بالرؤية ومتحررة من كل تحليل وفساد مادي . من هنا ان رامبو اذا ما غامر في اصقاع ذاته فليس ذلك بغية الضياع عن الواقع ، بل سعيا الى فهم نفسه وسبر غورها . انه يريد ان يبنى بقوة خياله دنيا جديدة خالية من القبح والظلم ، من الالم والبغض تكون ملكه الخاص . وان ينسخ معطيات الحس داخل قلبه الى هبات روحية ، فتكون ثمرة هذا التحول قصيدة . ان مشاهدة ما لا يرى ، والاصغاء الى ما لا يسمع يتطلب طاقة فذة من غير معدن تلك الروح الميتة ، التي نستشرف بها الاشياء عادة . ان ألفريد دي موسيه :

— « . . . لم يحسن فعل شيء ، كان هناك رؤى خلف غلالة الستائر : لقد اغلق العينين . . . »

كما يعيب عليه رامبو ، الذي هو ، بحسب بول اليوار ، احد الفنانين الذين « يخلقون عيونا جديدة » . اذ انه لا يكفني بان يكشف لنا عن الاشياء الغريبة والطريفة ، انه يريد ايضا « أن يحرر حواسنا » . انه يجدد ليس فقط الصور،

بل وأيضا طريقتنا واسلوبنا في معاينتها ، انبه يغير حاسة الرؤية ذاتها • انه يدرب خياله على اكتشاف الرؤى الشعرية ، واقتناص الصور المجازية • انه ينظر الى الاشياء فلا يكتفي بتسجيل مظهرها الخارجي ، بل يخلق القشرة المسطحية ، وينفذ الى الجوهر حيث تكمن الاستعارة الفنية ، يمزق الغشاء الكثيف الذي تقيمه العادة والمنفعة بيننا وبين الاشياء ، التي يفجر منها بهذا الشكل امكانات غير معهوده ، ويكتشف لها نوعا من الطبيعة الثانية كانت محتجبة عن ابصارنا • وهذا مطابق لتقرير جاك ريفيير :

« ••• ان ننظر شيئا هو أن نراه ينفتح ، يغور ، يختفي أمام ما كان يخبئه » •

وهكذا فان عينا عادية ترى في هذا المبنى مصنعا • بينما يتجلى فيه بصر الشاعر ، عندما يطل عليه من كوة الفن ، مسجدا • وتترأى له الغيوم :

« ••• مدرسة من طبول صنعها ملائكة ••• »

أو

« ••• عربات على دروب السماء ••• »

اما عندما يحدق في قاع بحيرة ، حيث تنطبع الانعكاسات المسحورة ، فانه يشاهد غرفة استقبال • انه يعثر على العجائب والغرائب في كل مكان • وكل مادة تتحول تحت عينيه الدهشتين الى جوهرة فريدة • ان اقل مشهد ، ان اتقه

عنوان، ان أبسط حادث يصبح تحت نظرته الشاعرية غنيا مكتنفا بالأسرار المغرية ، يشكل حافزا لخياله الجموح ، فيمضي يشيد حوله التصورات المذهلة • انه يدرب نفسه على هذه الحالة من الهلوسة والهلذان ، وهذه القوضى الروحية التي يجدها مقدسة ، لانها وحدها المؤاتية للابداع الشعري •
فهي لحظة الرؤيا :

— « كل موضع يصبح مكانا لشيء آخر ••• »

كما يقول جاك ريفيير • وبهذا الاسلوب يندمج عنصران متضادان ببعضهما ، وينصهران معا لتكوين الصورة الشعرية • وهكذا يخيّل للشاعر في إحدى « الاشراقات » :
« بحرية » ان المراكب السابحة على الماء تقتلع جذوع النبات • وتتداخل ألوان متنافرة مأخوذة من لوحتي البحر واليابسة المتناقضتين على رسم التشابيه والمجازات • بهذا المعنى تتكلم القصيدة عن تيارات السهل ، وعن الخطوط التي تحفرها عجلات العربات على صفحة الماء ، والتي تنساب دائريا نحو الشرق ، عن صواري الغابة ، وعن اشجار الاحواض التي تصدم حوافيها زوابع من النور •

ان هذا يذكرنا بالرسام الستير (Elstir) في رواية « البحث عن الزمن الضائع » ، الذي ينعت بروسست إحدى المجازات المألوفة في لوحاته البحرية بانها تقوم على التشبيه بين الارض والبحر ، والغاء كل حد فاصل بينهما • فهو في تحفته المسماة « مرفأ كاركو تويت » لا يستعمل للتعبير عن

البلدة سوى استعارات مأخوذة من عالم البحر ، الذي لا يستخدم للدلالة عليه سوى كنايةات مستوحاة من واقع البلدة ، سواء لان البيوت تخفي قسما من المرفأ ، او لان الخلجان تتوغل بعيدا في اليابسة . وهكذا تختلط سطوح المنازل بصواري السفن التي تكتسب طابعا معماريا ، وكأنها مشيدة على الارض ، وكأن ركابها سكان بنايات متجاورة يتحادثون مع بعضهم . وهكذا يبدو قارب الصيد وكأنه لا يمت بصلة الى العباب الذي يطفو فوقه ، تماما مثلما ان الكنائس البعيدة المرسومة على اللوحة تتراءى ، محاطة بالماء من كل جهة ، منفصلة عن البلدة ، متلقعة بغبار الشمس ورغوة الزبد ، وكأنها تنبثق من الامواج وسط هالة من قوس قزح ، مشكلة هكذا مشهدا لا واقعيًا وصوفيًا . الى هذا الحد نجح الفنان في الغاء التخوم القائمة بين عالمين متناقضين . فالرجال الذين يدفعون المراكب في اليم يتحركون بذات الوقت وسط الثلج ، وفوق الرمال المبللة ، التي تنعكس عليها ، وكأنها تتمرأ على صفحة الماء ، خيالات مراكب يوهمننا بعضها انه يسبح وسط البلدة . والنساء اللواتي يلتقطن الاصداف عن الشاطئ يضطربن في مغارة بحريئة مطوقة بالسفن والطوفان . في حين يبدو القارب ، الذي يستقله المتزهبون ، عربية ، والنوتي الذي يقوده حوزيا يلجم أرسنة الخيول ، والركاب الذين يجربون ان يحفظوا له توازنه جماعات سارحين في حقول مشمسة ومرايع ظليلية او منحدرين الوهاد . ان سطح اللجة يشبه في جزء منه رصيفا من الحجارة ، او حقلا مغمورا بالثلج يترنح زورق على

قمته • قرب اوقيانوس ، مرسوم في جو صيفي حار ، يبدو ،
محصورا بين حيطان من الغرانيت الوردي ، انه ليس ذاته ،
وانه لا يوحى باستمرارية خضمه سوى بعض طيور النورس
التي يخيل للناظر انها تدور حول الاحجار ، في حين انها في
الواقع تشم رائحة الامواج • اما المراكب الشراعية فانها
تلوح كالفراشات البيضاء • بهذا المعنى كان يحلو لأستير
احيانا أن يرسم سرابات حقيقية ، يتراءى له خلالها القصر
المتوج ببرج واحد قلعة دائرية كلية يوجد في اعلاها برج
ينعكس على صفحة المياه الصافية ، فيوهما ، اما بفضل الجو
الصاحي او بتأثير ضباب الصباح الذي يجعل اللبنيات
السميكة اكثر شفافية من الظلال ، ان ثمة برجاً ثانياً من
الحجر الحقيقي مدغوم بأسفل الصرح • وهكذا تتراءى له
السماء بحرا ، ويشاهد في انعكاسات الضوء على صفحة
هذا الاخير سلال من الكريستال •

رب خليج بسبب اقتراب صخوره ، او نهر بسبب انعطافه
مجراه يبدوان وكأنهما يحفران بحيرة وسط السهل او الجبال •
ورب نهر آخر ، ينساب تحت جسور المدينة ، يتراءى ، مأخوذاً
من وجهة نظر معينة ، مقطع الاوصال كلية ، راكداً هنا كبركة ،
ضحلا هناك كشبكة ، محجوباً هنالك خلف هضبة متوجة
بالاشجار ، منسحقاً منكفئاً على نفسه في موضع رابع على
ضفاف المدينة التي تغرق بيوتها في الضباب • رب كاتدرائية
اعتدنا أن نراها وسط الاحياء الآهله يصورها لنا الفن بنوع
ان تظهر ثلاثين مرة أعلى من المنازل ، وفي جوار نهر هي في

الواقع بعيدة عنه • وكل المشاهد تخضع هكذا لخسوفات
للرؤية مماثلة •

ومن هنا انه كان يتفق لمارسيل بروسست بفضل انعكاس
شمس أن يرى في قسم معتم من البحر شاطئاً بعيداً ، او ان
ينظر بفرح الى قسم آخر من الزرقاة والهدوء بحيث انه كان
يبقى حائراً لا يعرف ان كان ما يشاهده يدخل ضمن نطاق
البحر أو السماء • وهكذا كان يخيل اليه احياناً ، وهو في
غرفته في باريس ، ان الضجة التي تتناهى اليه من الشارع
صادرة على شجار أو مظاهرة ، الى ان كان يتبين له ان
الاصداء التي يسمعا انما مبعثها هدير سيارة ، تقترب من
بعيد • ان الذكاء هو الذي تدخل هنا ، وميز بين الصوتين :
الصراخ البشري وزئير الآلة ، اللذين يشكلان بالنسبة للاذن
نبرة واحدة غير قابلة للتفريق •

ان سر السحر النابع من لوحات الستير يكمن : •

— « ٠٠٠ » في نوع من التحول للاشياء المرسومة ، شبيه
بما يسمى في الشعر الصورة المجازية ، واذا كان الله قد
خلق الاشياء بان سماها ، فانما يعيد الستير خلقها بان
يجردها من اسمها ، أو بان يعطيها اسماً آخر • ان الاسماء
التي تشير الى الاشياء تخضع دائماً لمفهوم للذكاء ، غريب عن
انطباعاتنا الحقيقية ، يجبرنا أن نحذف منها كل ما لا يتطابق
معه ٠٠٠ »

ان جهد الستير ينصب على تحرير نفسه في حضرة

الحقيقة من كل المعلومات المسبقة التي يملئها علينا ذكاؤنا ،
 على حملنا على رؤية الاشياء ، لا طبقا لما يعرفه عنها عقله بعد
 اعمال ذهن ، بل وفقا لما تتوهمه حواسه حولها للموهلة الاولى .
 وهو بذلك انما يعلمنا ان ننظر الى العالم بطريقة جديدة . ان
 لوحات الستير ، بحسب بروس ، مصنوعة من تلك اللحظات
 الشعرية النادرة التي يكتشف خلالها جوهر الطبيعة . ان
 الصورة التي يقدمها لنا الفنان عن الحياة تخرجنا من عاداتنا
 ان تملؤنا بالدهشة ، وتدخلنا في ذواتنا اذ تذكرنا بأحد
 الانطباعات .

لنفرض ان رامبو يتأمل منظر ورود ، ويمر في نشوة
 كما حصل له في « الاشراقة » « ورود » فان الصور الشعرية
 تروح تولد في ذهنه على الوجه التالي : النقطة التي هو
 متمركز عليها تبدو له مدرجا من ذهب ، بينما تتراءى له
 اصناف الزهور المحيطة به : حبالا من الحرير ، او اقمشة
 رمادية شفافة ، بعضها يظهر له كمخمل أخضر ، وبعضها
 الآخر كاسطوانات من الكريستال تلفحها الشمس فيكفهر
 لونها ، وتلتع كالبرونز . قسم منها هو كناية عن سجادة ، او
 انية نحاسية عليها نقوش فضة وعيون وجدائل شعر ، وقسم
 آخر هو بمثابة قطع من الذهب الاصفر الرنان منثورة على
 البللور . نوع منها هو اشبه باعمدة من خشب الاكاجو تحمل
 قنطرة من الزمرد . ونوع آخر يحاكي باقات من الاطلس
 الابيض ، او نثرات ناعمة من الياقوت توطر زهرة ما . ويخيل
 للشاعر في هذا اليوم الصافي الاديم ان السماء والبحر هما

عينان زرقاوان يجتذب بهما اله متسريل بالبياض جمهور
الورود الفتية والقوية نحو شرفات الرخام •

وهكذا نجد رامبو في قصيدة من « الاشراقات » عنوانها
« مشاهد » يعلن ان مهزلة العالم اياها توقع معزوفتها الخالدة
وتعرض مشاهدها المختلفة وتوالي أحداثها ومغامراتها ،
فصولها ووصلاتها المألوفة • ان الحياة تتراءى له كتمثيلية ،
الشوارع تبدو له خشبة مسرح ، والممر ، الذي يمشي عليه في
هذه المنطقة الصخرية حيث تتزاحم وفود الشعب المتكلمة على
اللهو والمتعة ، المتهاففة على مباحج الفزعة ، تحت الاشجار
المعراة من أوراقها ، يظهر له كاطار كرتوني • ويتهيأ له انه
يعبر ممشي متشحة بمسحة سوداء ربما ترمز الى اقتراب
المساء متتبعا خطى مارة يتهادون تحت المصابيح والاعصان •
ان أفواج العصافير التي تحط على الاعمدة تلوح له حيناً كذلك
الطيور الغريبة العجيبة التي كانت تظهر في مسرحيات القرون
الوسطى المقدسة ، يتفرج عليها عابرو سبيل يخرجونها
بحركتهم وتململهم من سكوتها كمجموعة من الجزر تمتلىء
دون انقطاع بمسافرين جدد يحطون عليها عصا الترحال ،
وتلوح له ، حيناً آخر ، كفرق تمثيلية تؤدي استعراضات
غنائية على ايقاع الطبل والقيثارة ، وتحني رؤوسها لتصفيق
الجمهور ، في أكواخ محفورة لها في سقوف السماء دائرة
حول الغيوم المتلبدة هنا كصالات نواد عصرية أو ساحة في
فسحة صافية من السماء تنعكس عليها شمس الغروب بألوانها
الوردية هناك كقاعات شرقية قديمة • ان هذه الحلقة

المسحورة التي تشكلها الطيور توالي رقصاتها الاخاذة حتى قمة مدرج متوج بالغياض • انها تتحرك وتتموج فوق الزروع وفي ظلال الغابات الكثيفة المتماوجة باغصانها ، لتجعل نفسها مرتية من أولئك الذين لا يمتد بصرهم الى ما هو أبعد من طرف انوفهم • حتى ليخيل لرامبو ، وهو يسير على هذه المدرج المحاطة بالاشجار عن الميلىن انه في دار للاوبرا تنتهي عندما تتلامس دوحتان في آخر الممر ، وأن المسافة بينه وبين القرص الغارب على الافق ، هي الفسحة التي تفصل بين صالة المعرض المعتمة ، وبين خشبة المسرح المشعة بالاضواء • وبالفعل انما المنتزهون هنا متفرجون جاؤا ليتأملوا مشهدا مثيرا هو غياب الشمس •

وهكذا يتراءى العالم لرامبو مسرحا هو متفرج على مشاهده المسحورة ، يملك موهبته في ان يرى نفسه من الخارج ، وكأنه ينظر شخصا آخر • لكنه في ذات الحين ممثل على خشبته ، فكما يقول ايف بونغواي :

— « ٠٠٠ لقد ظهر رامبو في كل نتاجه مهلوسا بفكرة الممثل المضطرب في داخله : ذاك الذي يمثل دون أن يتمكن من أن يعيش بالفعل مهزلة الحقيقة ٠٠٠ »

وبفضل ازدواجية اناه : ممثل — متفرج ، يشاهد رامبو نفسه ، كمراقب غريب ، وهي تؤدي أدوارا متنوعة في تمثيلية الحياة : الطفل — الشحاذ — طريد العدالة — المتشرد — الخجري الجوال — الزنجي — الجاج الورع — القديس — العالم — الساحر — المشعوذ •

فالشاعر في مسرحية القصيدة يضطلع بوظيفة المؤلف والمخرج في آن معا ، والكلمة وحدها تنوب عن الديكور والخشبة والاشخاص والعقدة والمسافة بين الجمهور والستارة ، وكل هذه العناصر التي تتضافر كلها في المسرح الحقيقي على رفع الواقع الى مستوى المثال .

ـ « ٠٠٠ ان ترى في الفجر « شعبا من الحمام » هو ان تجعل الصباح ينفجر كعلبة مساحيق ٠٠٠ »

هذا ما يقوله سارتر ، الذي يتكلم بصدد الصور المجازية في « المركب السكران » عن :

ـ « ٠٠٠ الانفجار المظفر للمكان ٠٠٠ » .

اما فرلين فلقد صرح امام اندريه جيد بخصوص قصيدة رامبو « احرف اللين » :

ـ « انا ، الذي عرفت رامبو ، اعلم أنه لم يكن يهتم بقليل او كثير اذا كان حرف الالف أحمر او أخضر . كان يراه هكذا . لكن هذا كل ما في الامر ٠٠٠ »

ان رامبو في هذه القصيدة انما يمارس موهبة الرؤيا (التي يتطلبها في الشاعر) على حروف الهجاء . فهو يتصور أول الامر للحرف لونا ينطلق منه الى تداعيات ذهنية مجانية وشخصية . هذا الحرف يتراءى له أسود ، والسواد يوحي له بذباب يحرم حول قممات منفرة او بخلجان من الظل . وهذا الحرف الثاني يرمز الى البياض لون الطهارة ، ونصاعة

البخار ، وشوادر الخيام ، وكتل هفهاة من الجليد مسنونة كالحراب ، وأردية يتسربل بها ملوك فخورون ، وأكاليل من الزهر ترتعش في الريح . وهذا الحرف الثالث يحيله الى اللون الاحمر ، والاحمرار يبعث في ذهنه صور دمل ارجوانية ، دم مبصوق ، شفاه جميلة تبتسم ، فورة الغضب أو عريدة السكر . وهذا الحرف الرابع يظهر له باللون الاخضر ، والاخضرار يعني بالنسبة له : دورة الطبيعة ، تموجات البحار ، سلام السهول حيث ترعى الحيوانات الآمنة ، الامل والاطمئنان والرضى عن النفس الذي يشعر به الانسان المجتهد الذي كد وثابر وتعب ووصل الى النتيجة التي كان يصبو اليها . وهذا الحرف الخامس يبرز لعينه متشحا بالزرقة اللون الذي يبعث في باله فكرة اللانهاية ، وبوق الدينونة الاخير الذي يرجع اصداؤه الغربية في أربع جهات المعمورة ، والصمت الابدي الذي يخترق العوالم ويزين فوق رؤوس الملائكة ، وعيني الله الذي هو بداية ونهاية كل شيء . هناك اذن بالنسبة لكل عاطفة لون يلائمها ويعبر عنها . فالزهري هو حنو الحب والحنان واقاضة الاسرار الحميمية في اذن حبيبة ، والابيض هو رديف الجمال والعفة والطهارة ، والاحمر يوحى بالشهوة ، والاسود يرمز الى الموت .

في مطلع رسالته الى جورج ازامبار التي يعرض فيها نظريته حول الرؤيا الشعرية ، يهزأ رامبو من استاذة الذي رفض أن يعمل مدرسا خاصا عند عائلة روسية غنية ، وأثر البقاء في مهنة التعليم في فرنسا ، وبذلك تخلى عن حياة

المغامرة والسفر المليئة بالشاعرية في نظر رامبو ، ليحافظ على مركز ثابت ومستقر في بلده . ان الفرد مدين بمعيشته للمجتمع ، الذي عليه بدوره ان يؤدي لاجتماعه خدمة نافعة كي يستحق المساعدات التي يتلقاها منهم . ان الايدي المنتجة تقدم له الطعام والكساء والمأوى وكل ما من شأنه ان يعينه في المحافظة على بقاءه . وهو ، من جهته ، ملزم ببذل مجهود ما ، بالاسهام بقسط في ورشة العمل المشتركة ، التي تسير عجلة الحياة ، وتصور كيان المجتمع ، وتكفل له اسباب الاستمرار . بهذا المعنى فان استاذنا ازامبار هو جزء من الهيئة التعليمية . انه يمارس مهنة نافعة معترفا بها من كافة الناس ، تضمن له حياة رغيدة مستقرة وتؤمن له رزقه بأشرف اسلوب . انه أحد أبناء المجتمع الطيبين يسلك الطريق القويم ، وينهج النسق المعيشي المكرس الصالح والمفيد في نظر الآخرين . لكن رامبو يخاطب استاذنا هذا ، في رسالته الاتفة الذكر ، بشيء من التحدي والاستفزاز ، والنية الواضحة في اثارة حفيظته ، وافتعال فضيحة ، مدعيا انه هو الآخر يقوم بطريقة ما بوظيفة في هذا المجتمع ، ويضطلع بمهمة معينة : افساد اخلاق تلاميذ المدرسة بما يرويه عليهم من قصص بذيئة وخليعة ، شريرة وغبية ، يختلقها خصيصا لاجلهم ، محاولا ان يكون قدوة سيئة لهم باقواله وافعاله . وانهم ليدفعون له أجره مقابل ذلك ، وجزاء التسلية التي تقدمها لهم بدعاباته الصاخبة الاباحية ، وتصريحاته المتهورة المزقة ، وتصرفاته الهوجاء ، بان يسددوا عنه فاقورة الحساب

في المقاهي ، ويتحملوا عنه عبء كؤوس الجعة والخمرة التي
يحتسيها بشراهة .

ان هذه الفقرة من رسالة رامبو الى ازامبار تتوافق مع
تلك الفترة من عمر الشاعر التي كان يرى فيها متسكعا في
شوارع شارلفيل ، وقد استطال شعره (ألم يسمع في باريس
أن ما يميز الشعراء البارناسيين ليس موهبتهم بل طول
شعرهم) ، واتسخت ثيابه ، ومضى يرمي عبارات التهكم
والسخرية امام المقاهي والكنائس ، ويسرق الشراب ويمتهن
كرامة الكهنة ، ويكتب كلمات « الموت لله » أو ما هو اسوأ
منها على مقاعد الحديقة العامة . حتى لقد كان صبيان
الازقة يشيرون نحوه باصابعهم عندما يرونه يمر بملابسه
الفوضوية ، وتسريحته المهمل ، او يراشقونه بالحصى .
ولقد تصدق عليه ، مرة ، احد الكتبة ، اماعنا في اهانتة ،
بقطعة معدنية ، لكي يذهب ويقص بها شعره . فما كان من
رامبو سوى أن قبل العطية عن طيب خاطر ، معلنا للمحسن
الساخط بأنه سيشتري بهذه القروش بعض التبغ .

ان هذا المقطع من خطاب رامبو الى استاذة يعاصر تلك
المرحلة من مراهقة الشاعر ، التي يصفه فيها ارنست دلاهاي
بأنه كان يحاول تحدي المجتمع بحركاته وتصرفاته ، بارائه
وفوضوية مظهره الخارجي ، وغلبونه الذي لم يكن ليفارق
شفتيه ، بأنه كان يرفض أن يشتغل وان يبحث عن مهنة نافعة
يهتم بها ، وبأنه كان يقضي الساعات الطويلة متبطلا في
المقاهي . ان دلاهاي يسجل ذكرياته عن تلك الحقبة على
الوجه التالي :

— « ٠٠٠ كنا نذهب لرؤية المتأنفقن فف « مقهى النزهة »
وكان فصف لنا ان نقابل هناك بعض الرفاق المقبداى من
اولئك المذفن كانوا فصرخون « هو ، هو » ٠ عنءما كان
رامبو فخرج من المدرسة ٠ الآن وقء فعقلوا كان البعض منهم
فقترب : « رامبو ؟ فاء للعجب ماذا فعمل فف هءه الايام ؟! ٠٠٠ »
هو ، لطفا ، كان فءعوهم الى الجلوس قربنا ، ثم كان ، كى
فرضى فضولهم ، فئلذ بان فنسب الى نفسه أوخش المهن
حقارة ٠ كما انه كان فنسب الى نفسه أفضا عاءات ، كان
ما فصفها به من اسهاب وضراوة قمنا بان فجعل كل نفران
السما ففساقط على زجاج المقهى ٠ كان هؤلاء الساءة
فبءابلون نظرات مرتبكة ومءهوشة فف ذات الوقت لانهم فهموا
اكثر وأقل مما فنبغى ٠ كانوا ، وقء أرعبهم الاستفزان المرفع ،
فطلقون ضحكاء ماعز صغيرة ، ففحثون عن هفئة ففخذونها
فلا ففءون شفئا آخر سوى أن فربءوا على ذقونهم بعصفهم
ذاء المسكاء العاجفة ٠ وكانوا ففءهون بالانصراف بوجوه
وءفة ومترفعة ٠ كان رامبو وهو فرام فذهبون ، فضحك ،
مفسلفا قلفلا بففورهم ، وخاصة لرؤفئه افاى وقء انزعجت
لءاعاباءه المءهورة الى هءا الء ٠٠٠ »

ان رامبو فف رسالءه الى جورج ازامبار فنذر اسءاءه ،
المذى كان ففءى بعض الطموحاء الشعرفة فف صدره ، بانه
لن فسءطفع أن فصبع شاعرا أصفلا ، منذ أن رضى بان فكون
معلم مدرسة ، منخرطا هكذا فف سلك الروففن والبلاءة
الروففة المذى فباركه المءمع ٠ وان القصاءء الفف سفكءبها

ستكون من النوع الذاتي المتبذل الذي لا ينفذ الى الاعماق لانه صادر عن الانا الفردي الزائف الذي يكتفي بوصف الجانب السطحي والمعروف من عواطفنا ، والذي ينتجه اولئك الشعراء القافهون الذين يكونون فكرة خاطئة عن الانا ويراكمون افرازات افكارهم العمياء متوهمين انهم اباؤها وخالقوها واصحابها الشرعيون ، مدعين ملكيتها المطلقة .
نعم ان رامبو يتنبأ بالفشل الذريع لاستاذة في مجال الفكر ، ويتوقع له العجز عن تنفيذ مشاريعه الادبية والاقتصار على صياغة بعض قصائد عديمة القيمة ماثرة للقرف . وهكذا ينتهي به المطاف انسانا خامل الذكر عاش حياة عادية ، لم يغامر ، لم يبذل الجهود والتضحيات الكافية ، ولم يتحمل العذابات الحقيقية التي تتيح وحدها للفنان انماء مواهبه وتحقيق ذاته باصالة .

اما هو رامبو فانه يرفض الدعة والبلادة وانماط العيش التقليدية التي تقتل شاعريته ، وتمنعه من تحقيق رسالته ، وابداع ذلك الشعر الموضوعي الذي ينادي به ، والذي يصدر عن الانا الاصيل العميق ، متجاوزا العواطف الفردية السطحية ليلبغ الشمولية والمطلق . انه يبغى نذر نفسه كلية للشعر لانه يصير على ملازمة الحدود القصوى ، رافضا كل التنازلات . انه يريد كل شيء او لا شيء . وهو اذ يقرر بذل حياته من أجل الشعر يعرف ان هذه الغاية الصعبة المثال تقتضي منه التضحية بكل سعادة وأمان واستقرار .

اننا نستشف من لهجة رامبو في رسالته الى استاذة انه

يرد على نصائح هذا الاخير ، الذي كان يناشده دائما ودون طائل ان ينضوي تحت لواء مهنة ما توفّر له مصروفه اليومي . بينما كان يعترض رامبو دائما على ارشادات ازامبار بحجة انه قد وطد عزمه على ان يكون شاعرا ولا شيء آخر . كان استاذہ يتمنى عليه أن يتقدم لفحوص البكالوريا التي يستطيع النجاح فيها بسهولة تامة نظرا لذكائه المبكر . وهذه الشهادة تخوله الحصول على مركز صغير . نعم الوظيفة قيد بغيض . لكنها عبودية يظل المرء قادرا على التحرر من ربقثها بيسر عندما يناله ما هو أفضل منها . اما اذا عاند رامبو وأحجم عن التقدم الى الامتحانات الرسمية فلم لا يسعى الى العثور على مهنة متراضعة مؤقتة : صبي سمان ، زبال ، الخ . . . وان ينصرف الى كتابة الشعر في ساعات فراغه ، تلك الفترات التي يقضيها الآخرون في المقاهي وأماكن اللهو ، واضاعة الوقت . لكن رامبو كان دائما يرفض الرضوخ للامر الواقع وتغليب الحس العملي فيه كي ينصاع لمزاجه الشاعرى المتهور . ولم يكن ليعترف في الحين المناسب بان حرفة صغيرة وحقيرة يمكن ان تصبح كبيرة ونبيلة عندما تنجح في ان تؤمن للشاعر بعض الفراغ ولقمة الخبز الضرورية للمحافظة على بقائه وما هو اكثر من ذلك الاستقلال الذاتى الكامل . انه يفرض شروطه على الحياة والقدر متمردا على قوانينهما ومتطلباتهما العملية .

وبما ان رامبو يرفض القيام بأي عمل ، والانهماك في أية مشاغل تصرفه عن تحقيق رسالته الجوهرية في الحياة الا

وهي الشعر ، فانه يستبعد فكرة سفره الى باريس للمشاركة في أحداث الكومونة والانضمام الى الثوار والمناضلين الفقراء ، رغم أنه يتعاطف معهم كثيرا . انه مضطر الى كبح جماح نوبات الغضب الجنونية التي تنتابه وهو يسمع أخبار مئات العمال والكادحين الذين يسقطون ضحية الظلم والاستبداد . انه الآن في ذروة الهوس والحماس لعمله الشعري ، في سورة الوجد والاستغراق في نشاطه الفكري . وليس بمقدوره الانصراف الى أي جهد آخر غير الإبداع الفني . يتساءل ازمبار تعليقاً على رسالة رامبو الموجهة اليه بتاريخ ١٣ ايار ١٨٧١ :

— « ٠٠٠ يوجد عمل وعمل : « اليد ذات الريشة » هل تساوي « اليد ذات المحراث » ٠٠٠ فيما بعد ، الاخيرة هي التي سيكتب لها الغلبة وحدها والثانية ستنهار : الوداع للشعر . وهذا مؤسف : لو استدعيت في الوقت المناسب لكان باستطاعة الواحدة أن تساعد الاخرى وتجعلها تعيش ٠٠٠ »

ان ازمبار مخطيء تماماً في رأيه هذا . ان الاربع سنوات التي أمضاها رامبو متفرغاً للشعر قد عاشها بملء وزخم ، وأتيح له خلالها أن يختبر تجارب روحية عميقة أغنت نتاجه ، وهي أفضل مئة مرة من عمر طويل معاش بفتور ، وليس مكرساً للشعر الا بصورة جزئية متقطعة . ان مجهوداً عنيفاً مركزاً مكثفاً خلال أربعة أعوام يعطي نتائج أفضل من تلك التي يسفر عنها دأب موزع على مدى أربعين سنة باعتدال وبرود وضحالة . ان تجربة الشعر هي التطرف والتوهج ،

هي مغامرة رهيبة تتطلب من المرء أن يضحي من أجلها بكل شيء ، من يقرر أن يخوضها الى آخر مداها يستحيل عليه الاهتمام بآخر ، لأنها غيرة تستأثر به وتستنفد كل طاقاته ، ولا تترك له ذرة من الوقت يخصصها لما عداها • كما أن مورييس بلانشو يغلط هو أيضا عندما يفترض أن رامبو كان أصبح رائيا حقا لو أنه نهج ، على سبيل المثال ، مسلكا عاديا شبيها بالحياة المستقرة التي عاشها شاعر من معاصريه من طراز فرنسوا كوبيه ، بدل أن يفضي به طبعه المغامر الى مصير تاجر في هرار •

ان الخلاقين لا يفهمون انفسهم وهذا دليل على أن الاثر الفني ليس من نتاج صاحبه ، الذي لا بد له في اخراجه الى النور ، ولا حيلة له في الامر ، الذي لا يستطيع ان يحكم على عطائه أو أن يتحكم فيه • لان الاغنية ليست مفهومة من المغني ، وليست ملكه الخاص :

« ••• لان أنا هو شخص آخر • اذا النحاس استيقظ بوقا فان هذا ليس خطأه • هذا أكيد بالنسبة لي : اني أشهد تفتح فكري : أراقبها ، أصغي اليها : اني ارسل ضربة وتر : المعزوفة تتحرك في الاعماق ، او تأتي بقفزة واحدة الى خشبة المسرح ••• »

فكما أن الكمان ، المصنوع من مادة الخشب الحقيقية اياها التي تدخل في تركيب الطاولة أو الكرسي أو السرير ، يستطيع أن يبعث أنغاما ساحرة ، كذلك الفنان المجبول من نفس الطينة التي يتكون منها كافة البشر بمقدوره ان يتمخض عن

أثر فني • لقد أعطى له امتياز اصدار انغام علوية • لقد حلت
النعمة الالهية عليه • لقد استوطنته الشعلة المقدسة • وهو
لا دخل له في الموضوع اذا كانت طاقة فوق المستوى البشري
قد اختارت صدره هيكلها • ان هذا الكائن الرباني الساكن
فيه ، والذي يبدع الآية الجمالية هو شخص آخر يختلف عنه ،
متميز عن المخلوق العادي الموجود فيه أيضا ، والذي يأكل
ويشرب ويصرف شؤونه اليومية مثل بقية الناس • بهذا المعنى
يعتقد سارتر أن :

— « ••• وضع التفكير قد عبرت عنه بدقة عبارة رامبو
المشهورة (في رسالة الرائي) « انا هو شخص آخر » • ان
مدلول النص يبرهن انه اراد ان يقول بكل بساطة ان تلقائية
الضمائر لا يمكن ان تنبثق عن الانا ، انها تذهب نحو الانا ،
تنضم اليه ، تجعله ملموحا تحت كثافته الشفافة ، لكنها تقدم
نفسها قبل كل شيء كتلقائية مستقلة ولا شخصية ••• »

هناك الانا السماوي الروحاني المطلق الواحد المنزه عن
أية أنانية او فردية الملهم ، الذي يبدع الفن الاصيل
وما يسميه رامبو « الشعر الموضوعي » • وهناك الانا الارضي
الجسدي المحدود المتكرر ، الذي ينحصر همه في المحافظة على
بقائه وتأمين حاجاته العملية النفعية ، عاجز عن العطاء
الفني ، والذي ينتج ما يسميه رامبو « الشعر الذاتي » وهذان
الانوان يتصارعان في دخيلة الفنان •

في لحظة الابدية يولد فينا انا هو شخص آخر ينبثق
فجأة من أعماقنا الدفينة ، ويبرز الى حيز النور • ان قشرة

الانا الذاتي الجزئي الزمني تنفلق بغتة ليحل محلها جوهر
الانا الموضوعي الشامل الابدي . وبذلك تتحرر الاشياء من
حولنا من ثقالتها المادية ، تسقط عنها البراقع السطحية التي
تضيفها عليها آلية العادة وبلادة المنطق ، وتتفتت متبعثرة في
أربعة آفاق سماء جديدة كلية . وهكذا يتحقق بصورة عفوية
مدهشة ومباشرة هذا التحرر للحواس الذي هو شرط أساسي
في كل ابداع فني . قال رامبو لصديقه أرست دلاهاي :

ـ « ... علينا فقط أن نفتح حواسنا للانفعال ، ثم أن
نجمد في كلمات ما تلقته هذه الحواس ، ويجب أن يكون هنا
الوحيد هو أن نصغي ، أن نرى وأن نسجل ، وهذا دون
اختيار ، دون تدخل من قبل الذكاء . الشاعر يجب أن يسمع
ويدون أي شيء ... »

اننا اذن لا نحتاج الى بذل أي مجهود ارادي كيما نعيش
لحظة الابدية ، التي تهمني علينا من تلقاء نفسها ، وفي الوقت
الذي لم نكن لننتظرها فيه ، فنتيح لنا أن نذوق لبرهة وجيزة
طعم الحياة الحقيقية ، وأن نولد من جديد . لكنها ومضة
خاطفة سرعان ما تنقضي :

ـ « ... ان الذكاء الكوني قد رمى دائما أفكاره
بصورة طبيعية : كان البشر يلتقطون جزءا من ثمار الدماغ
هذه : كانوا يتصرفون بوحى منها ، كانوا يؤلفون منها كتباً :
هكذا كانت تمضي المسيرة ، بما أن الانسان لم يكن يصقل
نفسه ، لم يكن قد استيقظ بعد ، أو لم يعد بعد مستغرقا في

ملء الحلم الكبير • موظفون ، كتاب ، مؤلف ، خلاق ، شاعر
هذا الرجل لم يوجد قط ! ٠٠٠ »

اذن من الخطأ ان أدعي أنني افكر والاحرى بي أن أقول:
« ان الذكاء الكوني » يفكر من خلالي • ان الشاعر الرائي
لا ينتج اراءه جل ما يفعله انه يلتقط الخواطر التي تنثرها
حوله هذه القدرة الخفية اللامرئية ، التي هو الوسيط بينها
وبين البشر • ان مهمته تتلخص في أن يكشف عن وحدة
المكون بفضل المحبة • انه نبي يملك القدرة على قراءة أسرار
الماضي وعلى التنبؤ بالمستقبل ، انه يتوصل الى معرفة الفكرة
المطلقة الصافية ، التي هي في أساس تكوين العالم وانسجام
الاشياء :

— « ٠٠٠ ان أول دراسة للانسان الذي يريد أن يكون
شاعرا هي معرفة ذاته ، كاملة ، انه يبحث عن روحه ،
يرصدها ، يمتحنها ، يتعلمها • ما أن يعرفها حتى يتوجب عليه
أن يرببها : هذا يبدو سهلا : ثمة نمو طبيعي يتم في كل دماغ ،
لكم من انانيين يعلنون انفسهم مؤلفين ، يوجد كثيرون غيرهم
ينسبون الى ذاتهم الفضل في تقديمهم الفكري! — يجب أن
نجعل روحنا مريعة أسوة بأكلة لحوم البشر ، ماذا تصوروا
رجلا يزرع ويربي دماغا على وجهه ٠٠٠ »

ان الشاعر يستقي مادة قصائده من اختبارات
الشخصية • كلما عاش تجارب روحية عميقة وفذة كلما اغتنى
شعره • ان السكر والمخدرات والتهتك الجنسي قد تكون

وسيلة لان تهز كياننا ، وتتيح لنا أن نمر بحالات نفسية عنيفة وفريدة من نوعها تخرجنا من المألوف ، وتقودنا نحو عالم خارق للعادة يخصب فيه وحده الجمال . يجب أن يفجر الشاعر كل الطاقات والنزعات والانفعالات الثاوية في اعماقه ، وهذا ما لا يتم له اذا ظل غارقا في رتابة حياة متزنة هادئة ورصينة . يجب أن يجوب كل مناطق نفسه الدفينة ، ويرون كل امكاناته الداخلية ، ويتغلغل الى كل اصقاعه الباطنة ، اذا أراد حقا أن يبلغ ذروة الابداع . وهذا ما لا يتوفر له ما لم يخضع نفسه لكل الهزات العنيفة ، ما لم يتجرع كل الكحول القوية ، ما لم يبتلع كل السموم القاتلة . يجب ان يعزف كل الحان نفسه اذا أراد أن يكون فنانا كبيرا بحق ، وهناك بعض أنغام غامضة ومستترة وبعيدة الغور ، تحتاج الى أوتار سرية وخطرة كي ترجع أصداها وتقضي بمكنونها وتعطي كل تموجاتها . ان هناك أبوابا في نفسنا مفاتيحها في يد السكر والعريضة، التحشيش والانحراف، التشرد والفوضى، الخروج على التقاليد والتمرد على القوانين والاعراف . بما أن الشاعر مضطر ان اراد بلوغ الكمال ، ان يشرع كل مصاريع ذاته ، فهو مرغم بالتالي الى فض كل اقفاله الداخلية مع ما يتضمنه ذلك من تعرض للمجازفات الرعناء والمهلك الفظيعة .

— « ٠٠٠ اني افسد خلقي الى أقصى المستطاع . لماذا ؟ أريد أن أصبح شاعرا ، وأنا اعمل على أن أجعل من نفسي رائيا .٠٠٠ الشاعر يجعل من نفسه رائيا بواسطة تشويش طويل ، هائل ومنهجي لكل الحواس . كل اشكال الحب ،

الشفاء ، الجنون ، انه يبحث بنفسه عن كل السموم ، ويستنفدها في داخله لكي لا يحتفظ منها سوى بالجواهر . عذاب لا يوصف حيث يحتاج الى كل الايمان ، كل القوة الفائقة للطبيعة الانسانية ، حيث يصبح بين الجميع المريض الكبير ، المجرم الكبير ، الملعون الكبير - والعارف الاعظم ! - ان انه يصل الى المجهول ! بما انه قد ربى روحه الفنية أصلا ، أكثر من أي شخص آخر ! انه يصل الى المجهول ، وعندما طائش اللب ، ينتهي بأن يفقد الادراك لرؤاه فانه يكون قد راها ! ليمت في وثبته عبر الاشياء التي لم يسمع بها والتي لا تسمى : سوف يأتي فعلة آخرون فظيعون ، سوف يبدأون من الآفاق التي هلك فيها الآخر ! ٠٠٠ »

عندما ندع حواسنا تعيش بصورة طبيعية فانها لاتعطينا سوى مظهر الاشياء الخارجي ، وتتركنا نطفو على سطح العالم ، في مجال العادي والمألوف ، وفي مناخ معاد للشعر ، ولكل الهام فني . لكن عندما نخضع حواسنا لمنهاج الاختلال فاننا نجبرها على مشاهدة العالم بصورة جديدة فذة وعلى اختراق قشرة الواقع والنفاذ الى الرؤى الخفية الكامنة وراء المظاهر . على الشاعر اذن أن يسعى جاهدا وبملاء ارادته الى ممارسة كل أنواع الحسب الطبيعي والشاذ ، المعترف به والمحذور ، ومعاناة جميع الآلام ، الى اختبار كافة أصناف الجنون ، واقتراف مختلف الاعمال النزقة المتهورة والتصرفات الطائشة ، الى القيام بالمغامرات الهوجاء ، وامتحان كل الشرور لكي لا يحتفظ منها سوى بتلك المادة النافعة له في

عمله الشعري ، تلك العصاراة التي تغنسي تجربته الانسانية
وترفد طاقته الفنية بروافد جديدة .

ان هذه الحياة الشاذة الغريبة المزروعة بالاشواك
والالغام والتي هي قدر كل من صمم ان يصبح شاعرا أصيلا
هي صليب ودرب جلجلة يحتاج من ينوي أن يقطعها حتى
نهايتها الى ايمان جنوني برسالته وعزيمة صادقة على
التضحية بالغالي والرخيص ، وطول اناة وقسوة على
الاحتمال ، وقوة معنوية عالية تفوق طاقة البشر . انه مضطر
من أجل تحقيق هدفه الى انتهاج مسلك ناشز أعوج لا يرضى
عنه الناس ، الذين يناصبونه العداء لهذا السبب ، فيصبح
أشبه بطريدي العدالة ، والمدموغين بوصفات العار ،
والمرفوضين اجتماعيا ، ان اسلوب العيش الصعب والعنيف
هذا يفتك بصحته الجسدية والنفسية ، ويدمره ماديا ومعنويا ،
ويعزله عن بقية الاشخاص العاديين . فكأنه أبرص أو قاطع
طريق ، سفاح خطير أو شقي حلت عليه لعنة القدر . لكن كل
هذه الآلام والتضحيات هي الثمن الذي لا بد من دفعه للوصول
الى المعرفة الاشرافية ، واختراق حجب المجهول ، وارهاف
الحواس بنوع ان تتمكن من ادراك الاشياء بصورة حادة
وعميقة ، والنفاذ الى جوهرها ، والانفتاح التام على الكون .
انها أشبه بحالة النعمة والتجلي الروحي التي يتوق اليها
المتصوف والقديس ، والتي تقتضيه الخروج من ذاته ،
والتعالي على أنانيته الفردية ، ومعانقة الحقيقة في اندفاعه من
الوجد والمحبة الشاملة تكتشف عالما آخر بهيا ، غير ذاك الذي

نعيش فيه كان محتجبا أو محبوسا أو مكبوتا وراء المظاهر اليومية المألوفة • ان الذهاب الى ما وراء الواقع لا تحتاج أحيانا الى أكثر من اهتزاز بسيط على شاشة الواقع •

ان روح الشاعر غنية أصلا وفطرة • لكن هذا لا يكفي، ويجب عليه أن يزيدها ثراء بفضل منهج اخلاص الحواس ، الذي هو وسيلة للتقرب من الله ، واستشراق الانسجام الكوني • ان الوصول الى المجهول يتطلب قوة خارقة ومؤهلات فكرية وكفاءات فنية عالية • انه مغامرة رهيبة قد يفقد معها الشاعر الصواب والقدرة على التعبير عما شاهده • لكن هذا ليس له أي تأثير • المهم أنه قد استطلع هذه الرؤى المدهشة ، وحتى لو هلك بعد ذلك فلسوف يأتي رواد آخرون محله يلتقطون الشعلة المقدسة التي سقطت من يده ، ويكملون الرحلة الرائعة والخطرة التي بدأها •

في قصة « الفارنفارلو » لبودلير يقول صمويل كرامر ، الذي هو صورة عن الشاعر ذاته لسيدة تنتقد ما تنسم به قصائده من طابع مرضي جنائزي :

— « ••• سيدتي ، لوميني ، أو بالاحرى لومينا ، لان لي أشقاء كثيرين على شاكلتي •• لقد اجتهدنا لدرجة في تزييف قلوبنا ، لقد استعملنا لدرجة المجهول لدراسة الزوائد البشعة والدمامل المشينة التي تغمره ، والتي نكبرها بتلذذ ، حتى لاصبح من المستحيل علينا أن نتكلم لغة بقية الناس • انهم يعيشون ليعيشوا ، ونحن ، للأسف ! ••• نعيش لنعرف كل السر يكمن هنا • ان العمر لا يغير سوى الصوت ، ولا يتلف

سوى الشعر والاسنان ، ونحن عكرنا لهجة الطبيعة ، واقتلنا واحدا واحدا كل أنواع الحياء العذري التي كانت تغطي داخلتنا كرجال شرفاء . لقد حللنا نفسيتنا كمجانين يزدون من جنونهم بسعيهم الى فهمه . الاعوام لا تشل سوى الاعضاء ، ونحن شوهنا الامواء ٠٠٠ »

قبل كتابة رسالة الرائي بستة أشهر كان رامبو يفتح صديقه ارنست دلاهاي بموضوع النظرية الشعرية التي كان يرهص بها ، وكان يحادثه عن :

— « ٠٠٠ احساسات جديدة ، عواطف أقوى علينا نقلها بواسطة الكلمة . اني أشاهد اني أشعر لكني لا أعبر عن ذلك كما أريد . فلنشاهد فلنشعر أكثر . وعندما يحين أو ان الامام بلغة أغنى يكون الشباب قد ولى والعواطف المرفهة قد رقدت . يجب ايقاظها ! ٠٠٠ مهيجات ! ٠٠٠ الروائح ، السموم التي تنتشيقها العرافة ٠٠٠ »

انه يريد بأي ثمن ان يوقف ايقاع الحياة الضافي فيه . أن يعيش بزخم وحمى وحماس . انه يطلب الزمن العنيف الخطر المليء بالاثارة . تيار المغامرة والجنس والمخدر والسكر ، بدل مستنقع الضجر والرتابة والبلادة ، حيث تأسن الايام بايقاعها البطيء الشبيه بالموت . ان كل الاساليب التي لجأ اليها رامبو لتجاوز وضعه البشري العادي ، والارتقاء الى مرتبة الرؤيا هي وسائل جسدية : الصوم ، الاسراف في اللذائذ والمشهوات ، التعب والارهاق الناجم عن المسيرات

الطويلة ، التهيجات العنيفة الناتجة عن الخمر او الافيون •

نعم لقد عرف رامبو نشوة السكر التي تغسل قلبه من كل الاحزان وتملؤه بالحماس ، وتمنحه ان يختبر أنواعا من الغبطة والاحاسيس الخارقة المفيدة جدا له في تجربته كشاعر • لقد ذاق الخمرة الروحية والخمرة الجسدية المديرة للرأس ، التي تعتقه من كل جاذبية أرضية ، وتطلقه كمركب سكران يترنح فوق بحر الوحي وقد أضاع دفته ومرساته • كما أن انفصالات الوجد والحب العنيفة تشحذ ملكات الشاعر الابداعية ربما أكثر من دوحات أي كحول أخرى • بينما صحوة الوعي وبرودة العقل ، منوالية الايام وجفاف المنطق تخنق فيه كل نبض شعري • ان الالهام لا يستجيب لنا اذا حاولنا مطاردته جاهدين ، وملاحقته قسرا والقبض عليه بالقوة • لكنه يهبط علينا بصورة لا واعية ولا ارادية حين لم نكن نتوقعه ، ودون ان نبذل أي عناء لارغامه على الاستسلام لنا • انه ينفر ويهرب ويحزن كلما جربنا ابتعائه بالغصب • ويسلس قياده لنا بكل لين ورفق خلال بعض الاشراقات الروحية المباركة ، التي يخشع تحت اقدامها صاغرا طائعا • في مثل هذه الالتماعات الفريدة من نوعها تنفلق قشرة العالم الخارجية ، وتظهر لمركب رامبو السكران الرؤى المدهشة المحجوبة عن أعين عامة الناس ، والعجائب والغرائب التي لا تخطر لهم ببال ، ويبيح له الكون عن كنوزه الدفينة ، ومحاسنه المستترة • الغشاء يتمزق ويطل عليه سحر الوجود ،

ويشرق عليه نور فائق للطبيعة ، وينتقل الى ما وراء الواقع
ويصبح رائيا . حينئذ تدبر الحياة نحوه وجهها الاسطوري ،
وتتيح له ان يسبر أغوارها ، وينفذ الى أعماق اسرارها . وفي
مجال الخوارق والمعجزات هذا تتكشف له الازهار عن عيون
لبؤات ذات جلد بشري ، وقوس القزح المنتشر فوق البحر عن
أرسنة تلجم قطعانا خضراء . وتتبدى له اعماق المستنقعات
عن شبكة يتخبط فيها تنين هائل ، والابعاد عن شلالات تنزل
الى الاغوار . انه يشاهد تحت الصفحة الهادئة انهيارات
مائية ، وفي الرواسب العالقة بالخلجان السمراء ثعابين
عملاقة يفترسها البق تقع عن الاشجار المعقدة باعثة روائح
سرداء . وان كانت جمالات الكون تهيمن عليه من كل جهة فانه
كان يرغب في دعوة الآخرين ممن لم تمت في قلوبهم بعد روح
الحماسة الطفولية ، ولم تنطفئ في صدورهم جذوة الاندفاع
الشعري ، الى مشاركته الاعجاب بهذه المفاتن : الثلوج ،
الشموس الفضية ، الامواج المتكسرة ، السماوات المضرجة
بالدم . انه يود أن يعرض على الآخرين هذه الاسماك الفادرة ،
والجواهر المكنونة ، التي يستخرجها خياله الخصب من بحر
الشعر ، هذه الملقى السعيدة ، والطرف المثيرة التي يعود بها
من عالم المجهول . لكنه مستغرق في نشوته ذاهل عن كل
ما عداها .

لا شك ان رامبو قد مر بتجربة المخدر التي عبر عنها في
الكثير من قصائد « الاشراقات » وفي بعض مقاطع من « فصل
في الجحيم » ، حيث يعترف بأنه قد ابتلع جرعة من الاقيون

بتحريض نفر من أصدقائه : أحشأؤه تلتهب • قوة المخدر
تلوي أعضأؤه ، تصعقه ، تشبهه • أنه يموت من العطش •
انه يختنق • انه عاجز عن الصراخ • انه يحترق بنيران
العذاب الابدي تحت حراسة الشيطان • لقد حاول الوصول
الى الخير والسعادة والخلص بواسطة المخدر وربما الى
الالهام • لكن هل يستطيع تصوير السراب الذي يلوح أمام
ناظريه تحت تأثير الافيون ؟ ان أجواء الجحيم تستعصي على
الوصف : ملايين من المخلوقات الساحرة ترقص على ايّاق
معزوفة روحية جذابة توحى بالقوة والسلام ، بالمطامح النبيلة
والاماني العذبة ، بالاحلام الجنسية والخيالات الشهوانية
المغرية التي تتوالى في اغواء صمت خارق لا أرضي يخيل
للمدمن أثناءه انه قادر على اجترح العجائب والمعجزات
والايتان باعمال الآلهة • لكن هذا الحلم الجميل سرعان
ما تعقبه خيبة الامل والمرارة وطعم العلقم ، وهذه السعادة
الاصطناعية لا تدوم طويلا ، ولا بد من دفع ثمنها غاليا في
النهاية •

وعندما كان رامبو يعود الى ايّاق الحياة العادي ، بعد
أن يفيق من دوار المخدر الذي قد تكون ملذاته في المرة القادمة
اقوى حدة وشيطانية ، فانه كان يتمنى ارتكاب اثم ما ليهوي
الى هوة العدم بحسب الشريعة البشرية ، ولينجو من حالة
التفاهة والانحطاط والموت الروحي التي بات يعاني منها بعد
خروجه من دوار اللذة • لقد أصبح تواقا الى أي حدث ،
أية جريمة توقظ فيه الحس بالحياة ، وراح يشعر بالخلجل

والندم ، بالقذارة والحقارة ، ببطلان كل اعماله وسخافة كل غضباته . لقد كان مخطئاً عندما استسلم لهذه النعمة الوهمية ، وهذا الفردوس الاصطناعي ، لهذه الشعوزات والعطور الكاذبة والالحان المزيفة المضللة . لقد انخدع تحت مفعول الافيون . واعتبر للحظة خاطفة انه يمتلك الحقيقة ، ويقابل العدالة ، ويلقي على الامور حكماً سليماً وقاطعاً ، ويبلغ درجات عالية من الكمال . يا للغرور الباطل والكبرياء الكاذبة . ان جلدة رأسه تجف . انه في حالة يرثى لها . انه خائف . انه عطشان . انه يتحسر على طفولته الضائعة :

« . . . العشب ، المطر ، البحيرة فوق الاشجار . . . »

ضوء القمر ، وقبة الجرس ، وكل معالم البراءة والطهارة المفقودة ، كل الوقائع المحفوظة من عهد السعادة الحقيقية الوحيد . الا يوجد ثمة نفوس شريفة نقية هناك في دنيا الخير والعفة تفكر فيه وتشفق عليه ، تتفهم وضعه ، وتبدي استعدادا للاستماع الى اعترافه ، والتعاطف مع مأساته ومساعدته لا ، انها اشباح لا تسمع . على كل حال لا احد في العالم يفكر بالآخرين . كل انسان مسجون ضمن جدران انانيته الضيقة . وحذار أن يقترب منه شخص ثان اذا أن ثمة رائحة كريهة تنبعث منه .

نعم لقد عرف بفضل المخدر هذيانات لا تعد ولا تحصى فقد اثناها كل حس بالماضي والتاريخ والزمن ، ونسي كل المبادئ والشرائع والقوانين ، ومرت بباليه التماعات

واشراقات يحسده عليها اكبر الشعراء واصحاب الرؤى •
لكنه لن يصف ما شاهده وسيضن بهذه الكنوز والجواهر
الفريدة التي همت عليه • جرعة واحدة من الافيون وتتوقف
ساعة الحياة ويخرج المدمن من العالم • اللاموت على حق
عندما يصور الجحيم على أنه قائم تحت الارض ، فالغرائز
المدفينة في المرء والشهوات البهيمية ، والناحية القذرة فيه هي
التي تقوده فعلا الى الشقاء : الرذيلة ، السكر ، الحشيش ،
والرغبات الدنيئة المنحطة ، هي سلام ينحدر عليها نحو الدرك
الاسفل •

ان المخدر هو انحلال من فرط اللذة ، وكابوس ، ونوم في
عش من اللهب، يوم متعاطيه أنه قادر على اكتشاف كل
الاسرار الدينية والطبيعية على التنبؤ بالولادة والموت ،
بالمستقبل والماضي ، وعلى الامام باسرار الخليفة والعدم
واستحضار الارواح • انه يلقي في روعه أنه حاصل على جميع
المراهب : رؤية ما لا يرى ، الانفصال عن الواقع ، قراءة
الغيب ، الاستماع الى أغاني الزنوج ، مشاهدة رقص
الحوريات ، القدرة على الطيران والاختفاء ، والذهاب للبحث
عن خاتم ثمين اسطوري ، العثور على الكنوز ، واكتشاف
علاجات تشفي من كل الامراض • حتى لتأخذ رامبو ، تحت
تأثير المخدر ، موجة من الحنان والحب نحو جميع البشر
فيطلب منهم بعطف أن يضعوا ثقتهم به كي يساعدهم ، ان
يؤمنوا به كي يتمكن من أن يقودهم الى الخلاص ، ويشفيهم ،
ويعزيهم ، ويوزع عليهم قلبه المدهش العامر بكل هذه المشاعر

الجياشة ، المشفق على كل البؤساء والكادحين ، الذين يستغني عن أدعيتهم وصلواتهم ، ويكتفي بتعلقهم وحسن ظنهم به ، التي هي وحدها قمينة بان تمنحه السعادة القصوى • انه يدعو الجميع أن يأتوا اليه ، وحتى الاولاد الصغار ، كي ينفحهم هداياه ، ويغدق عليهم خيراته بسخاء •

اما في قصيدة « صبحية سكر » في « الاشراقات » فان رامبو يعلن أن لذة المخدر هي كنز ، هي عالم من الجمال المذهل مباح لنا وحدنا ، هي موسيقى عجيبة تهبنا الثبات والاستقرار الكياني ، هي نقطة ارتكاز تؤسس عليها وجودنا ونرسخه • انها تحدث ثورة مباركة في أعماقنا ، انقلابا روحيا طالما تقنا اليه ، ولا يمكننا التعبير عنه ، وتخلق من جسدنا جهازا مدهشا نشعر اننا نستعمله لأول مرة • انها تعيدنا الى مملكة الطفولة الضائعة وتبقينا طوال مدة استمرارها عائشين بمرح وحماس ، بدهشة وانسجار الاولاد الصغار • ان سمها يبقى متغلغلا في شراييننا حتى بعد ان ينتهي مفعولها ، حتى بعد ان تكف المعزوفة وتدير الفرقة الموسيقية ظهرها وترحل تاركة ايانا لحالة اللا انسجام القديمة، ودوامة العذابات السابقة التي حررتنا منها • فنذكر بوجود الوعود الخارقة للطبيعة ، الفائقة لطاقة البشر التي اغدقتها علينا ، على جسدنا وعلى روحنا ، اللذين أعادت خلقهما من جديد • هذه الاغراءات الشيطانية بالغنى والقوة والمعرفة ، بتحطيم لوحة الشرائع ، وتجاوز قيم الخير والشر ، وكل الانظمة والقوانين ، وشتى انواع الطغيان والقهر ، والكبت والعسف ، لنعيش بحرية مطلقة ، ولنتصرف على هوانا

ومزاجنا • اننا نحس بشيء من القرف أول ما نتناول
الافيون • ولكننا ننتهي بالشعور بان عرسنا من الالوان
والروائح تسكر حواسنا • ان لذة المخدر سريعة الزوال
للاسف ، لاننا :

— « ••• لا نستطيع ان نلتقط للتو هذه الابدية ••• »

بهجة الطفولة ، نسيان العبودية والذل ، موجة من
الاكتفاء والزهد بكل خيرات هذه الدنيا ، نوبة اشمئزاز من
كل وجوه ومشاهد هذه الارض ، هذه هي الذكرى المقدسة التي
تبقى من المخدر الذي يبدأ بانفعال فج وينتهي بانطباع ملائكي
هو مزيج من جليد ونار ، هبة باردة وهبة ساخنة • ان دوخة
الافيون محمودة حتى لو لم ينتج عنها سوى هذا القناع من
الفرح الذي تضعه على وجوها • انها منهاج فعال في
تشويش كل الحواس • انها تحملنا على النظر باعجاب
وتقديس الى كل مرحلة من مراحل عمرنا وتمجيدها واحاطتها
بهالة من البطولة والعظمة • انها تدفعنا الى الايمان بمفعولها
السحري والتضحية بحياتنا من اجل الحصول على نعمتها
وامتيازاتها ، فزاهر عاليا بقيام دولة الحشيش واستتباب
سلطانها الأسر •

يقول رامبو في قصيدة « H » في « الاشراقات » ان
المدمن يند عنه بفعل الحشيش حركات بهيمية • انه في وحدته
يبلغ درجات من اللذة تضاهي متعة الوصال الجنسي • انه
في تراخيه وخموله وانحلاله يملك في جسده كل حيوية

والحب وطاقته المتفجرة • ان المخدر يعيده الى عهد الطفولة
ويدعه يتجول في فردوسها المفقود • من هنا انه كان دائما دواء
روحيا ناجعا طالما تعاطته الشعوب منذ أقدم العصور • ان
الحشاش محكوم عليه بالبؤس والشقاء والتحلل الخلقي، اما
بسبب النتائج المدمرة التي تتركها الجرعات الفتاكة في صحته
الجسدية والنفسية ، واما بسبب تعلقه بالمخدر الى حد الهوس
والجنون • وكما ان نشوة الافيون تملو على لذة الجماع
والاستمناء فانها ايضا تفرقهما اضرارا بالجسم • انها
تستنزف دم ضحيتها ، وتسبب له الاختناق البطيء ، وتتحول
الى سم يجري في شرايينه ، وسلاسل تقيده ، وحاجة ملحة
يعجز عن الاستغناء عنها •

اما في قصيدة « مسائية مبتذلة » في « الاشراقات » فان
رامبو يعلن أنه تحت تأثير المخدر، ها ان نفسا سحريا يحدث
شروخا جديدة في فسوخ البنايات ، كتلة التي تحصل عند
تغيير اطار المسرح • وها ان السطوح تختلط ببعضها وتمحي
معالمها • ها ان المنازل تتفرق وتتباعد • والنوافذ تخسف
أضواءها • والعالم الواقعي يطمس أثاره • وها ان رامبو ،
دائخا من اللذة ، منزلقا في دوار الغبطة ، محمولا على أمواج
الشهوة الهائجة وسكرة الحس المهنوءة المريحة ، يركب عربة
المخدر التي تشوه مراتها الاشكال ، تبديلها ، وتجعلها تهتز
وتتراقص ، التي تقوده الى الغيبوبة والذهول والانعزال عن
العالم ، والتي تدور عجالاتها على درب العالم الذي محت
معالمه • لكن مفعولها ليس كاملا • لا يزال هناك ثمة ثغرة

ضئيلة في الجسم يتسرب منها الوعي ، ولا يزال هناك قسم صغير في المرأة تنعكس عليه الاشكال بحجمها الطبيعي السابق صاحبة بعض الشيء ، شاعرية ، شهوانية ، باسمة . ثم هذه ألوان الحياة تقتحم الصورة مؤذنة بالعودة ثانية الى ضجر الواقع اليومي . عربة النشوة تنفك عن خيولها وتتوقف . هل جاءت ساعة الندم ، وموعد الانسحاق والانحطاط . هل حان وقت لساعات السوط الدامية ، والغرق في مياها صاحبة وأمواج متلاطمة ، والعواء ككلب مسعور ، الان وقد سفت كل قناني الخمر على الارض ، واستنفدت السكره ، وهدرت المتعة . أم ان الحوذي والخيول الاسطورية ستستأنف تسير عربة اللذة عبر كثافة هذه الغابة ذات الاشجار العالية ، التي يختنق المرء تحت ظلالها ، وستزج به من جديد في ينبوع الغبطة . »

في قصيدة « سهرات - ١ » من « الاشراقات » ينقل المخدر رامبو الى مرج أخضر يستلقي فيه بلذة ، ويتمدد باسترخاء على سرير مريح نائما دون ان يغمض عينيه ، متحررا من كل مرض جسدي أو نفسي من كل حمى أو ضجر . لكنه برفقة صديق يحضه الود خالسا ، ويرتاح كلية الى عشرته الحميمة ، صاحب رائق معتدل لا هو بالجامح المتهور ، ولا هو بالغائر الضعيف ، لا يمكن ان يزعه او يؤذيه بأي تطرف . لكنه في جوار حبيبة لا تعرف للهم والقلق معنى ، ولا يمكن ان تكون مصدر هم وقلق لاحد ، ينعم قريبا بالاستقرار والامان . لكنه بلغ درجة الاكتفاء والاكتمال ،

وحقق كل رغباته ، ونال كل ما كان يصبو اليه ويتمناه ، فلم يعد له على الحياة أي مطلب ، ولم يعد يسعى وراء أي من امور هذه الدنيا . لكن النشوة الاصطناعية الناتجة عن المخدر سرعان ما تزول وتتبدد كالطم الجميل . حتى ليتساءل المدمن : ماذا ، أهذا كل شيء ؟

في قصيدة « سهرات - ٢ » يرى رامبو عبر نافذة ان الشجرة المستندة الى الحائط التي يطل عليها بمنظار المخدر هي مشعة منيرة . وان الاثاث الحقيق ، الذي يتطلع اليه من طرف الغرفة العادية النافذة ، يتعالى ويلتحم آيات من الذوق والانسجام . وان الجدار يعكس أمام عينه الساهرة سلسلة من المشاهد الوهمية من خلق مخيلته السكرانة : قطع من السماء ، شريط متلاحق من التحولات المناخية والمناظر الارضية المدهشة ، والمشاهد المسحورة . وان جماعات من العشاق مؤلفة من كائنات من شتى الطباع ، ومختلف الاشكال تنساب أمامه في حلم كثيف وسريع .

واخيرا في قصيدة « سهرات - ٣ » يوهم المخدر رامبو الساهر في غرفته ان المصابيح والسجاد تبعث ضجة امواج ليلية على متن الباخرة او على طول رصيف الميناء . ان بحر اللذة الذي يهدده على تياره في هذه الامسية هو شهواني دافئ عطوف كنهدي امرأة حنونة . حتى الزينة الجدرانية تدب فيها الحياة تتحرك وتترأى له خميلة من الدانتيل ، وصبغة من الزمرد ترتقي حمائم السهرة في خضمها . كما انه يلمح من خلال حديد المدفأة السوداء شمساً رائعة تغرب على

الشيطان ، وأبارا سحرية تنضج بالعجائب تطل منها أخيرا
رؤية وحيدة للفجر الحقيقي .

ان الانسان في حياته اليومية العادية ينزع بدافع من
حياء ، او من رغبة في التخفي وعدم البوح بأسراره الحميمة
الى مراقبة انفعالاته وكبح جماحها ، وكبت الحافز الى
التعبير عنها . لكنه تحت تأثير المخدر يكشف عن العواطف
التي كان يخنق صوتها من قبل ، ويفصح عن مكنون صدره ،
ويفضي باعترافات ما كان في حالة الصحو ليجرؤ على
الادلاء بها . انه يكون في حالة من اللاوعي لا يفكر معها
بصقل أفكاره وتشذيبها فيترك الرؤى التي عاد بها من هناك
على حالتها الطبيعية دون مساس باصالتها وعفويتها ، ودون
تشويه لقدسياتها وبكارتها . المخدر ورود مريعة من الحب
والحنان ، وسيلة للاشراق والالهام مليئة باللعنة والحزن ،
انها امتلاك اصطناعي لعالم مسحور يادخ عامر بالهوريات
واميرات الاحلام من كل الاجناس الغريبة ، والقدرة على
اختراق حجب الغيب واكتشاف المجهول ، يضطر رامبو للجوء
اليه عندما يبلغ حدا بعيدا من الخيبة والمرارة ، وحين تصبح
حانات الامل مغلفة في وجهه الى الابد .

وهكذا نجد أن الرائي في النهاية يدفع غالبا ثمن
تشويش كل الحواس ، وارتقاء الذرى الروحية . حتى ان
اعصاب رامبو تنهار ومزاجه يصبح قائما بسبب تعاطي الشعر،
وانتهاج أسلوبا غريبا في العيش هو بمثابة وداع للعالم ،
وهو ما يمتدحه رينه شار فيه ، اذ يقول :

ـ « ٠٠٠ وثبة الجسد والروح العابثة هذه ، طلبة المدفع هذه التي تصيب هدفها مفجرة اياه ، نعم ، هذه هي بالفعل حياة رجل ! ٠٠٠ »

ان رامبو هو مغامر تائه يضيع مركبه السكران في اخطر المجاهل وأقصى الابعاد ، حيث لا تتوغل قدم ، ماحيا كل الآثار وراءه ، مموها كل المعالم لكي لا يتمكن أحد من مطاردته واعادته الى العالم الذي هرب منه . انه يمضي حرا فوضويا فقيرا شريدا مليئا بالاحلام ، مخترقا بنظره الثاقب حجب الواقع الكثيفة لينفذ عبرها الى كنوز الجمال والى أجواء قائمة فيما وراء العالم المألوف ، مستسلما لرياح الجنون ، محمولا على عربة رعناء تقودها أفراس الخيال نحو بلاد العجائب والغرائب ، مرتعدا من الخوف احيانا لمجازفاته المتهورة ، ولتوغله بعيدا في مناطق المستحيل ، متحسرا هو الشريد وجواب الآفاق على مسقط رأسه ، وعلى دنياه القديمة التي هجرها ، والتي يحن الى العودة نحو حياة الدعة والامن والاستقرار فيها . ان اسلوب « التشويش المنهجي لكل الحواس » وهو نسق شاذ في العيش يتبعه « المركب السكران » يتيح له الوصول الى اكتشافات فكرية غير مباحسة للبشر العاديين الذين يسلكون نظاما مألوف ومتعارفا عليه . هناك في هذه الجزر البكر التي يصل اليها بعد رحلاته الجريئة يعثر على الاشراقات الفريدة ، والخواطر الطريفة ، والالهامات المدهشة تستيقظ قواه الروحية الهاجعة من سباتها العميق ، ويستعيد خصوصيته الفكرية ، ونشاطه الخلاق . ان الوحي لا يتخذ له مسكنا ومقرا الا في هذه الاجواء الخارقة للطبيعة، وجواهر

الفن الدفينة لا تكمن الا في هذه الاعماق التي لم يسبر لها غور . لكن بما أن هذه الالهواء العنيفة والشهوات المتوحشة والسكرات والانفعالات والهذيانات المؤاتية وحدها للابداع الشعري متعبة وصعبة ، قاسية ومحطمة للاعصاب ، فان من يتبع طريقها المحفوف بالمخاطر والاشواك يتوق الى الخلاص من الرعب والمرارة المتربصة به على جوانبها ، الى التحطم الكلي على صخورها ، والفرق النهائي في مهاويها ، ليفنى ويهلك ويرتاح . من هنا ان مركب رامبو السكران يأسف على حالته الماضية الهادئة رغم تفاهتها وبرودتها وبشاعتها ، وعلى المستنقع الآسن الذي هجره ، ويتمنى الرجوع الى مناخ التعاسة القديم ، حين كان يكتفي بالسفر بالحلم ، والهرب بالوهم وبناء قصور من الورق . فلقد تعب ومل من ابحاراته الهوجاء فوق الامواج الصاخبة والمضطربة ، ولم يعد يبرسه تحدي القوانين والتمرد على الانظمة الى ما لا نهاية ، والاستمرار في احتقار الشرائع والتقاليد والاستخفاف بالقصاص والعقاب ، والبقاء دائما عرضة لكل هذه العيون الناقدة العدائية المسلحة عليه شذرا من كل جهة لتلومه على مسلكه الغريب . نعم لقد بات بحاجة الى القاء السلاح والعيش بسلام مع قضاته وجلاديه وسجانيه .

وهكذا نجد في قصيدة « اوفيليا » ان هذه الفتاة ذات الطبيعة الشاعرية الخيالية تموت بسبب رؤاها الكبيرة : حنينها الى الحرية ، طاقتها على الاحلام ، عشقها للطبيعة ، وترقيها الى الجهول والمطلق ، حبها العذري . كما ان رامبو يعلن في ختام « فصل في الجحيم » :

ـ « ٠٠٠ ان النضال الروحي هو اكثر وحشية من حرب الرجال ٠ لكن رؤية العدالة هي متعة الله وحده ٠٠٠ »

فالحياة الفكرية هي صليب ودرب جلجلة ، وما يعانیه شهداؤها من ضعف العذابات والآلام والاذلالات والاهانات ، وما يتحملونه من مشقة ومجهود يفوق اضعاف المرات ما يبذله غيرهم ممن يخوضون غمار الواقع العملي ٠ ان فرسان الكلمة لا يخرج منها أحد من الساحة منتصرا ٠ ان مصيرهم المحتوم هو المرض والجنون والهلاك جسديا وروحيا ٠ ان المغامر الذي يطلب المستحيل يجب أن يدفع عمره ثمنا لذلك ٠ يجب أن يحرم نفسه من كل سعادة أرضية ، من كل امتياز دنيوي ، ومن كل مغنم ومكاسب هذا العالم ٠

ولقد اعلن رامبو في رسالته المؤرخة في ١٥ ايار ١٨٧١ ، والموجهة الى بول رميني ، وهي ثاني خطاب يعرض فيه نظريته حول الرائي بعد ذلك المبعوث الى استاذة جورج ازامبار قبل يومين :

ـ « ٠٠٠ ان الشاعر اذن هو بحق سارق نار ٠٠٠ »

نعم فكما ان برومتيوس سلب النار من الآلهة وأعطاهما للبشر ، كذلك الشاعر باقتحامه للمجهول يطلع على اسرار السماء ويذيعها على أبناء الارض ٠ انه بهذا المعنى :

ـ « ٠٠٠ مسئول عن الانسانية ، عن الحيوانات حتى ، يجب أن يجعلنا نحس ، نلمس ، نسمع اختراعاته ، اذا كان

ما يأتي به من هناك له شكل ، فهو يعطيه شكلا ، اذا كان بلا شكل ، فانه يقدمه بلا شكل . العثور على لغة ، - على كل حال بما ان كل عبارة هي فكرة ، فان عهد لغة عالمية سيأتي ! يجب أن يكون المرء أكاديميا ، - اكثر موتا من هيكل عظمي ، - لينجز قاموسا ، بأي لغة كانت . ثمة أناس ضعاف قد يأخذون بالتفكير حول أول حرف من الابدية ، مما قد يدفعهم سريعا نحو الجنون !

هذه اللغة ستكون من الروح الى الروح ، مختصرة كل شيء ، روائع ، أصواتا ، ألوانا ، من الفكر تعلق الفكر وتسحبه . . . »

لكن لا يكفي ان يلتقط الشاعر الرؤى الخفية بل عليه أيضا وقبل كل شيء أن يتمكن من التعبير عن هذه الاكتشافات الروحية العميقة ، وان يصفها لنا بنوع أن نحسها ، ونسمعها ، ونشمها ، أن نراها بأب عينا ، ونلمسها لمس اليد . عليه ان يجسدها أمامنا تجسيدا حيا . اذا كانت السطور التي يقرأها في كتاب الجهول واضحة ومفهومة ويمكنه ان ينقلها ويعطيها شكلا محددا فانه يصبها في مثل هذا القالب . أما اذا كانت غامضة ومستعصية على الادراك ، اذا كانت لا تملك ملامح معينة ، ولا يمكن الافصاح عنها ، وتسميرها في اطار ثابت فانه يرسمها في الخطوط المبهمة التي ظهرت بها ، ويعطينا اياها كما فرضت نفسها عليه أي في حالة اللاشكل . المهم بالنسبة للشاعر هو العثور على لغة حية تنفذ الى حقيقة الشيء ، وتكون مطابقة تمام المطابقة لدلولها ، بنوع ان تبعثه

امامنا كما هو في ذاته بمجرد ان تلفظ عباراتها ، تكون بمثابة زر لا نكاد نضغط عليه حتى تظهر الصورة المطلوبة جلية للعين .

ان مثل هذه اللغة ، التي تضع العنوان المضبوط على المسميات ، تتحرر من كل الاصطلاحات الآلية ، والرموز النفعية المتداولة ، والاساليب العملية التي نستخدمها بها ، والدلالات الذاتية التي نلصقها عليها زورا وبهتانا ، والتي لا تمت الى جوهر طبيعتها بأي صلة . بنوع انها عندما تدعو الشيء فان النداء يكون مرادفا لهذا الشيء كما هو بالنسبة لكل انسان ، لا كما هو فقط بالنسبة للشاعر ، الذي يتجاوز الفردية والمحدودية ليبلغ الشمولية والمطلق . وهذا ما يعنيه رامبو باللغة العالمية . يجب افراغ الكلمات من محتواها القديم ، الذي لا يعني في حقيقة الامر شيئا ، واعادة خلقها وتركيبها ثانية ، وشحنها بدفقة جديدة تفجر فيها طاقات غير معهودة . ان لفظة « باب » لا تكفي للتعبير عن مصراعين من الخشب ، ومسكتين من النحاس ، ومزلاج ، وثقب . ان كلمة « بيت » لا تفي الحيطان والحجارة والقرميد والشبابيك والشرفات حقها من الوصف . بل ترمز اليها من بعيد وتلمح اليها تلميحا شاحبا . ان القواميس لا تحتوي الا على مفردات مينة . وكما انه يجب على الشاعر اخضاع حواسه لمنهج الاختلال . فانه يتحتم عليه ايضا تشويش معاني الكلمات ، وتفكيكها عن بعضها ، واعادة رصفها من جديد . وهكذا يخلق لغة داخل اللغة لا علاقة لها باللهجة المكتوبة او المحكية

في بلاده اكثر مما لها في أي انسان اجنبي ، عبثا ما نحاول أن نفهمها بالعقل والجدل • لاننا قد نصاب بالجنون من جراء ذلك • اذ انها قد قضت على العلائق والروابط المنطقية بين الكلمات التي أفرغتها من مداليلها القديمة واستخدمتها لأغراض شعرية اشراقية ، غامضة وغريبة عن الغايات النفسية العملية التي كانت تسخرها لاجلها عادة •

ان رامبو بهذا المعنى قد الغى من قصائده كل مقومات السرد والشرح والبرهان ، اي كل ما ليس رؤيا باطنية ، وهذا سر ابهامها واستغلاقتها • فكلما خف عنصر النثر ، الذي هو الموضوع ، في الشعر ، كلما اقترب هذا الاخير من الغموض ، الذي هو من جوهر طبيعته • ان ماللارمييه ، الذي تقل نسبة النثر في ابياته ، هو معقد جدا عسير الفهم • بينما فيكتور هوغو ، الذي ترتفع هذه النسبة في عطائه ، هو شفاف سهل المثال • ومن هنا توجه نتاج الاول الى النخبة فقط ، وشعبية نتاج الثاني ، الذي يفتح ابواب فن القريض للذين ليسوا مؤهلين للولوج منها ، لانه بالضبط انما يقدم لهم نثرا تحت ستار الشعر •

ان هذه اللغة التي ينادي بها رامبو تصدر عن اعماق روح الشاعر وتخطب قلب القارئ مباشرة • انها تنبثق من وجدان الاول وتناجي ضمير الثاني ، تستولي عليه ، تشده اليها ، تجذبه نحوها ، وترفعه نحو الاجواء العالية التي استشرفتها • انها لغة صادقة لانها نابعة من الاغوار الداخلية ، وهي لذلك تجد صدى وتجاوبا في نفوس الآخرين • انها

تعطينا اللون والصورة والصوت والرائحة كما هي في ذاتها ،
وتتيح لنا أن نراها ونذوقها ونلمسها ونسمعها ونشمها ملء
حواسنا ، انها تقدم لنا الفكرة والعاطفة بنكهتها المميزة
الخاصة واصغر علاماتها الفارقة ، وتجعلنا نعيشها بالفعل .

لقد كان رامبو يؤمل بفضل الكلمة الغريزية العفوية
التي يستعملها ان يتوصل يوما ما الى مخاطبة جميع
الحواس ، بعبارة شعرية تكون ملكه الخاص ، تنقل صوته
هو الاصيل ، غير المستعار من أحد ، لهجته الفريدة المتميزة ،
وسماته الفردية الشخصية المستقلة . لقد حاول رسم
ما لا شكل له ، واسماعنا ما لا صوت له ، والتعبير عن
الرؤى الشعرية التي شاهدها بلغة الهذيان التي تلائمها .

ان المبالغة عامة ، والمبالغة الكلامية خاصة هي احدى
مميزات الطفل الرئيسية . وهي عند رامبو على نوعين : كمية
وكيفية . اما الاولى فمن اعراضها : اولا : **المضاعفة العددية** :
« مليار من الرعود » « مليون من العصافير الذهبية » « مئة
الف مذبح في الكاتدرائية » ثانيا : **التسريع** : (وهو النتيجة
الحتمية لنفاد الصبر الطفولي) والامثلة عليه كثيرة في شعر
رامبو : « الغيوم السماوية التي تركض وتطير » « قبة صغيرة
ركضت على رقبتك » الخ . ثالثا : **العملقة** : اذ ان نعوت من
عيار « ضخم – هائل – واسع – لا نهائي » تتكرر باستمرار
في قصائده . اما المبالغة الكيفية فانها مألوفة جدا لديه . فهو
اذا سلط الضوء مثلا على مزاياه لظهر على شكل « امير شاب
وقوي يسكن قصرا جميلا » واذا ذاق طعم الهدوء والسكينة

النفسية ادعى أنه قديس • وإذا عرف بعض التعقل جاهر بانه عالم • انه يسمى الانسان الطيب ملاكا • بينما يلقب الرديء بالخنزير • ان الفقير عنده يتحول بفعل المبالغة الى شحاذ ، والضعيف ينحط الى طبقة « الجنس الناقص » ان الفوضوي المتمرد على القوانين الخلقية والتقاليد المكرسة يمسح في عينيه الى وحش اى زنجي • ان نزعة شر بسيطة فيه كافية كي يتهم ذاته بانه ابليس رجيم • كما أنه لا يحتاج الى اكثر من بعض الاضطرابات النفسية الطفيفة ليعلم انه مجنون لعين للغاية •

ان معظم الكتاب منافقون متصنعون لا يعيشون بالفعل المشاعر والانفعالات التي يعبرون عنها ، بل يمثلونها تمثيلا • اما رامبو فانه يحيا قصائده بصدق واخلاص • ولا يوجد اي فارق عنده بين الحقيقة والكتابة • ان وراء كل كلمة ينطق بها حافزا حياتيا وتجربة مصيرية ، ابحاثا طويلة وصلوات ضارعة • ان كل لفظة يتمخض عنها هي ثمرة ممارسته لعمره بزخم وقوة وعنف ، وتعمقه في اسرار قلبه ، وتحليله لخلاجات نفسه الخفية ، واكتشافه لكنوزه الداخلية، ودراسته لاحاسيسه التي لا ينخدع حول طبيعتها ، بل يفحصها بجرأة وتفهم جوهرها •

ليس عيب الرومنطقي في انه يصف عاطفته ، بل في انه يسيء تصويرها باضفائه هالة درمائية عليها ، بتضخيمه للامور استدرارا للشفقة ، بتمثيله ادوارا مأساوية يعرف انها تضرب وترا حساسا عند القارئ • انه كذاب يزيف قلبه ويبالغ في التفجع والبكاء والعويل ، ويرسم لا عواطفه

الحقيقية التي عاشها في الواقع ، بل صورة خاطئة عنها
لا تكاد تمت اليها بصلة ، صورة مائعة بقدر ما هي
مصطنعة . ومن هنا قول رامبو :

– « ٠٠٠ ان مصدر تفوقي هو اني بلا قلب ٠٠٠ »

لكن الرومنطقيين ينجحون احيانا قليلة في العثور على
النغمة الصحيحة التي ترجع صدى مشاعرهم الاصيلية .

ان كل عبارة خطها قلم رامبو لها مغزى رغم مظهرها
الغامض اللاواعي اللامنطقي . ألم يصرح امام والدته
التي سألته عن معنى كتابه « فصل في الجحيم » :

– « ٠٠٠ اردت أن أقول ما يقوله النص أدبيا وبكل
المعاني ٠٠٠ »

فالكلمة الشعرية هي أشبه بورقة نقدية لا قيمة لها ان
لم تكن تملك تغطية ذهبية هي المعنى . قد تكون هذه السبائك
مخبوءة في جهة مجهولة . قد نكون عاجزين عن العثور
عليها . لكن يجب أن تكون موجودة في نقطة ما ، والا
أصبحت العملة مجرد قصاصة من الورق لا قوة شرائية لها
ولا منفعة منها . فلنبحث ونبحث عن المضمون المستتر خلف
الشكل حتى اذا عجزنا عن الاهتداء اليه فالذنب يقع علينا ،
لأننا ضللنا الطريق ولم نحسن التنقيب ولم نبذل الجهود
الكافي للوصول الى الكنز . واينا أن نتهم القصيدة بانها بلا
معنى فهذه أكبر اهانة يمكننا ان نوجهها الى الشعر . ربما كان

الجوهر متحجبا • ربما كانت عيوننا عاجزة عن رؤيته • لكن ما يعطي المحارة قيمتها هو ايماننا بان الملؤلؤ مكنون في جوفها ، ثقتنا بان هذا الورق الموضوع بين يدينا له تغطية ذهبية مكفولة ومضمونة ولا شك انها محفوظة ومصانة في مكان أمين • أما المزيّفون الذين يطرحون في التداول نقودا مزورة ، ويسحبون شيكات بلا مؤونة ، ويقعون سندات بلا رصيد فانهم دجالون وطفيليون ومفلسون من الشعر ، الذي هو بحث عن الحقيقة وأسمى درجات المعرفة • ان انه يقتحم الاخطار ويجازف في مناطق الجهول ، ويطارد الحقائق الصعبة المستعصية على الادراك ، التي يرمي العلم والفلسفة سلاحهما ويقفان عاجزين امامها • انه يذهب الى الحدود القصوى في التعبير وفي التفكير ، ويتسلق القمم العالية التي يرتد عنها بصر الباحثين كليلا • انه يدق باب المستحيل الذي تبدأ مهمته على عتبه حيث يرفع بقية الرواد راية التسليم •

نحن في عصر العلم • الشعر هو ايضا وسيلة للمعرفة الشاملة ، وهو خالد خلود القيم المطلقة التي يرقى الى مستواها • والشاعر هو المؤهل اكثر من غيره لان يرفع النقاب ، الذي يخفي عن أعين عامة البشر وجه الحقيقة •

— « ٠٠٠ الشاعر سوف يحدد كمية المجھول المستيقظة ، في عصره ، في الروح الكونية ٠٠٠ »

ان ما يميز الانسان عن الحيوانات ، التي تسعى مثله الى اشباع غرائزها ، وارواء رغباتها وشهواتها والحفاظة

على بقائها ، انما هو حب المجهول ، والبحث عن المدهش
والجديد ، وعشق المغامرة ، والحماس البكر . لكن مهمة
الشاعر لا تقتصر على التعبير عن هذه الافكار المستقبلية
والرؤى النبوية التي اكتشفها في دنيا المجهول المباحة له
وحده ، وعلى وصف هذه المسيرة الطليعية التي اقتحم
بواسطتها اصقاعا نائية لم يكن احد ليغامر بارتياحها . انه
طلاع يقف في المقدمة ويقرأ الغيب ، مخترقا الحجب بنظره
النافذ الثاقب . انه عراف يتجلى اسرار الغد ، ويحذر البشر
الاخرين الواقفين وراءه مما تخبئه لهم الايام من اخطار تلوح
في أفقهم فلا يستطيعون رؤيتها كالجندي الكشاف المنتصب
على قمة عالية متطلعا امامه الى البعيد لينذر بقية فرق الجيش
باقترب فيالق الاعداء . ان الشاعر ، بهذا المعنى ، هو
انسان فعال في المجتمع ، وليس عنصرا سلبيا يكتفي بالتغني
بافكاره وعواطفه . انه رسول يهدي الانسانية ويرشدها ويحدد
مسيرتها على طريق المستقبل ، ويساهم هكذا في تطورها ،
ويجرها وراءه نحو هذه الآفاق البعيدة التي تبدت لعينه
وحدها ، والتي لا يستطيع الآخرون رؤيتها بدون مساعدته .
انه بعد أن يتلقى الهبات السماوية يهبط من عليائه الى
مستوى البشر ليفيض عليهم العطايا التي همت عليه ، كي
يستفيدوا منها لانه في لهفته اليهم ، ومحبه اللامتناهية نحوهم
يرفض الاستئثار بهذه الخيرات لوحده ويصر على اغداقها
عليهم بسخاء .

ان الله يتكلم من خلال صوت الشاعر الذي يؤدي خدمة
نافعة للآخرين ، ويضطلع بوظيفة مهمة في المجتمع . انه

لا يكتفي بمراقبة موكب العمل ورصد مسيرته ووصفه من الخارج . انه يتقدمه ويقود خطاه ويشق امامه آفاق المستقبل .

عندما تتحرر المرأة فانها ستصبح شاعرة هي ايضا ، وستروح تفض بكاره المجهول مثل الرجل ، وستقودنا الى عوالم جديدة من الخواطر والاحاسيس ، والى اكتشافات غريبة لا يسبر لها غور لذينة او منفرة . وستقبل نحن ما تقدمه لنا من عطايا وتصفه لنا من تجارب روحية فنستفيد من خبرتها ، ونفهم وجهة نظر الجنس الآخر ، وطريقة شعوره وتفكيره .

ان الديانة في نظر اليقاس ليفي لم يتم ادراكها حتى الان الا بواسطة الرؤوس المفكرة . انها لم تهبط بعد الى القلوب . لقد تجسدت الكلمة وصارت رجلا . لكن العالم لن يعرف الخلاص فعلا الا عندما تتجسد الكلمة وتصبح امرأة . وعندما يحل هذا القبس الامومي في نفس عذراء ملهمة من الله تنقذ البشرية وتعلمها معنى الحب الروحي المقدس .

المطلوب من الشاعر هو العثور على الجديد في المشكل والمحتوى . الامر يبدو سهلا لاول وهلة . الجميع يعتقدون انهم قد تمكنوا من الايفاء بهذا الشرط في نتاجهم . لكن القضية ليست بهذه البساطة التي يتصورونها . ان رامبو ثائر على الاساليب الشعرية القديمة ، والتقاليد الفنية الموروثة . انه يعلن في « فصل في الجحيم » :

ـ « ٠٠٠ يجب ان تكون حديثا بصورة مطلقة ٠٠٠ »

اياك ان تصور عاطفتك بطريقة مباشرة كما يفعل اتباع المدارس الادبية البالية . اياك ان تظهر انفعالاتك وانت تكتب لا تهلل ولا تصرخ بل تكلم بلهجة رزينة هادئة . ان الرؤيا الطريفة تفرض على الشاعر ان يبحث لها عن شكل مبتكر يصبها فيه . وهكذا مع ان :

ـ « ٠٠٠ بودلير هو الرائي الاول ، ملك الشعراء ، اله حقيقي . الا انه عاش في وسط فنان جدا ، والشكل السذي امتدح عنده كثيرا هو مسكين . ان اختراعات المجهول تتطلب أشكالا جديدة ٠٠٠ »

بهذا المعنى فان شاعرا تقليديا معاصرا لرامبو كتيودور دي بانفيل لم يكن ليتورع من ادخال موضوع الزهور ، تلك الحماقات من الغبطة ، الى قصيدته حتى وهو يصف الليل مثلا . لكن القرن التاسع عشر وهو عصر النفعية والمادية الذي لم تعد تلعب فيه الورود اي دور لا يستطيع الا ان يحتقر هذه المناهج الشعرية العتيقة ، التي لا تلجأ اليها سوى الشعراء الصغار الرجعيون ، الذين يعيشون بعقلية عهد الرومنطيقية او القرون الوسطى . اننا لا نرى الزنايق كثيرا في حياتنا اليومية وواقعا المعتاد المألوف . لكنها تتمايل دائما بهاماتها في قصائد تيودور دي بانفيل كاكمام صيادات سائرات بخفر وهدوء . ان هذا الشاعر لو أراد ان يقارن اللون الاسمر بشيء لشببه بورود بيضاء ذابلة او قدرة . أما

إذا شاء أن ينظم قصيدة غزلية فانه يملؤها بذكر الليلك والبنفسج • أن قصائده تقص بالورود حتى الكظة • لكن وصفه الممل لها الذي يعمي البصيرة ويعشى العين هو تصوير غير واقعي وغير مستوحى من معاينتها ومشاهدتها فعليا • اما رامبو فانه لا يجد الورود جميلة بالضرورة ، ولا يعثر فيها على أي مادة للوحي ، ويرى أن استعمالها في القصائد هو دليل على الاجترار الآلي ، لا ينتج عنه سوى شعر صالوني عفى عليه الزمن خال من الطرافة والابتكار ، مصطبغ بالوان عاطفية اصطناعية ، مفعم بسذاجة بدائية مثيرة للقرف • بينما لم يعد الفن اليوم ، والحق يقال ، مجرد مزهرية انيقة • فاشجار الكاجو في عصرنا لم تعد فقط كناية عن أغصان تنتقل عليها القروء وتعرش الاعشاب • لقد باتت تستورد من افريقيا كي تستعمل لغايات نفعية وتستخدم في صناعة المفروشات • أن وردة او زنبقة ليست من الناحية الشعرية بأفضل من سحلة عصفور بحري او ذوب شمعة • ان أي موضوع في الحياة مهما بلغ من التفاهة والموضاعة وحتى البشاعة قد يصلح مادة لقصيدة ومصدرا للوحي • ان أي غرض يحط عليه بصر الشاعر يصبح تحفة ساحرة • فليس الجمال في الاشياء في حد ذاتها ، بل في العين التي تنظر اليها •

انه لمن اضعف الايمان بالنسبة لفنان يريد ان يتطرق الى قضية الورود ان يكون ملما باسرار الموضوع الذي يتناولها • انه لمن المضحك والمزعج ان نرى شاعرا لا يكاد يغادر برجه المعاجي ، ويظل محصورا بين جدران غرفته الانيقة ، مغلقا

نوافذه على الهواء الطلق ، ومفاتيح الطبيعة يتحدث عن زهور البرية ، وزنايق الحقول ، وورود المروج التي لم يكد يلحمها . يجب أن يعبر الشاعر لا عن الحقائق المزدهرة فقط ، بل وايضا عن حقول التبغ والقطن والمزروعات الغربية المدهشة ، التي هي بمثابة مواضيع غير مطروقة ولا مألوفة . ان الشاعر هو معيار الجمال هو الذي يضيف صفة الحسن او القبح على الاشياء . ان الورد ، الجميلة في الحياة ، قد لا تكون كذلك في القصيدة . وبركة الوحل ، القبيحة في الواقع ، قد يستوحي منها الفنان مادة لرائعته ،لانه هو الذي يسعر لوحات الطبيعة ويحدد قيمتها . ان حذاء قديما او كرسيًا حقيرا قد يتحول تحت ريشة فان كوخ الى تحفة تصويرية نادرة ابداع بكثير من رسم يمثل مزهرية مليئة بالزهور . ان جيفة منتنة صادفها بودلير على قارعة الطريق ألهمته احدى قصائده الكبرى هو الذي أعطى لديوانه عنوان « أزهار الشر » بمعنى أن الشاعر قد يجني غسل الجمال لقصيدته من مواد هي في واقع العيش بشعة ، منحطة ، ومبتذلة . ليست الورد والمحسن الرفيعة الشأن هي وحدها الجديرة بان ترقى الى مصاف الفن ، وان تدخل في تركيب الاستعارات الفنية ، والصور المجازية ، بل كل شيء قد يؤدي هذه الغاية المنشودة عندما تقتضي الحال : الحيوانات الضارية المفترسة ، المواد الاولى الضرورية والنافعة للانسان والمجردة في الظاهر من أية امتيازات جمالية ، الحشرات والطحالب ، وأخط الأمور قدرا . فالحلم أن تأتي الصورة مطابقة للواقع ومعبرة عنه مهما كانت منفرة وضيعة الشأن . التشبيه ليس حليسة ولا

مسحوقا يضاف لتجميل الوجه • انه ليس زينة اصطناعية ولا
 زخرفا خارجيا • انه وسيلة للكشف عن الحقيقة • وهكذا فان
 الشاعر الخارج لاصطياد قراشات الالهام قد يجد الكنوز
 المرصودة على اسمه في ساحة الوغى ، في اعماق غابة
 تغص بالحيوانات ، في فرقة من الحمير تعمل في زراعة
 القطن ، او في مجرد كرسي بسيط • انه يستخرج من مناجم
 الواقع التي لم يكن أحد ليتصور انها تحتوي على مثل هذه
 الجواهر النادرة احجارا كريمة لم يسبقه أحد الى نبشها •
 انه يزور المناطق البكر التي لم تطوَّها قدم ، والتي لم يخطر
 ببال مخلوق انها يمكن ان تفضي الى مثل هذه البلاد
 المسحورة • انه يكتشف اراض خصبة في المساحات البور التي
 لم يكن شخص ليتوقع امكانية انبات عشبة خضراء فيها •
 انه يفجر الماء من الصخور ، يمتص الشهد حتى من الورود
 المزعومة بلا رحيق ، ويحلب الضروع الجافة • ان بعض
 الشعراء من امثال تيودور دي بانفيل ، الذين يحمل عليهم
 رامبو بشدة في قصيدته « ما يقال للشاعر بصدد الورود »
 يتقنون بالحب ، ويتشبهون بالزهور دون ان يكونوا قد ذاقوا
 طعم الغام ، وان تأملوا خميلة حقيقية • بينما مهمة الشاعر
 الاصيل الجوهريه تتلخص في أن يعزف ، وسط جو البلادة
 والموت الروحي الذي يختنق فيه الجميع ، احنانا مجنونة
 طريفة غريبة تملؤنا بالحماس ، وتفتح في وجهنا افاق البراءة
 والطهارة والدهشة • فلئن كان الشاعر رسول الروح فانه
 ايضا تاجر ومزارع يغذي نتاجه بمعطيات الارض الحسنة
 ومستحدثات العلم المعاصر ، الذي نحن في عهد تفجيره

الشيطاني ٠ من هنا ان على الشاعر ، حسب ما ورد في قصيدة رامبو المهداة الى بانفيل ، أن يزين ابيات قصيدته لا بانزهور بل بأسلاك اعمدة الكهرباء والتلغراف ، والادوية الزراعية المخصصة لمعالجة امراض البطاطا ٠

الا أن رامبو يكف بعد مرحلة معدنة عن الايمان بمهمة الرائي التي نادى بها ٠ فها هو بعد أن ترك الكلمة لفرلين في هذيانات - ١ (العذراء المجنونة) يستلم دفعة الحديث من جديد في هذيانات - ٢ (سيمياء الكلمة) ليروي علينا قصة احدى افكاره الجنونية ، نظرياته الجمالية ، ليحكي لنا كيف أنه كان يدعي باعتزاز فيما مضى بأنه يستشرف رؤى مدهشة ، ويحتقر كل مشاهير الفنانين في زمانه ، ويفضل على انتاجهم : التصاوير الغبية ، الآرماط المعلقة فوق الابواب ، اللوحات المستعملة اطارا لموصلات المهرجين ، الصمدات المشعشة التي يقيمها أفراد الشعب ، الادب العتيق الذي لم يعد مقروءا ، ترانيم الكنيسة اللاتينية ، كتب الجنس الرخيصة المحشوة بالاغلاط الاملائية ، الروايات التي كانت تطالعها النساء في القرن الخالي ، أقاصيص السحر والجن ، كتب الاطفال ، الاغاني الاوبرالية القديمة ، الالحان السخيفة ، الايقاعات الساذجة ٠ وكل هذه التوافه العديمة القيمة في نظر الغير ، والتي تثير خياله الخصب ، فينسج حولها الاف الاحلام العجيبة ٠ انها أشبه باعواد ثقاب صغيرة تكفي وحدها لاشعال الحرائق في مناجم فكره الغنية ٠ لقد كان يقوم بالوهم بمغامرات هي أقرب ما يكون الى الحملات

الصليبية ، برحلات استكشاف نحو مجاهل لا علاقة له بها ، ونحو جمهوريات بكر ليس لها أي تاريخ . لقد كان يعول على حدوث فوضى وبلبلة وفتنة لا ينتج عنها أضرار بشرية لكنها تتيح للإنسان أن يعيش لفترة متصرا من ربة القانون ، وعبردية النظام ، وصرامة الواقع ، وكل القيم والمبادئ الاخلاقية والعادات والتقاليد . لقد كان يتوق الى تغيير القارة التي يقطنها ، واستبدال الاجناس البشرية التي يعاشرها ، والنزوح نحو آفاق أخرى ومخلوقات مختلفة . ولقد كان يعتقد في سذاجته ، ان الخوارق والمعجزات ممكنة الوقوع ، ان كل احلامه السحرية قابلة للتحقيق ، ولا شيء بعيد الاحتمال .

اما في قصيدة « حكاية » في « الاشراقات » فان رامبو يعلن أنه يتضايق أحيانا من أنه لم يتمكن كشاعر من الانفصاح حتى الان سوى عن بعض الافكار والعواطف المبتذلة . لقد كان يتوقع أحداث ثورة في فن الشعر ، ويظن في نفسه القدرة على تطويع الجمال للتعبير عن موضوعات جديدة غير تلك المثاليات الجوفاء والتائف الفارغ والمترف الذهني الباطل . انه يريد أن يرى الحقيقة المطلقة ، وان يتوصل الى لحظة الالهام الفعلية التي تشبع نهمه الروحي العميق ، وتروي عطشه الجوهري ، وتنيله الرضى التام . هل هذا توق جنوني الى المستحيل ؟ هل هو تطرف وجموح تمليه عليه طبيعته الملتهبة المؤمنة بالفن ايماننا أعمى ، المولعة بالذهاب الى الحدود القصوى ؟ ربما . لكنه لا يقبل بما هو أدنى من ذلك . وهناك ثمة ما يبرر هذا العناد والطموح . انه يملك على

الاقل قدرة انسانية واسعة وخارقة للعادة . وها هو يقوم بعملية وأد لكل الالتماعاات الشعرية التي خطرت بباله . وان المرء ليجتاج الى الكثير من الشجاعة المعنوية وقوة القلب . كي يتمكن من تدمير وتحطيم كل هذه التحف الثمينة وكل هذه الورود الساحرة المزهرة في حديقة الوحي . لكن الجمال ذاته يتطلب ذلك ، ويبارك اليد الجريئة التي تخنق براعمه في سبيل الحصول على ما هو أزهى وأنقى وأقرب الى الكمال . بيد ان هذه الخواطر الفنية التي أجهضها سرعان ما كانت تظهر من جديد ، مع انه ما كان ليهفو اليها أو يتقصّد اقتناصها . وهكذا عبثا ما كان يحاول ان يطفىء في ذهنه كل هذه الومضات التي كانت تراوده ابان نزواته وتجواباته الطويلة في الطبيعة ، وأثناء تلك اللحظات المسحورة حين كان يختبر سكرات روحية عميقة ، وحماسات خارقة ، فان هذه التدايعات الجمالية ما كانت تنفك تطارده ، ولم يكن باستطاعته قط التخلص منها والفكاك من اسرها . كما انه يسعى دون طائل الى القضاء على كل تكلف وتصنع ، كل ترف واناقة ، كل ميوعة عاطفية وتبذل انفعالي . اذ ان رواسب من هذه العيوب كلها كانت تظل ماثلة في شعره بشكل ما مهما ضيق عليها الخناق ، وقلل من الحيز المخصص لها في قصائده ، هل يمكن للفنان ان يجد لذة في التدمير ، وان يجدد شبابه ونضارة قلبه بفضل الهدم والقساوة والشر ؟ لا احد من النقاد يلقي نظرة الى نتاجه أو يعيره أدنى اهتمام أو يبدي رأيا حول عطائه ليتمكن من ان يعرف موضوعيا ان كان قد نجح أو فشل . أما اذا اتّيح له يوما ان يحظى بالالهام الاصيل ويقابل

ذلك الجمال الحقيقي الذي لا يعبر عنه ، والذي هو مصدر حب وفرح لا يوصف ، فانه سيفنى ويموت من هول الصدمة وعنق الهزة وضراوة الجهود ، وسيتراجع ويجبـن عن الذهاب الى الحد الاقصى لانه ليس اكثر من انسان ضعيف . وهذه القدرة الفائقة انما تنبع منه هو بالذات ، وهي بالتالي تابعة له ، سريعة العطب مثله ، تختفي بزواله . وهكذا حكم علينا بالآ نترصل ابداً الى اكتشاف الحقيقة المطلقة والجمال الامثل .

ثم نجد رامبو في قصيدة « مساء تاريخي » في « الاشراقات » يصور لنا نفسه على أنه ذلك « السائح المساذج » المنسحب من حومة الحياة العملية والصراع المادي، والذي قد يتوصل الى الرؤيا الشعرية في أي وقت . فاذا ما سمع قرعات الجرس خيل اليه أن يدا سحرية تعزف على أوتار المروج . واذا ما تأمل صفحة مستنقع تراءى لهم أنهم يلعبون الورق في القاع بينما السطح هو مرآة تنعكس عليه وجوه الملكات والحسنات . اما ساعة الغروب فانها توحى له بقديسات ، باوشحة ، بانغام منسجمة ، وبصور اسطورية . ان الشاعر يعاني من ظلم ووحشية القدر ، واستغلال الانسان لاخيه الانسان . انه يشمت بمهزلة الحياة السخيفة ، ويضيق بمشاكل وازعاجات العالم الصعب المعقد الذي يرهق كاهل الضعاف والفقراء . انه يثور ويتمرد أمام مشهد العسف والعبودية هذا ، ويروح يبني بخياله جنة وهمية : الواقع يرتفع الى مصاف المثال، الهمجية والبربرية يتم القضاء عليها،

العبيد يحطمون اغلالهم ، وعلى أنقاض عروش الملوك والطغاة
تشاد مدينة جديدة قائمة على العدالة ، بريئة كالحلم . ان
أبسط حس واقعي عملي ينبؤنا بان هذا المناخ الروحي الذي
يعيشه رامبو في أي بلد يحط فيه عصا الترحال ، ان هذا
الاستغراق في الذاتية والانجراف في تيار التأمل والحلم
واللافعل هو مسلك مستحيل ، وحالة مرضية تحطم الجسم ،
وتملؤه بالمرارة والندم ، وتغلفه بضباب الشك والضعف
والانحطاط ، وتجعله متوتر الاعصاب ، معرضا للانهيـار في أي
حين ، مثالا لابسـط حادث . فكيف لشاعر هذا وضعه
النفسي أن يحلم بقلب نظام العالم . ان الزلازل البركانية
والزجاج التي تهز اركان الكون ، ان الثورات الجذرية التي
تبدل وجه الارض . ان البطش بالظالمين والفتك بالمستغلين ،
والمجازر والحروب التي تفضي الى نتيجة ايجابية وتقيم
العدالة بين البشر ، كل هذه الامور هي وقف على اهل
الجد والرصانة ، على الرجال الاقوياء العمليين لا على
الضعفاء والحالمين من أمثال رامبو الذي يكتفي بتغيير العالم
بالوهم ، ويبني بالخيال دنياوات خرافية أسطورية .

وهكذا نجده يودع الجمال والشعر في نهاية « فصل في
الجحيم » التي كتب في مسودة مخطوطتها ما يلي :

« . . . اني اكـره الان الشطحات الصوفية وغرابات
الاسلوب . . الان استطيع ان اقول ان الفن هو حماقة . . . »

لكن بحسب رامبو أنه توصل في « الاشرافات » الى ان

يفاجيء عالما العادي وهو يخلي السبيل لعالم آخر قائم فيما وراء الواقع ، انذ :

— « ٠٠٠ اننا ، والحق يقال ، لا نخرج تماما ، لا نذهب في الواقع حتى العالم الاخر . لكننا نغادر الوضع الاول للاشياء ٠٠٠ »

كما يستنتج جاك ريفيير ٠ بحسبه أنه نجح في تسجيل ما يلتقطه من المجهول ، محتفظا بالجملة الفجأة البدائية ، المباشرة والغامضة كما أملت عليها القوى الفائقة للطبيعة ، ناقلا الينا روعة لحظات الوجود المليئة التي خيرها ، وصفاء وطهارة الرؤيا السماوية الملائكية التي تبنت له ، ناجحا في أن يعطينا ، كما يقول عنه فاليري :

— « ٠٠٠ أشعة عن نظام آخر ، أو عالم آخر لا يستطيع أن يضيئه أي نور زمني ٠٠٠ »

اما اراغون فانه يصور الاثر العميق الذي تركته في نفسه قراءته الاولى لـ « الاشراقات » على هذا الشكل :

— « ٠٠٠ ذات صباح كئيب ، فتحت « الاشراقات » وها أن وجه الحياة المخيب للامل يمحي ٠ البحار راحت تغلو ، مغنية ، فوق البيوت ، وللكون المنبعث من الطوفان ، راحت ورود مستحيلة تولد ٠٠٠ الملاك الحقيقي يجرفنا في دوار فضاء متعال ٠٠ لا شيء يحدثني بعد ، حر أخيرا ٠٠٠ »

٧ - رحيل

« الجسد هو تعيس ، للأسف ! ولقد قرأت كل الكتب .
الهرب ! الى هناك الهرب ! اشعر أن ثمة عصافير هي سكرانة
لأنها موجودة بين الزبد المجهول والسموات !



سأرحل ! أيها المركب المؤرجح صاريتك ،
ارفع المرساة انتجاعا لطبيعة غريبة !
٠٠٠ اه يا قلبي ، اسمع نشيد البحارة »

ماللارميه

في ختام « فصل في الجحيم » يدرك رامبو أن عليه أن
يخنق عرائس الالهام ويطرد من قلبه شيطان الشعر ، فيكبت
خوافزه ، ويقلع عن كتابته ، هو الذي ظن في بعض ومضان
خاطفة من الوحي والخصب الروحي أنه ملك او ساحر ، وانه
معفى من كل الواجبات الاخلاقية والاعباء اليومية ، غير
خاضع للانظمة والقوانين التي تقيد بقية البشر . ها هو يعي
أخيرا ان عليه أن يعود الى أرض الواقع ويدفن خياله ويضطلع
بالمهمات العادية مثل كل الناس ، وينساق في تيار الحياة
العملية اسوة بغيره فيبحث لنفسه عن شعلة نافعة ينصرف
اليها . هل اخطأ ؟ هل كان على ضلال هل الافكار التي

طالما غذاها في عقله هي مجرد أوهام ؟ هل كان يخدع نفسه ؟ هل بنى حياته الماضية على الكذب ؟ هل المهدف الذي نصبه أمام عينيه مستحيل التحقيق ؟ هل طموحه خرافة ؟ هل الشعر باطل ؟ انه تأثب عن كل تصرفاته الخرقاء ومشاريعه اللاواقعية ، ولن يعود الى المتاهة السابقة التي نصب هدف حياته على طرفها • لكنه وحيد لا أحد يمد له يدا لمساعدته على الخروج من مأزقه ، والتخلص من ورطته ، وانتشاله من هذا الجب العميق الذي زج بنفسه فيه عن طوع واختيار • نعم انه لفي محنة عصبية ، انه لعلى مقترق طرق يجب ان يغير نمط معيشته • يجب ان يتخذ اجراءات حاسمة • لقد انتصر على شيطانه القديم • وأصبح بإمكانه الخروج من هذا الجحيم الذي كان يتلظى بنيرانه بعد أن أمضى فترة عقوبته فيه • الغضب ، النقمة ، التمرد ، اللعنة تخف حدتها • الذكريات القذرة المؤلة والاعمال الشائنة التي قام بها في الماضي تمحى • المرارات القديمة تزول • الحسرات السابقة تتبخّر • لقد استعاد رصانته واعتداله • اما بالنسبة للشحاذين والملصوص والخارجين على القانون وطريدي العدالة والمتخلفين عقليا والمجانين وشذاذ الآفاق ، وكل الناس الغريبى الاطوار ، الخارقين للعادة ، حتى لو كان تميزهم يتم باتجاه الانحطاط والفساد والرذيلة والبؤس ، فانه لا يحسداهم بعد على مصيرهم كما كان يحصل له من قبل • تماما مثلما أنه كف عن التفكير بالانتقام من كل اولئك القوم الملعونين الذين كان لهم اسوأ التأثير على سلوكه •

في عام ١٨٧٥ بعث رامبو برسالة الى صديقه ارنست دلاهاي ضمنها قصيدة عنوانها « حلم » لعلها وداعه النهائي للشعر ، وهو يتصور نفسه فيها جائعا في غرفة صغيرة ضيقة عابقة بروائح جسدية كريهة وأنفاس الحرب التي تهوم في الاجواء (اذ ان احتمال استدعائه للخدمة العسكرية كان واردا حينذاك) . انه يكشف في هذه القصيدة عن نفسية انسان تخلى الى الابد عن أوهامه حول الشعر ، ورضخ ، مرغما صاغرا مليئا بالمرارة وخيبة الامل ، لمعطيات الواقع العملي . ليست الحياة سوى ذلك الصراع المادي المقرف في سبيل المحافظة على البقاء ، ليست سوى ساحة وغى يضطر فيها المرء للدفاع عن نفسه ضد أعدائه ، والكفاح في سبيل انتشار لقمة عيشه ، وان تهاون قليلا في ذلك قضي عليه :

— « ٠٠٠ الجنود يقطعون خبزهم : »

هذه هي الحياة ٠٠٠

أما الموت فانه حادث عابث لا معنى له ، يحصل لنا بصورة غبية ودون أي مبرر . انه يتألم لاضطراره الى الانغماس في ثقافة ومبازل شؤون المعيشة اليومية والتصرف مثل غيره من الناس والاختيار بين امرين : الهلاك جوعا او خوض معركة الحياة المضارية الخالية من الشعر ، منضما الى حلقة البشر العاديين ، خائفا جميع أحلامه الخيالية ومشاريعه الادبية امام سطوة الواقع القاتلة .

وعام ١٨٧٩ زار ارنست دلاهاي رامبو وسأله ان كان

يعنى بعد الادب ، فأجابه هذا الاخير :

– « ٠٠٠ لم أعد اهتم بهذا ٠٠٠ »

ثم أضاف في اليوم الثاني من لقائه الوداعي مع رفيقه
الأنف الذكر في مزرعة روش :

– « ان طقس اوربا الان بارد جدا بالنسبة لمزاجي ٠٠٠
الذي تغير ٠٠ لم أعد أستطيع أن أعيش الا في البلاد
الحارة ٠٠٠ »

كما أنه أعرب ، في نفس السنة في شارل فيل ، أمام اثنين
من رفاقه هنا أحدهما الآخر لحصوله على بعض الدواوين
الشعرية الصادرة حديثا ، عن استخفافه بعقل كل من يشتري
كتبا . وما حاجة المرء الى ذلك ، في رأيه ، طالما انه يملك
رأسا يستطيع أن يفكر به لحسابه الخاص ، وطالما ان المجلدات
الغبراء لا تنفع الا لكي تخفي وراء رفوفها قذارة الحيطان
المتأكلة .

ان رامبو هو الاديب الكبير الوحيد الذي انقطع بملاء
ارادته عن كل نشاط خلاق . ان صمته الطويل ، الذي يهدنا
أقل بكثير من الفترة القصيرة التي تكلم خلالها ، ناتج عن
تقديسه واحترامه للكلمة ، التي انما سكنت لكي لا يدنسها ،
بعد أن خبت الجذوة الالهية في صدره ، وأصبح عاجزا عن
بلوغ ذلك المطلق في التعبير والاحساس الذي تتطلبه نفسه
المتطرفة في كل عطاء شعري . لقد قطع رحلته عندما ادرك
استحالة بلوغ الحدود القصوى . فالشعر في نظره هو كل

شيء أو لا شيء • أنه لا يرضى بالحلول الوسط • كما أن ما يقترضه من زخم روحي هو من الصعوبة بحيث لا يمكن الاستمرار به لفترة طويلة • إذ لا بد بعد كل شد هائل من الارتخاء • وهكذا ظل امينال « زواج العقل الذي اقامه مع المتطلبات الاجتماعية » الذي عنته شقيقته ايزابيل • فكان عظيما عندما تكلم وعظيما عندما سكت • ان رامبو ابن الآردين المنطقة الباردة المغورة بالمطر والضباب معظم أيام السنة يحن الى الشرق بلاد الشمس :

– « ٠٠٠ كنت أحب الصحراء ، البساتين المحروقة ، الكحول الغائرة • كنت انسحب في الازقة المنتنة ، واهب نفسي ، مغمض العينين ، للشمس الهة النار ٠٠٠ »

نعم انه يخشى حدة الشمس الملبدة للحس • لكنه يتوق الى وهج أشعتها المنقذة التي تحرقه لكن لتطهره ، وتبعث من رماده كائنا جديدا • انه يطلب منها ان تقذف بشواظها مدمرة كل معالم الحياة الغربية بأبهة متاجرها وفخامة قصورها ، بضخامة مدنها وتهاطل امطارها المتواصل ، وبمخادعها التي تعشش فيها الرذيلة • انه يشبه نفسه بذبابة سكرانة في ميوالة الحانة تعشق الشمس الذي يكفي مع ذلك سهم واحد من وهجها كي يذبيها شعاعا •

ان حنين رامبو الى الشرق هو شوقه الى بلاد طفولته التي اختفت عن خريطة الارض ، والتي يحاول في غمرة هذا الضباب والعممة التي تلف الكون أن يعيد خلقها من جديد •

انه يقول في « المستحيل » من « فصل في الجحيم » بانه لو حكم عقله قليلا ، الامر الذي لا يحصل له الا نادرا ، لوجد ان كل مشاكله ومقاعبه وازعاجاته ناجمة عن تناسيه انه موجود في الغرب ، موطن المطر والضباب والظلام . لا بمعنى أن يؤمن بتدهور وانهيار اوربا التي تفسد وتفقد اصالتها والتي تشيخ حضارتها وتدخل طور الانحلال والتفسخ ، مرحلة المضعف والتفكك ، وتسير على طريق الضلال والضياح ، بل بمعنى انه يرفض كل القيم الروحية التي سادت العالم منذ أقول الحضارة الشرقية الموغلة في القدم . العقل هو القوة والسلطان ، هو اخضاع الطبيعة لسطوة الانسان ، وتسخيرها لخدمته ، وهو عنوان حضارة الغرب ، علينا ان نخرس صوته اذا أردنا أن نهرب نحو مدينة الشرق ، ضاربين عرض الحائط بكل مقومات الحضارة الاوروبية : تعاليم الكنيسة ، أنوار الفن ، غرور العلماء ، تكالب رجال الاعمال الانتهازيين الجشعين على جمع الثروة ، لنعود الى منبع الحكمة القديمة الخالدة وفجر الانسانية الطاهر . لكن هل الحنين الى الشرق هو حلم بليد بالكسل والتراخي ، بالاتكالية واللافعل ؟ ان عاطفة رامبو ليست من هذا النوع . انها ليست تهربا من جحيم الحياة الحديثة ، وليست اذعانا للقضاء والقدر . لكن ما يغيظه ويثير حفيظته ويبغضه بالحياة الغربية هو هذا التحالف بين الدين والعلم اللذين أصبحا عنصرا واحدا ، واللذين يتواطآن في الاعتماد على البراهين والحجج والادلة الثبوتية ، واخضاع كل قضية للمنطق . ان هذه العبودية للجدل الذهني تسبب لرامبو عذابا حقيقيا . وهو كردة فعل

ضدها يتهاافت على الهذيان واللامنطق واللامعقول • انه لا يؤمن بقانون العلية فنفس الاسباب لا تعطي دائماً نفس النتائج • لان الطبيعة قد تضجر احيانا وتغير اسلوبها ، وتخلق طفرات جديدة غير منتظرة ولا مألوفة •

ما السر في هذه الحالة المتردية التي وصل اليها الغرب ؟ هل هو هذا الطقس الضبابي البارد المطر الموبوء الباعث على المرض ؟ هل هو الادمان على الخمر والتبغ ؟ هل هو الجهل والتعب ؟ وما تفع عالم حديث تفكك به مثل هذه السموم ؟ ما أبعدنا عن بكاره الحكمة وطهارة الفكرة في الوطن الاصلي القديم • لرب قائل ان هذا المفهوم للمشرق هو نظرة وهمية شعرية خيالية لا تمت الى واقعه بأي حال ، وان رامبو انما يعني الفردوس والبيوتوبيا عندما يفكر بهذه البلاد الاسطورية ، التي يكون عنها في رأسه صورة سحرية لا علاقة لها على الاطلاق بتاريخ شعوبها العيني • نعم ان الحنين الى تلك الاجناس البشرية القديمة الطاهرة لهو توق الى الفردوس المفقود • ان رامبو يفكر ربما بشرق ما قبل المسيحية ، ومن هنا اعتراض رجال الكنيسة على تصويره هذا ، ونعتهم اياه بانه وهم وحلم بجنة عدن • ولرب فيلسوف يزعم بان العالم لا عمر له ، وان الحضارة البشرية تنتقل فقط من مكان الى آخر ، واذك تستطيع ان تعيش بعقلية آسييا حتى وانت في اوربا • ان هذا الفيلسوف يفكر بمنطق وذهنية الغرب • بينما الانسان عاجز في الواقع عن الهرب من عصره وقارته • العقل بطيء حذر دقيق لا يغامر • العلم ينهج اسلوب

الاستقراء والاستدلال الذي لا يتوصل بعد مشقة كبيرة الا الى معرفة جزئية • وحده يقرودنا الى الحقيقة الاشراق الفكري الذي لا نبغله الا اذا تحررنا من كل اساليب ومناهج البحث الغربية • ان لحظة من اليقظة الروحية العميقة والتوقد الذهني الفريد تسمو بنا في مدارج الصفاء ، وتضعنا في قلب الحقيقة • اما العقل والمنطق فانه يوجهنا نحو الله وهذا في رأي رامبو :

— « ٠٠٠ قلة حظ ممزقة ٠٠٠ »

يقول رينه شار :

— « ٠٠٠ حسنا فعلت بان رحلت ، يا ارثور رامبو ! سنواتك الثماني عشرة المناهضة للصدقة ، للعداوة ، لسخافة شعراء باريس كما ولفحيح النمل العقيم الصادر عن عائلتك الأردنية المجنونة قليلا ، حسنا فعلت بان بعثرتها لرياح الهرب ، بان رميتها تحت سكين مقصلتها المبكرة • لقد كنت على حق بمغادرتك شارع الكسالى ، ومقاهي المستأدين ، من أجل جحيم الدواب ، من أجل تجارة الماكزين ، وتحية البسطاء ٠٠٠ حسنا فعلت بان رحلت يا ارثور رامبو ! نحن حقنة من البشر ، نعتقد دون برهان السعادة ممكنة معك ٠٠٠ »

كما أن رينه شار يعلن في موضع آخر :

— « ٠٠٠ ان رامبو بهربه ، يحدد اقامة عمره الذهبي في الماضي وفي المستقبل دون تعيين • انه لا يركز نفسه •

انه لا يخلق زمنا آخر على سعيد الحنين ، او على سعيد الرغبة ، الا لكي يدمره على التمر ، ويعود الى الحاضر تلك الدريئة ذات القلب الجائع أبدا السى القذائف ، ذلك المرفأ الطبيعى لكل رحيل . لكن من الاقرب الى الابد فان التوتر هائل . رامبو يمدنا بالعلاقة بينهما . انه يجرفنا ، انه يخضعنا ، مدعنين ، في حركة جدلية فائقة السرعة . ولكنها كاملة لدرجة أنها لا تتمخض عن اضطراب ، بل عن زوبعة مدوزنة ودقيقة تحمل كل شيء معها مقحمة حصتها من الزمن الصافي في صيرورة مستقبلية ٠٠٠ »

لكن رامبو لم يعثر على السعادة المنشودة لا في الحبشة من حيث وجه سنة ١٨٨١ رسالة جاء فيها :

— « ٠٠٠ اني لا اتعلق أبدا بالحياة ٠٠٠ ومن حسن المحظ أن هذه الحياة هي الوحيدة ، وان هذا أكيد ، بما أننا لا نستطيع ان نتصور حياة أخرى أكثر ضجرا من هذه ٠٠٠ »

ولا في عدن التي لا يوجد فيها عشية خضراء ، ولا نقطة ماء عذبة ، حيث الحرارة لا تطاق خاصة في حزيران وايلول ، وحيث اعتاد أن ينام ، بصورة مستمرة ، في الهواء الطلق . ومع انه يحب كثيرا المناخات الدافئة وينفر بغريزته من المطر والوحل والبرد فانه يضرر حقدا لا يقهر لهذا البلد الذي يشقى فيه كالحمار ، على حد تعبيره ، والذي يتوق الى الخروج من أجوائه المبلدة للحس ، قبل ان يكون قد أصبح غيبا كلية .

ان كل يوم يمضي على رامبو في افريقيا يزيده غربة عن

طقس اوروبا ولغتها وأساليبيها في العيش • حتى لقد نعت
سنة ١٨٨٣ مهنة الكتابة بأنها :

— « ٠٠٠ باطلة ، مضحكة ، مقرفة ٠٠٠ »

امام « باردي » الذي سألني لماذا كف عن نظم القصائد بعد
أن علم من أحد الصحفيين أن رفيقه في العمل في الحبشة
وعدن — الذي رفض الرد على أسئلة وجهتها اليه مجلة فرنسية
عارضة عليه أن يسهم التحرير فيها بصفته زعيما للمدرسة
الرمزية — كان شاعرا • ولكن باردي هذا يعود فيستدرك
بأنه كان يخيل اليه ان رامبو ينتظر تجميع ثروة كافية كي
يرجع الى فرنسا ليكرس نفسه للكتابة •

بيد أنه يتبين لنا بوضوح عندما نقرأ الرسائل الجافة
الخالية من أية موهبة فنية وروح ابداعية التي كان يبعثها
رامبو الى أهله من الحبشة وعدن ان الشاعر قد مات في
داخله • انه يؤكد في احداها :

— « ٠٠٠ ايزابيل تخطيء كثيرا برفضها الزواج اذا ما
تقدم لطلب يدها شخص رصين ومثقف ، شخص له مستقبل ••
الوحدة أمر بغيض على هذه الارض • فيما يختص بي ، اني
أسف لانني لم أتزوج ولم أحصل على امرأة • لكنني في الوقت
الحاضر محكوم علي بالتية ٠٠٠ ما نفع هذه الغدوات
والروحات ، هذه المشقات هذه المغامرات وهذه العذابات التي
لا اسم لها ، اذا لم اتمكن يوما ما ، بعد بضعة سنين ، من ان
ارتاح ، وان أجد عائلة ، وان يكون لي على الاقل ولد ، أراه

يصبح مهندسا مشهورا ، رجلا قويا وغنيا بفضل العلم ٠٠٠٩
الشيء الوحيد الذي يهمني هو اخبار البيت ٠٠٠ ،

انه يعبر في هذه الرسائل عن رايه من الحياة فهو لم
يعثر في الشرق على جنة عدن التي كان يحلم بها ، وهو يعتقد
بان الانسان يعول ان يقضي ثلاثة ارباع عمره في الشقاء
والتعب لكي يرتاح في الربع الاخير الباقي ، لكنه في الاغلب
الاعم يهلك من العذاب دون ان يحقق هذه الامنية ، ودون ان
يعرف الامان ٠ وهو يعلن انه في كل ما فعله كان الآخرون ،
بالاخرى هم الذين استغلوه ، وان حياته بائسة للغاية ، بل
انها كابوس حقيقي ، حتى ليستحيل عليه ان يتصور مخلوقا
على وجه العمورة عانى من مثل حظه العاثر ٠ اذ انه يشقى
في طقس لا يطاق وظروف قاسية ، مرتاعا عندما يفكر بانه قد
بلغ منتصف العمر، ودار نصف الكرة الارضية ، وكد وتعب
وذاق الامرين دون ان يصل الى أية نتيجة ، تواقا الى جميع
ثروة تنقذه من العبودية وتكفيه كي يعود الى فرنسا حيث
يعيش من مدخول وريع مدخراته ولا يعمل الا بقدر ما يحلو
ويلذ له ، ويتزوج ، ولكنه متأكد من انه لن تبقى حتى ذلك
الوقت امرأة ترضى بالاقتران به الا بين صفوف الارامل ٠ لكنه
يفضل البقاء في عدن رغم ما يعاني فيها من عذابات لان
التعاسة موجودة في كل مكان ، ولانه يشعر على الاقل في هذه
المدينة العربية بانه مجهول وان الناس قد نسوه كلية ٠

وفيما بين عامي ١٨٨٤ و ١٨٨٦ عاش رامبو مع امرأة
حبشية كان يعاملها معاملة انسانية للغاية ، ويرغب في تثقيفها

ورفع مستواها • ونحن مدينون للمعلومات القليلة التي نعرفها عنها الى خادمة فرنسية كانت تعطيها دروسا في فن الخياطة، وتصفها بانها شابة هادئة ، قوامها طويل ونحيل ، قسمات وجهها لا تخلو من بعض الجمال ، وبشرتها ليست سوداء تماما • وبانها مسيحية قريبة الشبه بالنساء الاوروبيات ، ترتدي ثيابا افرنجية ، وتحب تدخين السجائر •

لقد شاخ رامبو قبل أوانه • وفي سن الثالثة والثلاثين بدأت الامراض والاوراج تغزو جسده • وهاهو في الواحد والعشرين من نيسان ١٨٩٠ يوجه ، من غريته ، رسالة الى ذويه يعلمهم فيها ان شعرة في رأسه تشيب كل دقيقة ، وهو يخشى ان تصبح كلها بيضاء • اما في شباط عام ١٨٩١ ، وفيما كانت تجارته في عز ازدهارها ، فلقد احس بوجع حاد في ساقه اليمنى التي تشكل فيها ثمة ورم راح ينمو بسرعة ، واخذ الشلل يغزوها ويجفف عروقها ، لدرجة أن رامبو فقد شهيته الى الطعام ، وقدرته على النوم • فصرح في خطاب له مؤرخ في ٢٠ شباط :

— « ••• ان سنة هنا تساوي خمسة اعوام في مكان آخر • المرء يشيخ بسرعة كبيرة هنا ••• »

ثم كتب في رسالة أخرى وقد تفاقم مرضه ، وبرح الالم برجله :

— « ••• لقد أصبحت هيكلا عظميا : اني اثير الفزع ••• »

وفي الثاني والعشرين من أيار عام ١٨٩١ بعث برقية من مرسيليا الى أهله يطلب حضور والدته او شقيقته ايزابييل بالقطار السريع ، لانهم سيبترون ساقه صباح الاثنين مما يعرض حياته للخطر . وبعد أن أجريت له العملية الجراحية ظل في المستشفى حيث اضطرت والدته ان تتركه وحده لتعود الى مزرعتها ، رغم دموعه التي هزت مشاعرها ، وحيث استمر يبكي ليل نهار معتبرا نفسه انسانا ميتا ، متسائلا بياس عن ميرر لهذه الحياة الشقية التي يعيشها الانسان ، والتي يتمسك بها مهما كانت باطلة وأليمة .

ان ما أصاب ساقه ناتج عن اصراره على السير على أقدامه في مجاهل اقريقيا لمسافات طويلة ، والعمل بوحشية وضراوة ودون ان يرحم جسده ، وهو نادم لانه سمح لهم ببترها ، ويفضل الموت على أن يعيش مشوها . ان الالم مهما بلغ من الشدة هو أهون من الزحف برجل واحدة . لقد بلغ ذروة اليأس . انه يجلس على كرسيه كالمشلول يبكي وينتحب منتظرا حلول الليل ، الذي لا يقدم سوى الارق الدائم ، الى أن يعود الصباح الذي هو اكثر شؤما من المساء .

ولقد كتب الى أهله عندما أخذ مرضه يتفاقم بعد قطع ساقه :

« ... وانا ، بالضبط ، الذي قررت أن اعود الى فرنسا هذا الصيف لاتزوج ا وداعا ايها الزواج ، وداعا أيتها العائلة ، وداعا ايها المستقبل ا لقد مضت حياتي ، لم أعد سوى شلوا جامدا ... »

وانه لمن سخرية القدر أن نرى رامبو ذلك المشاء الذي لا يكل ، ذلك المتشرد الدائم على الطرقات ، ذلك الرحالة الذي وضع كل أمله وسعادته في الهرب وقطع المسافات على رجله ، كسيحا عاجزا عن الحركة .

وإذ خرج رامبو من مستشفى مرسيليا أول مرة ، وعاد الى منطقة الأردين ليمضي فيها فترة نقاهة ستعقبها انتكاسة قوته لن تنتهي الا بوفاة ، فانه لم يخف سعادته وانفعاله وهو يرى ثانية ، بعد غيبة مديدة في الحبشة وعدن ، المشاهد والمناظر التي كانت أطارا لطفولته وشبابه الباكر . انه تأثر وحنان طبيعى في رجل موشك على الموت يرى مسقط رأسه لآخر مرة بعد غربة طويلة . ربما . ولكن هذا يجب ان لا ينسينا تعلق رامبو بشارلفيل التي هي حاضرة في كل قصيدة كتبها . ان حياة التشرد والسفر المتواصل التي عاشها يجب ان لاتخفي عنا حقيقة انه كان وظل الى آخر لحظة من عمره ذلك الفلاح المرتبط بالارض التي نشأ وترعرع فيها . انه ابن الشمال ومن هنا نزعتة الاشراقية ورؤاه الباطنية . هل نذهب الى حد الزعم ان مغادرته مسقط رأسه ورحيله بعيدا عنه الى الشرق كان السبب في نضوب معينه الشعري ، لان ارض طفولته كانت الرافد الاول الذي غذى عبقريته : على كل حال تبقى الأردين وطنه الاصلي ومنبتة الروحي . وكيف يكون الامر غير ذلك بالنسبة لانسان مثله وثيق الصلة بطفولته الى هذا الحد .

وعندما دخل رامبو غرفته النظيفة والمرتبة في مزرعة
روش بعد غيبة عشر سنوات هتف بحماس واعجاب : انها
أجمل من قصر فرساي . وبما انه كان يستصعب البقاء
جامدا في البيت طوال النهار ، فانه غالبا ما كان يخرج في
عربة مكشوفة ، تقودها أحيانا والدته ، ليتنزه بعد الظهر ،
رغم رجله الخشبية ، وتعبه الجسدي ، ورداءة الطقس .
وكان يطلب منهم أن يقتادوه الى الاماكن التي يتزاحم فيها
أهل بلدته ، الذين كان يلذ له ان يتأملهم من بعيد ، مرتدين
ملابسهم الجديدة ايام الآحاد والاعياد ، او ان يراقب في
المواقيت العادية حركاتهم وتصرفاتهم والتغيرات التي طرأت
على أساليب عيشهم منذ انقطاعه عن رؤيتهم .

وفي تلك السنة المشؤومة كانت العواصف الرعدية قد
دأبت على تمزيق سكون الليل ، والرياح قد عرت الاشجار،
والصقيع قد فتك بموسم القمح . وهذه الاضطرابات المناخية
كان لها أسوأ التأثير على اعصاب رامبو عاشق النور
والحرارة والهواء الطلق . لكأن عناصر الطبيعة تتحالف
ضده هي أيضا : البرد ، الضباب ، المطر . اما الشمس
المنشودة فانها لم تكن 'ظهرالا لكي تغريه بالقيام بنزهة
سرعان ما كانت تفاجؤه زخات الشتاء اثناءها . لكأن القدر
ذاته يتآمر عليه ، دون ان يحمله مع ذلك على التخلي عن
فكرة الزواج . بالعكس ان الكارثة قد قوت فيه الحاجة الى
تكوين أسرة . لكنه قرر هذه المرة ان يختار فتاة مقطوعة
من أحد الميامن او امرأة حبشية ، بدل ان يطلب يد إحدى
مواطناته من بنات العائلات البورجوازية . كما انه كان يحلو

له أحيانا أن يروح يهزأ من كل أمور هذه الدنيا ، من الماضي والحاضر والمستقبل ، وكل الأشياء والأشخاص المحيطين به • ولقد كان يملك القدرة ، وهو منطرح في سريره ، على أضحاك المستمعين إلى أن تسيل دموعهم • ثم ضاق ذرعا بروش ، الملقبة بارض الذئاب ، وراحت تجتاحه نوبات عصبية حادة تتفاوت بين البكاء واليأس والغضب ، وتعقبها مباشرة ودون أي مبرر موجات من الحنان الملائكي وسيول من المعانقات والملاطفات ، رغم أنه كان ينزعج أحيانا عندما تدخل أمه غرفته ، التي طردها منها ذات مرة بفظاظة على مسمع ومرأى من الطبيب •

وبما أن المرض لم يهائنه طويلا فلقد راح يستعين بالمخدرات ومهدئات الأعصاب ليتمكن من النوم • وكان يتفق له أحيانا أن يغلق النوافذ ويضيء المصابيح في الحجرة ، ويأتي بعازف أرغن ليستمع إلى انغامه هاديا ، حالما على صوت عال ، مستعيدا حياته الماضية ، مستحضرا ذكريات الطفولة ، مقضيا بأسراره الحميمة ، عارضا مشاريعه للمستقبل • واخذت الهلوسات تنتابه في مهجعه ، كما حصل له ذات ليلة ، إذ حاول النهوض من سريره للملاحقة رؤيا وهمية تجلت له في إحدى زوايا الغرفة ، التي وقّع على أديمها ، فتراكض أهله على دوي جسده على الأرض ، ليجدوه عاريا تماما فوق السجادة •

ولم تلبث صحته أن تدهورت بصورة استدعت معها رجوعه ثانية إلى مستشفى مرسيليا ، التي شد الرجال إليها

في ٢٣ آب ١٨٩١ ، اي بعد شهر واحد من اقامته الختامية في مزرعة روش . وصباح رحيله غمرته عاطفة مفاجئة من الحنان ، فاخذ ينشج بالبكاء ، منقلا عيونه فيما حوله ، مخاطبا امله : يا ربي اَلنْ اُجد حجرا استطيع ان اسند اليه رأسي ، وموضعا أموت فيه . احب ان أبقى . أود ان أرى هنا ، من جديد ، كل اصحابي ، وان اوزع عليهم وعليكم كل ما أملكه . واذ ضم ذويه الى قلبه وراح ينتحب ناشدوه ان يمكث معهم اذا كان يريد ذلك ، وتعهدوا بان يعتنوا به جيدا ، وبان لا يتركوه أبدا . ولكن عندما سمع وقع أقدام الخدم القادمين ليقناده الى المحطة خنق دموعه ، وصاح : لا يجب أن اسعى الى الشفاء .

ولقد اصطحبته شقيقته ايزابيل في رحلته الاخيرة هذه ، حيث شهدت في القطار افطع ذروة من اليأس والعذاب الجسدي يمكن للعقل البشري ان يتصورها . ونقد انذرهما الاطباء لدى وصولها بان حياة أخيها هي مسألة أيام لان مرضه هو سرطان العظم الناجم عن جرثومة السفلس التي التقطها في الحبشة ، وطلبوا منها ان لا تتركه ابدا . فلقد هزل كثيرا وغارت عيانه وأصبحتا محاطتين بدوائر سوداء ، وبات يرى كوابيس مزعجة للغاية ، ويعرق ويعرق دون انقطاع ، ولا يكف عن البكاء ، فهو لا يكاد يستيقظ حتى ينظر عبر النافذة الى أشعة الضياء وتسيل دموعه لانه لن يتاح له قط أن يرى قرص النور المشرق في الخارج ، ويندب مخاطبا اخته :

— « سامضي انا تحت التراب ، وانت ستمشين تحت

الشمس ! »

وهو يعي حالته في اغلب الاحيان ويتشبث بالبقاء بكل قواه . انه يريد أن يعيش وان يشفى من مرضه لدرجة انه يطلب اي دواء يتيح له تحريك ذراعه . انه لا يني يردد عبارة « الله كريم ! الله كريم ! » الم يتعلم العربية ، وهذه اللغة الشغوف النقاط المشتركة بينه وبين والده الضليع بهذه اللغة الشغوف بثافتها ، الذي شغل في فترة من حياته العسكرية منصب رئيس « المكتب العربي » ؟ الا يشاع انه كان يدرس آيات من القرآن الكريم الى بعض اطفال عدن الفقراء ؟

وكان الجميع في المستشفى يفضلون له الموت على تحمل هذه الاوجاع المبرحة ، وكانوا يشفقون عليه ، ويعاملونه كمحكوم عليه بالاعدام لا يجوز ان يردوا له طلبا . لكن كل مجاملاتهم وملاطفاتهم لا تجدي نفعا انه يرفضها كلها . انه يأخذ اخته بين ذراعيه وهو ينتحب ، ويرجوها ان لا تتركه . وكيف يعقل أن تهجره ايزابيل وهو على هذه الحال ينن ويتالم ويتشكى دون توقف من الصباح الى المساء ، ويدعو الموت بصرخات قوية ويتهددها اذا ما غادرته بان يشنق نفسه وينتحر . حتى اذا ما دخل طور الاحتضار ناشد اخته ان ترتب الغرفة ، لان الكاهن سيصل ليعطيه البركة الاخيرة . وكان يقول لها « سترين ، سوف يأتون بالشموع والاوشحة الحزمة ، يجب ان تضعي الشراشف البيضاء في كل مكان . ولم يعد احد من الاطباء ليجرؤ على الاقتراب من سريره ، لانه غالبا ما كان يبكي وهو يحدثهم ، وهذا مما يهز مشاعرهم .

مات رامبو في العاشر من تشرين الثاني عام ١٨٩١ ،
وقد أوصى بدفنه في عدن ، لكن والدته أصرت على مواراته
الثرى في مقبرة شارلفيل . وبعد أربعة أيام وصل جثمانه من
مرسيليا فطلبت والدته من كاهن الرعية في التاسعة صباحا
أن يهيء لها في ظرف ساعة جنازة من الدرجة الاولى . لكن
هذا الخوري ، وقد كان استاذا سابقا لرامبو في التعليم
المسيحي ، وكان يكن له كل مودة واحترام ، رجاها أن تعطيه
مهلة كي يتمكن من تحضير المراسم المنشودة ودعوة بعض
أصدقاء المتوفي القدامى ، وزملاء الدراسة . لكن الوالدة
رفضت بعناد وتصلب وارثأت انه لا فائدة من ذلك ، فرضخ
الكاهن لمشيئتها وأجرى طقوس الدفن في الموعد الذي حددته
له ، وبحسب التقاليد المتبعة بالنسبة لجنازة من الدرجة
الاولى . لكن لم يكن حاضرا في الموكب المأتممي سوى
مواجران فقط : والدة الفقيد واخته ايزابيل .

« وكان رامبو ، قبل موته ، قد أوصى بثلاثة آلاف فرنك،
لنابغه الحبشي دجامي ، الذي لم يتمكن من قبض المبلغ
لانه قضى نحبه ، في العشرين من العمر ، بعد وفاة معلم
بقليل . ربما إبان المجاعة التي تفشيت في الحبشة عـ
١٨٩١ ، او على اثر كمين نصبه له بعض اللصوص . وه
تسلم ورثة هذا الخادم المخلص ، وهو متزوج وأب لطفل
صغير ، كمية المال العائدة لهم ، والتي حرصت ايزابيل على
وضعها في تصرفهم تنفيذا لمشيئة شقيقها الاخيرة .

وفي عام ١٨٨٩ ، وفيما كانت فيتالي كريف راکة

تصلي في كنيسة شارل فيل ، رأت عكازة توضع على المقعد
قربها كذلك التي كان يستعملها ابنها الحبيب ارثور ، الذي
صارت تجده الآن بعد مضي ثماني سنوات على وفاته ، مثالا
للفضيلة ومحبة الغير ، اذ انه ، كما تصرح في احدى رسائلها ،
لم يطلب منها شيئا ، بل جمع ثروة بجهد ومثابرته وسلوكه
الحسن . . . واذ حصلت لها هذه الرؤيا راحت تسكب الدموع
بغزارة شاعرة مع ذلك بفيض من الفرح وهي تشاهد فلذة
كبدها يرنو اليها بعطف وحنان رافضا الذهاب مع امرأة اخرى
دعته الى قربها ، مصرا على البقاء الى جانب والدته . لقد
كان متخشعا ورعا يتابع القداس باهتمام وشغف كما تزعم
امه ، التي تتساءل : هل جاء لياخذها معه الى العالم الآخر؟
وتجيب بانها مستعدة للذهاب معه .

وفي عام ١٩٠٠ اخرجت والدته رامبو نعش ابنتها فيتالي
التي توفيت في السابعة عشر من عمرها ، وسحبت كل
البقايا التي يسمونها رمادا ، وكل العظام التي لم يكسر منها
ولا واحدة بل انفصلت عن بعضها رغم تماسك جوانبها
 واحتفاظها بشكل الصدر ، والجمجمة التي لم تمس ، والمغطاة
ببعض الجلد والشعر الصغير الناعم . لقد لفت الام بصلاية
شكيمتها المعهودة هذه الرفات العزيزة في شرشف ابيض
حضرته خصيصا لهذه الغاية ، ثم اغلقت النعش ، وانصرفت
بعد ذلك الى تابوت ولدها ارثور ، الذي وجدته جديدا لم
يتلف ولم يتشقق جل ما في الامر ان لونه لحقه بعض
الاسوداد . اما الصليب المذهب الموضوع عليه ، فانه لا يزال
على حاله . واما اللوحة التي حفر عليها اسم المتوفى فكانها

ألصقت عليه الآن . وقد تعجب كل الحفارين والعمال لحافظته على حالته بهذا الشكل الممتاز . ثم انتشلت فيتسالي كوفيتا بوت والدها ونقلت عظامه الى نعش ابنتها ، ثم انزلت الصندوقيين الى الحفرة من جديد شاعرة بسعادة كبرى اذ أنها نفذت مشيئة الله . واذا ان جثمانها سيسجى يوما ما بين رفات ابنتها فيتسالي ووالدها عن يمين ، ورفات ابنها ارثو عن يسار . وقد جاءت بحفار القبور وأشارت له الى المكان الذي ترغب أن يوضع فيه نعشها يوم وفاتها ، وقيل ان تسد ثغرة المدفن بالحجر ارادت ان تتأكد ان المثوى الاخير مرتب ومنظم على خير ما يكون ، وطلبت من العمال ان يحملوها من ذراعيها ورجليها ويدلواها في الحفرة . وعندئذ فقط اطمأن بالها الى أن كل شيء على ما يرام .

وفي أواخر ايامها كانت والسدة رامبو تحتفظ بكل مدخراتها من المال في جيبتها ، التي كتبت الى ابنتها ايزابيل توصيها بان لا تدع احدا يمد يده اليها عندما تموت ، بل ان تسحب المبلغ هي بنفسها وتتنقاسمه مع أخيها فردريك بعد ان تدفع كل تكاليف الجنازة ، التي جرت مراسمها بالفعل في ٢ آب عام ١٩٠٧ .

وعام ١٩١٤ وضع رجل حقوق بلجيكي قيد التداول نسخ « فصل في الجحيم » التي كان قد فك الدين عنها ، واشتراها لحسابه الخاص ، بعد أن عجز رامبو في حينه عن تسديد نفقات طبعا ، فبقيت في مستودعات الناشر ، حيث عثر عليها هذا المحامي الذي يهوى جمع الكتب عام ١٩٠١

فيما كان يبحث عن مجلة حقوقية • وقد أثر بقسم منها بعض الاصدقاء والادباء والمهتمين باقتناء المصنفات النادرة من بلجيكيين وفرنسيين ، وخص بالقسم الثاني بعض المكتبات ، محطما هكذا اسطورة روجتها ايزابيل رامبو ، ومفادها أن شقيقها آرثور قد أحرق كل النسخ المطبوعة من الكتاب الوحيد ، الذي اهتم بنشره خلال حياته •

وفي ٢١ تموز ١٩٠١ رفع الستار في شارل فيل عن تمثال من البرونز لرامبو • وكان فردريك فخورا جدا بمجد أخيه الصاعد • ولقد تبرع بـ ٢٥ فرنك لتشيد النصب التذكاري ، وحضر بثياب الاحد حفلة التدشين ، التي رفضت والدته الاشتراك فيها ، والتي ذهبت بعد انتهائها لتضع وحدها اكليلا من الزهر تحت تمثال ابنها ، الذي صهره الجنود الالمان أثناء احتلالهم فرنسا في نزاع عام ١٩١٤ لاستخدامه في صنع السلاح ، والذي أعرب أربعة من المثقفين الجرمانيين ، من بينهم ستيفان زيفايغ ، عن استعدادهم للتبرع بنفقات واحد جديد يحفر بدله لرامبو بمثابة تعويض عن ذلك الذي انتهك جيش بلادهم حرمة اiban الحرب العالمية الاولى • لكن الفرنسيين كانوا قد سبقوهم الى هذه المبادرة ، فنحتوا اثرا ثانيا لشاعرهم في عام ١٩٢٧ •

رسالة الرائي الى بول دميني المؤرخة في ١٥ ايار سنة ١٨٧١

لقد صممت ان اعطيك ساعة درس في الادب الحديث .
ابداً رأساً بمزموه من وحي « الاحداث الراهنة (هنا يضمن
رامبو الرسالة نص احدى قصائده : « نشيد حرب
باريسي ») .

— هو ذا نثر حول مستقبل الشعر : —

كل شعر قديم يفضي الى الشعر اليوناني ، حياة
منسجمة . — من اليونان حتى الحركة الرومنطقية ، —
عصر وسيط ، — يوجد متأدبون ، نظامون . من انيوس الى
ثيرولدوس ، من ثيرولدوس الى كاسيمير دلايني ، كله نثر
مقفى ، لعب ، ترهل ومجد ما لا حصر له من الاجيال
الغبية : راسين هو النقي ، القوي ، العظيم . — لو نفخنا
على قوافيه ، وخلصنا شطوط ابياته ، لكان « الغبي الالهي »
اليوم مجهولاً كأي وافد جديد مؤلف « اصول » . — بعد
راسين تعفنت اللعبة . لقد دامت الفي عام .

لا دعاية ، ولا مفارقة ، العقل يوحى لي من اليقينيات
حول هذا الموضوع اكثر من فورات الغضب التي كانت
لتنقاب شاباً فرنسياً من اوائل المتحمسين للرومنطقية . على
كل حال المحدثون احرار في ان يحتقروا الاجداد : انهم
في بيتهم ولديهم الوقت .

الرومنطقية لم يحكم عليها قط كما يجب . من كان
ليحكم عليها ؟ النقاد ! الرومنطقيون ؟ الذين يبرهنون جيدا
ان الاغنية نادرا ما تكون نتاج الغني ، اي الفكرة المغناة
والفهومة منه .

لان انا هو شخص آخر . اذا النحاس استيقظ بوقا
فان هذا ليس خطأه . هكذا اكيد بالنسبة لي : اني اشهد
تفتح فكرتي : اراقبها ، اصغي اليها : اني ارسل ضربة
قوس المعزوفة تتحرك في الاعماق ، او تأتي بقفزة واحدة
الى خشبة المسرح .

لولا ان الاغبياء العجائز لم يجدوا للانا سوى المعنى
الخطيء لما كان علينا ان نكنس هذه الملايين من الهياكل
العظمية ، التي راكمت ، منذ زمن لا نهائي ، نتائج
نكائها الاعور ، مجاهرة انها مؤلفتها .

في اليونان ، قلت ، الابيات والمثيرات تضبط ايقاع
الفعل . بعد ذلك ، صارت الموسيقى والقوافي العجا ،
تسلية . ان دراسة هذا الماضي تسحر الفضوليين :
كثيرين منهم يتلذذون باحياء هذه الاثرية : - لهم وما
يريدون . ان الذكاء الكوني قد رمى دائما افكاره بصورة
طبيعية . كان البشر يلتقطون جزءا من ثمار الدماغ هذه :
كانوا يتصرفون بوحى منها ، كانوا يؤلفون منها كتباً :
هكذا كانت تمضي المسيرة ، بما ان الانسان لم يكن يصقل
نفسه ، لم يكن قد استيقظ بعد ، او لم يعد بعد مستغرقا في

ملء الحلم الكبير • موظفون ، كتاب ، مؤلف ، خلاق ، شاعر ، هذا الرجل لم يوجد قط ! ٠٠٠

ان اول دراسة للانسان الذي يريد ان يكون شاعرا هي معرفة ذاته كاملة ، انه يبحث عن روحه ، يرصدها ، يهتحنها ، يتعلمها • ما ان يعرفها حتى يتوجب عليه ان يرببها : هذا يبدو سهلا : ثمة نمو طبيعي يتم في كل دماغ ، لكم من انانيين يعلنون انفسهم مؤلفين ، يوجد كثيرون غيرهم ينسبون الى ذاتهم الفضل في تقدمهم الفكري ! - لكن ينبغي جعل الروح مريضة اسوة باكلة لحوم البشر ، ماذا ! تصوروا رجلا يفرس ويربي ثاليل على وجهه •

اقول انه يجب على المرء ان يكون رائيا ، ان يجعل من نفسه رائيا •

الشاعر يجعل من نفسه رائيا بواسطة اختلال طويل ، هائل ومدرّوس لكل الحواس • كل اشكال الحب ، الشقاء ، الجنون ، انه يبحث بنفسه عن كل السموم ، ويستنفدها في داخله لكي لا يحتفظ منها سوى بالجواهر • عذاب لا يوصف حيث يحتاج الى كل الايمان ، كل القوة الفائقة للطبيعة الانسانية ، حيث يصبح بين الجميع المريض الكبير ، المجرم الكبير ، الملعون الكبير - والعارف الاعظم ! - اذ انه يصل الى المجهول ! بما انه قد ربي روحه ، الغنية اصلا ، اكثر من اي احد ! انه يصل الى المجهول ، وعندما ، طائش اللب ، ينتهي بان يفقد الادراك لرؤاه فانه يكون قد راها !

ليمت في وثبته عبر الاشياء التي لم يسمع بها والتي لا
تسمى : سوف يأتي فعلة آخرون فظيعون ، سوف يبدأون
من الأفاق التي هلك فيها الآخر !

– التتمة بعد ست دقائق –

هنا ادرج مزمورا ثانيا ، خارج النص : اعرني من
فضلك اذنا كيسة ، – والجميع سيكونون مسحورين –
القوس في يدي ، اني أبداً : (قصيدة « عاشقاتي
الصغيرات »)

هو ذاك . ولاحظ جيدا انه ، لولا خشيتي من ان اكلفك
ستين سنتيما اجرة بريد ، – انا المعدم المسكين الذي لم
امسك منذ سبعة اشهر بقطعة معدنية واحدة ! – لكنك
سلمتك ايضا قصيدتي « عشاق باريس » ، مئة بيت ، سيدي ،
وقصيدتي « موت باريس » مئتي بيت !

– اني استأنف :

اذن الشاعر هو بحق سارق نار .

انه مسؤول عن الانسانية ، عن الحيوانات حتى ،
يجب ان يجعلنا نحس ، نلمس ، نسمع اختراعاته ، اذا كان
ما يأتي به من هناك له شكل ، فهو يعطيه شكلا ، اذا كان
بلا شكل ، فانه يقدمه بلا شكل . العثور على لغة ، – على
كل حال بما ان كل عبارة هي فكرة ، فان عهد لغة عالمية

سيأتي ! يجب ان يكون المرء اكاديميا ، - اكثر موتا من
هيكل عظمي ، - لينجز قاموسا ، بأي لغة كانت . ثمة اناس
ضعاف قد يأخذون بالتفكير حول اول حرف من الابدية ،
مما قد يدفعهم سريعا نحو الجنون !

هذه اللغة ستكون من الروح الى الروح مختصرة كل
شيء ، روائع ، اصواتا ، الوانا ، من الفكر تعلق الفكر
وتسحبه . الشاعر سوف يحدد كمية المجهول المستيقظة ، في
عصره ، في الروح الكونية : سوف يعطي اكثر - من معادلة
فكرته ، من تأشيرة مسيرته نحو التقدم ! انه ، هائل القياس
وقد غدا مقياسا ، مستغرقا في كل شيء ، سيصبح حقا
مولدا للتقدم .

ان هذا المستقبل سيكون ماديا ، انك ترى ذلك ، -
دائما مملوءة بالعدد والتوافق فان هذه القصائد ستكون
مصنوعة لتبقى . - في الحقيقة سيكون هذا ايضا شيئا
ما : الشعر اليوناني .

سيكون للفن الخالد وظائفه ، كما ان الشعراء هم
مواطنون . الشعر لن يضبط الايقاع بعد ، بل سيكون الى
الامام .

هؤلاء الشعراء سيكونون ! عندما سوف تتحطم عبودية
المرأة اللانهاية ، عندما سوف تعيش من اجل نفسها وبفضل
نفسها ، وقد اطلق الرجل ، الكريه حتى الآن سراحها ، فانها

ستصبح شاعرة هي ايضا ! المرأة ستعثر على المجهول ! هل ستكون دنياواتها الفكرية مختلفة عنا ؟ لسوف تعثر على أشياء غريبة ، لا يسبر لها غور ، منقرة ، لذيدة ، سنأخذها ، سنفهمها .

بانتظار ذلك ، فلنطلب من الشعراء الجديد - افكارا واشكالا . سرعان ما سوف يعتقد كل الحاذقين انهم قد لبوا هذا المطلب . - ليس هذا هو المقصود !

لقد كان الرومنطقيون الاوائل رائيين دون ان يعوا ذلك جيدا . ان ثقافة ارواحهم قد بدأت نفسها في الطوارئ : قاطرات مهجورة ، لكن ملتهبية ، تأخذها خطوط السكة بعض الوقت . - لامارتين هو راء احيانا ، لكنه مخنوق بالشكل القديم . - هوغو ، عنيد للغاية ، يملك الكثير من الرؤيا في المجلدات الاخيرة : « البؤساء » هي قصيدة حقيقية . عندي « اللعنات » تحت يدي ، « ستيل » تعطي تقريبا مقياس رؤيا هوغو . الكثير من بيلمونته ، ومن لامنيه ، من يهوه والاعمدة ، ضخامات قديمة مغزورة .

موسيه هو مقيت اربع عشرة مرة بالنسبة لنا نحن الاجيال المتألمة والمأخوذة بالرؤى ، - التي اهانها كسالة الملائكي ! اوه الحكايات والامثال السمجة ! اوه « الليالي » ! اوه « رولا » ، او « نامونا » ، او « الكأس » ! كل شيء فرنسي ، يعني بغيض الى اقصى درجة ، فرنسي لا باريسى ! نتاج آخر من صنع تلك العبقريّة الشنيعة التي ألهمت رابليه ،

فولتير ، جان لافونتين مشروحا من قبل السيدتين ! ربيعي ، فكر موسيه ! ساحر ، حبه ! هوذا رسم ذو طلاء خزفي ، شعر متين ! سيتذوقون طويلا الشعر الفرنسي ، لكن في فرنسا • كل صبي سمان بمقدوره ان يطلق مفاجأة في اسلوب « رولا » ، كل طالب اكليريكي يحمل قوافيها الخمسة في حبايا دفتر • في سن الخامسة عشر تضع اندفاعات الهوى هذه الشبان في حالة تهيج جنسي ، في السادسة عشر يكتفون بتريدها من اعماق القلب ، في الثامنة عشر ، في السابعة عشر حتى ، كل تلميذ يملك مؤهلات لذلك ، يصنع قصيدة من نوع « رولا » يكتب قصيدة من نوع « رولا » ! وربما كان البعض يموتون بسببها ايضا • موسيه لم يحسن فعل شيء ، كان هناك رؤى خلف غلالة الستائر : لقد اغلق العينين • فرنسي استعراضي ، مجرور من الخمار الى طاولة المدرسة ، الميت الجميل مات ، ومن الآن فصاعدا دعونا لا نكلف انفسنا عناء ايقاظه باحقادنا •

الرومنطيون اللاحقون راؤون جدا : تيوفيل غوثيه ، الكونت دي ليل ، تيودور دي بانفيل • لكن ، بما ان رصد ما لا يرى وسماع ما لا يسمع هو شيء آخر غير اعادة تناول روح الاشياء الميتة ، فان بولدير هو الرائي الاول ، ملك الشعراء ، اله حقيقي • الا انه عاش في وسط فنان جدا ، والشكل الذي امتدح عنده كثيرا هو مسكين • ان اختراعات المجهول تتطلب اشكالا جديدة •

— من الأشعار —

Ma Bohème بوهيميتي

كنت ارحل ، القبضتان في جيبي المثقوبتين ،
سترتي ايضا كانت تصبح خيالية ،
كنت امضي تحت السماء ، يا ربة الشعر ! وكنت عبدك
الامين ،
اه ! ياه ياه ! كم بهيامات رائعة حلمت !

سروالي الوحيد كان به خرق واسع
— بوتيه — بوسيه حالم كنت افرد في جولتي
حبات قواف • حانتي كانت في الدب الاكبر •
— نجومى في السماء كان لها حفيف عذب •

وكنت اصغي اليها ، قاعدا على حافة دروب ،
في اماسي ايلول الطيبة تلك حيث كنت احس بقطرات
من الندى على جيبني ، كنبذ نشاط ،

حيث كنت ، ناظما القوافي وسط ظلال مهولة ،
اسحب ، كالقيثارات ، سيور
حذائي المجروحين ، رجلا قرب قلبي !

(٢٥) شعراء السابعة من العمر Les Poètes de sept Ans

والام ، غالقة كتاب الواجب ،
انصرفت راضية وجد فخورة ، دون ان ترى
في العينين الزرقاوين وتحت الجبين الملبىء بالنتوءات ،
روح ولدها خاضعة للكراهيات •

كل النهار كان ينضح طاعة ، جد
ذكي ، مع ذلك بعض تشنجات الوجه السوداء ، بعض
القسمات

• كان يبدو انها تبرهن عن خباثات فظة فيه •
في عتمة الممرات ذات الاليسطة العفنة ،
وهو يعبر كان يمد اللسان ، والقبضتان
على الحوض ، وفي عينيه المغمضتين كان يرى نقطا •
باب كان يفتح على المساء : بالمصباح
كانوا يرونه ، هناك في العالي ، وهو يحشرج فوق
درابزون الدرج ،

تحت خليج من النهار متدل من السقف • في الصيف
خاصة ، مقهورا ، غبيا ، كان يصبر بعناد
على حبس نفسه في نداوة الرخاض :
كان يفكر هنا ، هادئا ومسلما منخاريه •
عندما كانت الجثينة ، خلف البيت ، وقد غسلتها
روائح النهار ، في الشتاء ، تنغمر بضوء القمر ،

فانه كان ، ممددا عند قدم الحائط ، مدقونا في التراب
الاصفر ،

ومن اجل رؤى ساحقا عينه المبهورة ،
يسمع العرائش تعج •
يا للمشفقة ! هؤلاء الاولاد وحدهم كانوا عشراءه
الذين كانوا ، عجافا ، جبهات عادية ، عينا تبتهت على
الوجنة ،

مخبئين اصابع ناحلة صفراء وسوداء من الوحل
تحت ثياب تفح منها رائحة الاسهال وبالية كلية ،
يتحدثون بنعومة البلهاء !
واذا ما كانت امه ، وقد فاجأته اخذا في هذه الشفقات
اللدنسة ،

ترتعب ، فان حنانات الولد العميقة
كانت ترتمي على هذا الاندهاش •
كان هذا حسن • كانت تحصل على النظرة الزرقاء
التي تكذب !

في السابعة ، عمل قصصا ، عن حياة
الصحراء الكبرى ، حيث تتوهج الحرية المسحورة ،
غابات ، شמוש ، ضفاف ، مغاوز ! - كان يستعين
بالجرائد المصورة ، حيث كان ينظر محمرا
الى اسبانيات يضحكن وايطاليات •
عندما كانت تأتي ، العين سمراء ، مجنونة ، في فساتين
قطنية مشجرة ،

— ثماني سنوات ، — ابنة العمال المجاورين ،
الصغيرة المتوحشة ، وتقفز ،
في زاوية ، على ظهره ، مهززة ضفائرها ،
وهو تحتها ، فانه كان يعض لها فخذيهما ،
لأنها لم تكن قط ترتدي سراويل ،
— وكان يحمل ، وقد أصابته برضوض بقبضتيها
واعقاب قدميها ، نكهات جلدها الى غرفته •

كان يخشى أحاد كانون الاول الشاحبة ،
حين كان ، مصقول الشعر ، على أسكملتة من الأكاجو ،
يقرا كتابا مقدسا لون حافته اخضر ملفوفي ،
ثمة احلام كانت تضايقه كل ليلة في مخدعه •
لم يكن يحب الله ، بل الرجال ، الذين كان يراهم ، عند
المساء الوحشي ،

سودا ، ببزة العمل ، يأوبون في الضاحية
حيث يجعل الدلالون ، بثلاث قرعات طبل ،
الجماهير تضحك وتزمر بصدد المراسيم •

— كان يحلم بالمرجة العاشقة ، حيث ثمة تموجات
مشعة ، عطور معافاة ، زغابات ذهبية ،
تعمل تحركها الهادئ وتأخذ انطلاقها !

وبما انه كان يتذوق خاصة الاشياء القائمة ،

فانه كان ، وهو في الغرفة العارية ذات مغاليق المشبائيك
المطبقة ، العالية والزرقاء ، الراضحة تحت وطأة رطوبة لاذعة ،
يقرا روايته التي ما انفك يتأملها ،
مليئا بسماوات ثقيلة مغراء واحراج غريقة ،
بزهور من لحم منتشرة في الغابات الكوكبية ،
دوار ، انهيارات ، هزائم وشفقة !
- بينما كانت تتكون ضوضاء الحي ،
تحت ، - وحيدا ، ومضطجعا فوق قطع من قماش
خام ، ومستشعرا الشراع بعنف !

لجان - ماري يدان قويتان ،
يدان قاتمتان دبغهما الصيف ،
يدان شاحبتان كأيد ميته •
- أهاتان يدا جوانا ؟

هل تناولتا مراهم التجميل السمرء
عن مستنقعات الشهوات ؟
هل انغمستا في اقمار
عند غدران السكينات ؟

هل شربتا من سماوات وحشية ،
هائتتين فوق الركب الساحرة ؟
هل لفتا السجائر
او تاجرتا بالماس ؟

عند اقدام صور العذراء الملقهبة
هل اذبلتا الورود الذهبية ؟
انه دم الحسان الاسود
الذي ينفجر في راحتيهما وينام •

يدان تصطادان الهوام
الذي يطن في زرقة
الفجر ، نحو غدده الرحيق ؟

يدان تسكبان السموم ؟

آه ! أي حلم استولى عليهما
في التمطيات ؟
حلم لم تسمع به أسيا
ولا المدن الفارسية أو المشرقية ؟

— هاتان اليدان لم تبيعا البرتقال ،
ولا اسمرتا عند اقدام الآلهة ،
هاتان اليدان لم تغسلا اقمطة
اطفال صغار ثقال بلا عيون .

هاتان ليستا يدي ابنة عمه
او عاملات ذوات جباه غليظة
تحرقهما ، باحطاب تفح منها رائحة المصنع ،
شمس سكرى بالقطران .

انهما قاصمتا ظهور ،
يدان لا تعملان السوء ابدا ،
أكثر حتمية من الآلات ،
أقوى من حصان كامل !

متأججا كاللاتون ،
وممزهذا كل رعشاته ،

فان لهما ينشد المارسيليز
وليس ابدا الصلوات !

انهما ستشدان على اعناقكن ، ايها النساء
الشريرات ، انهما ستسحقان ايديكن
ايها السيدات الراقيات ، ايديكن الرجسة
الزاخرة بالالوان البيضاء القرمزية .

ان وهج هاتين اليدين العاشقتين
يدير جمجمة الخراف !
في عظيمااتها اللذيذة
تضع الشمس الكبيرة ياقوتة حمراء !

لطحة شعبية
لوحتهما كنهدي قديم ،
ان ظاهري هاتين اليدين هو المكان
الذي قبله كل ثوري ابي !

لقد شحبتا ، رائعتين ،
تحت الشمس العظيمة المثقلة بالحب ،
على برونز الرشاشات
عبر باريس الثائرة !

اه ! احيانا ، ايها اليدان المقدستان
في قبضتكما ، ايها اليدان اللتان ترتعش فوقهما

شفاهنا التي لا يزول سكرها قط ،
تصرخ سلسلة صافية الحلقات !

وانها لانتفاضة غريبة
في كياناتنا ، عندما ، احيانا ،
يريدون تببيضكما ، يا يدي ملاك ،
بأن يجعلوا اصابعكما تقطر دما !

(٤٥) اي شيء بالنسبة لنا ، يا قلبي

Qu'est - ce pour nous , mon Cœur

اي شيء هي بالنسبة لنا ، يا قلبي ، برك النجيع
والجمر ، وألف اغتيال ، وصرخات الغضب الطويلة ،
انتخابات من كل بحيم قالبة
كل نظام ، وزيج الشمال بعد فوق الانقاض ،

وكل ثأر ؟ لا شيء . . . لكن بلى ، لا تزال
نريده كله ! ايها الصناعيون ، والامراء ، والاعيان :
اضمحلوا ! أيتها القوة ، والعدالة ، والتاريخ : اسقطي !
هذا حقنا . الدم ! الدم ! شعلة الذهب !

كل شيء للحرب ، للثأر ، للرعب ،
يا فكري ، فلندر في الهجوم العنيف : أه ! امضي
يا جمهوريات هذا العالم ! كفانا اباطرة ،
وقيالق ومستعمرين ، وشعوبا !

من سيحرك زوابع النار الغاضبة
ان لم يكن نحن اولئك الذين نتصورهم اخوانا لنا ؟
هذا سيطيب لنا نحن الرفاق الخياليين ،
لن نعمل قط ، أه يا أمواج النار !

يا اوروبا واسيا ، واميركا ، اختفي .

ان مسيرتنا الانتقامية قد احتلت كل شيء
مدنا واريانا ! - لسوف نسحق !
لسوف تنفجر البراكين ! ولسوف يضرب الاوقيانوس ...

آه يا رفاقي ! - يا قلبي ، اكيد ، انهم اخوان :
ايها السود المجهولون ، لو اننا نذهب ! فلنذهب ! فلنذهب !
يا للشقاء ! اشعر اني ارتجف ، الارض القديمة ،
الارض تتهاوى علي انا النذر نفسي اكثر فاكثركم !

هذا لا شيء ! اني عليها ! اني عليها دائما .

(٥٠) - حروف علة Voyelles

A اسود ، E ابيض ، ا احمر ، U اخضر ، O ازرق :

يا حروف العلة ،

سأقول ذات يوم ولادتك الكامنة :

A مشد اسود اشعر للذبايات الساطعة
التي تطن حول التنانات الفضة ،

خلجان ظل ، E نصاعات الابخرة والخيام ،
رماح المثالج الفخورة ، ملوك بيض ، قشعريرات اكاليل
زهر ،

ا ، انسجة ارجوانية ، دم مبصوق ، ضحكك الشفاه
الجميلة
في الغضب او السكرات الشائبة ،

U ، دورات ، ارتجاجات الهية للبحار الخضراء
سلام المراعي المزروعة بحيوانات ، سلام الغضون
التي تطبعها السيمياء على الجباه الواسعة المجتهدة ،

O ، بوق علوي مليء بالصريريات الغريبة ،
سكوتات محزونة للعوالم والملائكة :
— O الاوميغا ، شعاع عينيه البنفسجي ا

★★★

النجمة بكت بلون زهري في قلب اذنك ،
اللانهاية تدحرجت بلون ابيض من عنقك حتى حقويك ،
البحر رصع بلون اصهب اثناءك القرمزية
والرجل نرف بلون اسود في حضنك السنني .

الى السيد تيودور دي بانفيل

(٧) ما يقال للشاعر بصدده الزهور

Ce qu'on dit au poète à propos des Fleurs

.. ..

هكذا ، دائما ، نحو اللازورد الاسود

حيث يرتعش بحر الزبرجد ،

ستؤدي الزنايق ،

تلك الحقن من النشوة ، عملها في مسائك !

في عصرنا ، عجير دقيق النخل ،

حيث الاعشاب هي شغالة ،

فان الزنبقة ستشرب القرف الازرق

في نثر الديني !

- زنبقة السيد كرديل ،

قصيدة عام الف وثمانمئة وثلاثين ،

الزنبقة التي يعطونها للشاعر الموسيقي

مع القرنفلة والقטיפفة !

زنايق : زنايق ! اننا لا نرى منها !

وفي شعرك ، كأكمام

الخطايات نوات الخطى الناعمة ،
ترتعش دائما هذه الزهور البيضاء !

دائما ، يا عزيزي ، عندما تأخذ حماما ،
فان قميصك ذا الأبطين الاشقرين
ينتفخ بنسائم الصباح
فوق زهور اذان الفار الدنسة !

الحب لا ينقل الى عطاءاتك
الا زهور الليلك ، - يا للأراجيح !
وبنفسجات الغابة ،
بصقات اليرقانات السوداء المحلاة بالسكر ! ٠٠٠

٢

ايها الشعراء ، عندما قد تملكون
الورود ، الورود المبهورة ،
حمراء فوق جذوع اشجار الفار ،
ومنتفخة بالف بيت شعر ثماني المقاطع !

عندما قد يجعلها بانفيل تهمي كالثلج ،
مدماة ، مدومة ،
مورمة عين الغريب المجنونة
اثناء القراءات اللامتسامحة !

فان نباتات غاباتكم ومروجكم
ايها المصورون الهادئون جدا
هي متنوعة تقريبا
مثل سدادات الدوارق !

دائما النباتات الفرنسية
الشكسة ، السلولة ، المضحكة ،
حيث يسبح بطن كلاب الصيد ، ذات القوائم
القصيرة والمعوجة ، بسلام ، عند الغسق ،

دائما ، بعد رسوم شنيعة
لزهور اللوتس الازرق او عباد الشمس ،
وشمات زهرية ، مواضيع مقدسة
بالنسبة لمتناولات اول قريانة يافعات !

فان قصيدة شجرة الهند الغنائية تتأطر مع
المقطع الشعري المزدان بالزهور كشباك غالية ماجنة ،
وفراشات ثقيلة باهرة
تروث على زهرة الربيع :

ايتها الاخضرارات القديمة ، ايتها الشرائط العتيقة !
اه ايتها الحلويات النباتية !
يا ورودا عجيبة للصالونات القديمة !
- برسم الخنافس ، لا الافاعي ،

أطفال البنات الباكون أولئك
الذين كان غرانفيل ليضعهم تحت الوصاية ،
والذين ارضعتهم اصباغا
كواكب شريرة تعتمر الخوذات !

نعم ان نشات قضبانكم المديقة
تعمل نفائس من سكر العنب !
- كومة من البيض المقلي في قبعات عتيقة ،
زناقي ، اشجار هند ، ليك وورودا ! ٠٠٠

٣

اه ايها الصياد الابيض ، الذي يركض بدون جوارب
عبر المرعى الهلع ،
الا تستطيع ، الا يتوجب عليك ،
ان تعرف قليلا امثولتك في علم النبات ؟

ستجعل الجداجد الصهباء ،
فيما أخشى ، تعقب الذراريح ،
ذهب الريو يعقب زرقة الراين ،
بالاختصار ، النروج تعقب فلوريدا :

لكن ، يا عزيزي ، لم يعد يدن الفن ، الآن ،
- هذه هي الحقيقة ، - ان يسونغ .

لشجرة الاوكاليتوس المدهشة
ثعابين بيت شعر سداسي المقاطع ،

على رسلك ٠٠٠١ كما لو ان اشجار الاكاجو
لم تكن تصلح ، حتى في مستعمراتنا ،
الا لسيول القروذ الطويلة الذيل ،
ولهذيان النباتات المعرشة الثقيل !

اجمالا ، هل تساوي زهرة ، سواء
اكانت اكليل جبل او زنبقة ، حية او ميتة ،
غائط عصفور بحري ؟
هل تساوي دمعة مخاط واحدة ؟

ولقد قلت ما كنت اريده !
انت ، حتى جالسا هناك ، في
كوخ من الخيزران ، - مغاليق شبابيكه
مطبقة ، سجقة فارسية سمراء ، -

فانك قد تضع على عجلة ازهارات
جديرة بانهار خارقة ٠٠٠١
- ايها الشاعر ! هذه حجج
مضحكة بقدر ما هي متفطرسة ٠٠٠١

٤

قل ، لا السهول الربيعية

السوداء ، من ثورات رهيبة ،
ولكن التبغ ، اشجار القطن !
قل الغلال الغريبة !

قل ، ايها الجبين الابيض الذي دبغه ابولون ،
بكم من الدولارات يقدر ايراد
بيدرو فلاسكتر ، هابانا ،
احتقر بحر سورانت

حيث يذهب البجع بالالوف ،
فلتكن مقاطعك الشعرية اعلانات
عن ركام الاشجار المنقصية المقطوعة
المنخورة بالافاعي والنصال !

ان رباعيتك تغوص في الغابات الدامية
وتعود لتعرض على الرجال
مختلف المواضيع حول
السكاكر البيضاء والصنوغ !

فلنعرف بواسطتك اذا كانت اشقرارات
القمم المغطاة بالثلج ، صوب المدارات ،
هي اما حشرات بيوضة
اما حزازات مجهرية !

اعثر ، ايها الصياد ، اننا نريد ذلك ،
على بعض عروق الصباغة الحمراء المعطرة
التي تجعلها الطبيعة المتزينة بالسراويل
تفرخ ! - من اجل جيوشنا !

اعثر ، في ضواحي الغابة التي تنام ،
على الزهور ، الشبيهة بخطم ،
يسيل منه لعاب ذهب
فوق شعر الجواميس القائم !

اعثر ، في المروج المجنونة ، حيث ترتعش
فضة الزغابات فوق الزرقة ،
على كؤوس مليئة ببيضات من نار
تنضج بين الاشجار !

اعثر على اشواك زغبة
تشتغل في غزال عقدها
عشرة حمير بعيون متقدة !
اعثر على زهور تكون كراسي !

نعم ، اعثر في قلب المناجم السوداء
على زهور هي تقريبا احجار ، - باهرة ! -
يكون لها صوب مبايضها الشقراء المصلبة
غد تدفئ الجواهر الكريمة !

قدم لنا ، ايها المهرج ، انك تستطيع ذلك ،
على طبق رائع من الفضة المذهبة
توابل زنايق مشربة بالسكر
تعض على ملاعقنا من الفضة الاصطناعية •

٥

احد ما سيقول الحب ،
سارق الرأفات القاتمة :
لكن لا رينان ، ولا هرة هوفمان
رأيا صولجانات باخوس الزرقاء الهائلة !

انت ، دع العطور وصرعات الجنون
تعزف في خموداتنا ،
حمسنا نحو طهارات
اكثر براءة من المريمات •••

تاجر ! مستوطن ! وسيط !
فان قافيتك ستنبجس ، وردية او بيضاء ،
كشعاع من الصوديوم ،
كمطاط يقضي بمكنونه !

من قصائدك السوداء ، - ايها المشعوذ !
انكساريات نور بيضاء ، خضراء ، وحمراء ،

فلتقلت ورود غريبة
وفراشات كهربائية !

هو ذاك ! انه عصر الجحيم !
واعمدة التلغراف
ستزين ، - قيثارة ذات اناشيد من حديد ،
عظومات كتفك الرائعة !

وبالاحص ، انظم حكاية
حول مرض البطاطا !
- ومن اجل تأليف
قصائد مليئة بالسر

على المرء ان يقرأها من تريفية
الى باراماريو ، اشتر من جديد
مجلدات من تأليف السيد فيقيه ،
- مزدانة بالصور ! - عند السيد هاشيت !

Lo Bateau Ivre (٨) المركب المسكران

فيما كنت انحدر انهارا عديمة الحس ،
لم اعد اشعر ان صاحبي المركب يرشدونني :
هزود حمر صياحون اتخذوهم دريئة
اذ سمروهم عراة على اعمدة الالوان •

كنت مستهترا بجميع طواقم الملاحه ،
حاملا قمحة فلمنكية واقطانا انجليزية •
عندما انتهت مع صاحبي مركبي تلك القرقات ،
تركنتي الانهار انحدر حيثما اريد •

في تلاطمات المد والجزر الغاضبة
اذا ، الشتاء الماضي ، اكثر صمما من ادمغة الاطفال ،
ركضت • واشباه - الجزر المقلعة
لم تعان ما هو اعظم انتصارا من سوراتي المفوضوية •

المعاصفة باركت يقظاتي البحرية •
اخف من فليئة رقصت فوق الامواج
التي يسمونها مدحرجات الضحايا الابدية ،
عشر ليال دون ان اسف على عين الفوانيس البلهاء !

كاعذب من لحم التفاح الحامض للولاد ،
نفذ الماء الاخضر في هيكلي الصنوبري
وبقع من خمور زرقاء وقيوءات
غسلتني ، مفرقة دفة ومرساة *

ومنذ ذلك الحين ، استحممت في قصيدة
البحر ، المنقوعة بالكواكب ، والحليبية ،
مفترسة اللازوردات الخضراء ، حيث ، طفاوة شاحبة
ومفتونة ، ينحدر احيانا غريق مفكر ،

حيث ، صابغة فجأة الالوان الزرقاء ، هذيانات
وايقاعات بطيئة تحت احمرارات النهار ،
اقوى من الكحول ، اوسع من قيثاراتنا
تتخمر اشقرارات الحب المرة !

اعرف السماوات المتفجرة بالبروق ، والاعاصير
وارتدادات الموج والتيارات : اعرف المساء ،
الفجر المتهلل حماسا كشعب من الحمام
ورأيت احيانا ما ظن الانسان انه راه !

رأيت الشمس واطئة ، مشوبة بأهوال صوفية ،
مشعلة تخثرات طويلة بنفسجية ،
شبيهة بممثلي مأس جد قديمة
الامواج وهي تدحرج في البعيد قشعيراتها النوافذية !

حلمت بالليلة الخضراء ذات الثلوج المبهورة ،
قبلة صاعدة الى عيون البحار ببطء ،
بدورة النسوغ اللامسموعة ،
وباليقظة الصفراء والزرقاء للفوسفورات المغنية !

تبعث ، شهورا بطولها ، وكأنه زرائب بقر
هستيرية ، تموج الماء الهاجم على الصخور،
دون ان يعن ببالي ان ارجل المريمات المنورة
تستطيع ان تقهر خطم الاقيانوسات الضيقة النفس !

صدمت ، هل تعلمون ، فلوريدات غير معقولة
تمزج بين الزهور وبين عيون فهود لها جلود
رجال ! بين اقواس قزح مشدودة كأرسنة
تحت افق البحار ، وبين قطعان خضراء !

رأيت المستنقعات الضخمة تتخمر ، شبكات
يتعفن بين قضبانها الخيزرانية تنين كامل !
انهيارات مياه وسط هدأت البحر *
والابعاد النازلة شلالات على الاغوار !

اكوام جليد، شمس فضة، امواج صدفية، سماءات من جمر!
جنوحات بشعة في جوف الخلجان السمراء
حيث الثعابين العملاقة وقد افترسها البق
تتدلى ، من الاشجار الملوية ، بعطور سوداء !

كنت اود ان اري الاولاد اسماءك مرجان
الموج الازرق هذه ، هذه الاسماء الذهبية ، هذه الاسماء
المغنية ،

— ازباد من الورد هدهدت تأرجحاتي
ورياح فائقة الوصف جنحتني في بعض اللحظات •

احيانا ، شهيد ارهقته الاقطاب والمناطق ،
كان البحر الذي يشكل نحيبه ترنحي العذب
يطلع نحوي وروده الظلالية ذات المحاجم الصفراء
وكننت ابقى ، كما امرأة راكعة •

جزيرة تقريبا ، مهزما على متني المشاجرات
وذرات العصافير النباحة ذات العيون الشقراء •
وكننت امخر العباب ، عندما من خلال روابطي الهشة
انحدر غرقى ينامون ، المقهقهي !

اذ انا ، مركب تائه تحت شعرات الاجوان ،
وقد قذفني اعصار في الاثير بلا « عصفور » ،
انا الذي لا المدرعات ولا مراكب « الهانس » الشراعية
كانت لتقوى على انتشارال حطامي السكران بالماء •

حر ، مدخن ، وقد علتني ابخرة بنفسجية ،
انا الذي كنت اثقب السماء المحمورة كالحائط
الذي يحمل ، مربى لذيذا للشعراء الطيبين ،

حزازات شمس وسقاوات لازورد ،

الذي كنت اركض ، مبقعا بأهلة كهربائية ،
خشبة مجنونة ، تواكبني احصنة البحر السوداء ،
حين كانت شهور تموز تهدم بضربات الهراوات •
سماوات ما فوق البحار ذات القموع الملتهبة •

انا الذي كنت ارتجف ، اذ احس عن خمسين فرسخا بتأوه
نزو الثنائين والاعاصير الجامحة ،
جواب ابدي للسكونات الزرقاء ،
فاني آسف على اوروبا ذات الافاريز القديمة !

رأيت ارجييلات كوكبية ! وجزائر
سماواتها الهاذية مفتوحة للهائم :
- افي هذه الليالي التي لا قرار لها تنامين وتنعزلين ،
ايتها الملايين من العصافير الذهبية، ايتها القوة المستقبلية ؟

لكن ، حقا ، لقد بكيت كثيرا ! الصباحات مثيرة للحنق •
كل قمر مربع وكل شمس مرة :
الحب الحامض نفخني بخمودات مسكرة •
اه فلتنفجر عارضتي ! اه فلاذهب في البحر !

ان كنت اشتهي ماء من اوروبا ، فهي المستنقع
الاسود والبارد حيث قرابة الغسق المضمخ

يرضني ولد مقرقص مليء بالاحزان
مركبا هشا كفراشة ايار .

لم اعد استطيع ، مستحما في سأماتك ، يا امواج ،
ان انزع من حملة الاقطان مخورهم ،
ولا ان اعبّر كبرياء البيارق وشعلات النار ،
ولا ان اسبح تحت اعين مراكب الاسرى المرعبة .

(٩) الابدية L'Eternité

انها مستعادة
ماذا ؟ الابدية
انها البحر المتوافق
مع الشمس •

ايها الروح المترصدة
فلنوشوش الاعتراف
عن الليل الباطل جدا
والنهار الملتهب •

من الآراء البشرية
والحماسات الشائعة
هنا تنعتقين
وتطيرين على هواك •

هنا لا امل
ولا شروق
علم مع صبر
العذاب اكيد

انها مستعادة
ماذا ؟ - الابدية
انها البحر المتوافق
مع الشمس •

من « فصل في الجحيم »

(١)

غابرا ، ان كنت اذكر جيذا ، كانت حياتي وليمة حيث
تتفتح كل القلوب ، حيث تتدفق كل الخمر .

ذات مساء ، اقعدت الجمال على ركبي . - ووجدته
مرا . - وشتمته .

تسلحت ضد العدالة .

هربت . ايتها السباحر ، ايها البؤس ، ايها الحقد ، اياكم
استودعت كنزي !

توصلت الى ان الاشئ في فكري كل الامل البشري . علم
كل سعادة كي اخنقها قمت بوثة الوحش المفترس الصماء .

استدعيت الجلادين كي اعض ، وانا اهلك ، اعقاب
بنادقهم .

استدعيت البلايا ، كي تخنقني بالرمل ، الدم . الشقاء
كان ربي . تمددت في الوحل . تنشقت في هواء الجريمة . وقمت
بحيل خبيثة مع الجنون .

والربيع حمل الي ضحكة الابله الشنيعة .

مؤخرا ، وقد وجدت نفسي ، والحالة هذه ، على شفا ان
ألفظ آخر شهقة ! فكرت بالبحث من جديد عن مفتاح الوليمة
القديمة ، حيث كنت لاستعيد ربما شهية .

المحبة هي هذا المفتاح . - هذا الالهام يبرهن انسي
حلمت .

« ستبقى ضيعا ، الخ . » صرخ من جديد الشيطان
الذي توجني بخشخاشات لطيفة جدا . « ابلغ الموت مع كل
شهياتك ، وانانيتك وكل الخطايا المميتة » .

اه ! اخذت من ذلك كثيرا : - لكن ، عزيزي ابليس ،
استلحفك بؤبؤ عين اقل سخطا ! ويانتظار البعض من النذالات
القديمة المتأخرة ، انت الذي تحب في الكاتب غياب المواهب
الوصفية او التعليمية ، فاني اقتطع لك هذا البعض من
الورقات الشائنة من مفكرتي كهالك .

(٢) دم فاسد Mauvais Sang.

ولقد ورثت عن اجدادي الغاليين العين الزرقاء الفاتحة،
الدماغ الضيق ، وقلة المهارة في القتال . اني اجد ملبوسي
مثلهم همجية . لكني لا ادهن شعري بالزبدة .

كان الغاليون سالخي وحوش ، حارقي اعشاب من
احمق ما ، اطلعه عصرهم . منهم ، املك : عبادة الاوثان وحب
تدنيس المقدسات - اه ! كل العيوب ، غضب ، قحش ، - عظيم،
الفحش ، - خاصة كذب وكسل .

اكره كل المهن • معلمون وعمال ، كل الفلاحين ، ادنياء •
اليد ذات الريشة تساوي اليد ذات المحراث - يا له من عصر
للأيدي ! - لن املك يدي قط • وبعد ، فان الاستخدام يقود
بعيدا جدا • ان شرف الشحاذة يحقني • المجرمون يثيرون
الاشمئزاز مثل الاخصياء : انا ، بكر ، والامر عندي سيان •

لكن ! من جعل لساني خوؤنا لدرجة ، انه ارشد وصان
حتى الان كسلي ••• دون ان استخدم كي اعتاش حتى جسدي ،
واكثر بطالة من الضفدع ، عشت في كل مكان • لا يوجد عائلة
في اوروبا لا اعرفها • - اعني عائلات كمائتي ، تدين بكل
شيء للاعلان عن حقوق الانسان • - لقد عرفت كل ابن عائلة !

هأنذا على الشاطئ الاموريكي • فلتشتعل المدن فـ
المساء • ان يومي قد بلغ تمامه ، اني اغادر اوروبا • الهوى
البحري سيحرق رئتي ، المناخات الضائعة ستلفحني • السباحة
سحق العشب ، الصيد ، التدخين خاصة ، احتساء كحول
قوية كمعدن يغلي - كما كان يفعل اولئك الاجداد الاعزاء
حول النيران •

سأعود ، باعضاء من حديد ، البشرة قاتمة ، العيون
هائجة « سيحكمون علي من قناعي ، بأني من جنس قوي •
سيكون معي ذهب : سأكون بطالا وعنيفا • النساء يعتنين
بهؤلاء العجزة المتوحشين العائدين من البلاد الحارة • سأكون
مت دخلا في الشؤون السياسية • خالصا •

الان انا ملعون ، امقت الوطن ، ان افضل شيء ، هو
رقاد جد سكران . على الساحل الرملي *

وانا طفل بعد ، كنت أعجب بالحكوم بالاشغال الشاقة
الشرس الذي يخلق عليه السجن من جديد ، كنت ازور الحانات
والدور التي قد يكون قدسها بإقامته ، كنت ارى بفكره السماء
الزرقاء وعمل الريف المزهر ، كنت اشم لعنته في المدن * لقد كان
يملك من القوة اكثر من قديس ، ومن الحس السليم اكثر من
مسافر - وهو ، هو وحده ! كشاهد على عظمته وعقله *

على الدروب ، في ليالي الشتاء ، دون مأوى ، دون
ملبس ، دون خبز ، ثمة صوت كان يعتصر قلبي المتجمد :
« ضعف او قوة : هأنذا ، انها القوة * انك لا تعلم الى اين
انت ذاهب ولا لماذا انت ذاهب ، ادخل الى كل مكان ، جاوب
على كل شيء * لن نقتلك اكثر مما لو كنت جثة » * في الصباح
كانت نظرتي ضائعة وهيئتي ميتة لدرجة ان الذين صادفوني
ربما لم يروني *

في المدن كان الوحل يتراءى لي فجأة احمر واسود ،
كمراة عندما يتجول الصباح في الغرفة المجاورة ، ككنز في
الغاية ! حظ حسن ، كنت اهتف ، وكنت ارى بحرا من اللهب
والدخان في السماء ، والى اليسار ، الى اليمين ، كل الثروات
مشتعلة كمليار من الصواعق *

لكن التهتك وصحية النساء كانت محظورة علي * ولا

رفيق حتى . كنت ارى نفسي امام جمهور غاضب ، في مواجهة
فصيلة تنفيذ الاعدام ، باكيا من الالم الذي ما كان بمقدورهم ان
يفهموه ، ومسامحا اياهم ! - كجان دارك ! - « ايها الكهنة ،
والاساتذة ، والمعلمون ، انكم تخطئون بتسليمكم اياي الى
العدالة . لم اكن قط من هذا الشعب ، لم اكن قط مسيحيا ، اني
من الجنس الذي كان يغني في العذاب ، اني لا افهم القوانين ،
اني لا املك الحس الخلقي ، اني وحش : انكم مخطئون » .

نعم ، ان عيوني مغلقة دون نوركم . اني حيوان ، انسي
زنجي . لكنني استطيع الحصول على الخلاص . انتم عبيد
مزيقون ، انتم المسوسون ، الاشرار ، البخلاء . ايها التاجر ،
انت عبد ، ايها القاضي ، انت عبد ، ايها القائد انت عبد ، ايها
الامبراطور ، يا اكالا هرما ، انت عبد : لقد شربت من كحول
غير مسعرة ، من معمل ابليس . - ان هذا الشعب يستمد
وحيه من الحمى والسرطان . العجزة والشيوخ هم محترمون
لدرجة انه يلزمهم غليا على النار . - ان اذكى عمل هو مغادرة
هذه القارة ، حيث يرود الجنون ليزود هؤلاء البؤساء
بالرهائن . اني ادخل الى مملكة اولاد حام الحقيقية .

هل اعرف الطبيعة بعد ؟ هل اعرف نفسي ؟ - لا كلمات
بعد . اني اوارى الموتى في احشائي . صيحات ، طبل ، رقص ،
رقص ، رقص ، رقص ! اني لا ارى حتى الساعة ، التي وقد
حط معها البيض الرحال ، سأسقط في العدم .

جوع ، عطش ، صيحات ، رقص ، رقص ، رقص ، رقص !

(٣) سيمياء الكلمة Alehimie de Verbe

الي • قصة احد جنوناتى •

منذ امد بعيد كنت اتباهى باننى املك كل المناظر الممكنة،
وكنت اجد مشاهير فن الرسم والشعر الحديث مضحكين •

كنت احب التصاوير الغبية ، تيجان ابواب ، زينات ،
لوحات بهلوانيين ، لافتات ، زخارف شعبية ، الادب البالي ،
لاتينية كنيسة ، كتباً جنسية بلا املاء ، روايات جداتنا ، حكايا
جنيات ، كتيبات الطفولة ، اوبرات قديمة ، لازمات سخيفة ،
ايقاعات ساذجة • •

كنت احلم بحملات صليبية ، رحلات استكشاف لا نملك
عنها اخبارا ، جمهوريات لا تواريخ لها ، حروب دين خامدة ،
ثورات اخلاق، تنقلات اجناس وقارات: كنت اؤمن بكل الفنون •
اخترعت لون حروف العلة ! - A اسود ، E ابيض ،
I احمر ، O ازرق ، U اخضر - ضبطت شكل وحركة كل
حرف صامت ، وبايقاعات غريزية كنت اغبط نفسي على اختراع
كلمة شعرية تكون ، في يوم او آخر ، في متناول جميع
المحواس • احتفظت بحقوق الترجمة •

هذا كان في المبدء دراسة • كنت اكتب سكوتات، ليالي،
كنت ادون ما لا يعبر عنه • كنت اسمر دوارات •

★ ★ ★

• العتق الشعري كان له نصيب وافر في سيميائي الكلمة •

اعتدت على الهلوسة البحتة : كنت ارى بكل صراحة
مسجدا مكان معمل ، مدرسة طبول صنعها ملائكة ، عربات
على دروب السماء ، غرفة استقبال في جوف بحيرة ، المسوخ ،
الاسرار ، عنوان مسرحية هزلية كان يقيم اهوالا امامي •

ثم رحت اشرح سفسطاتي السحرية بواسطة هلوسة
الكلمات •

انتهيت بان وجدت فوضى فكري مقدسة • كنت بطالا ،
فريسة حمى ثقيلة : كنت احسد هناة البهائم ، - الاساريع ،
التي تمثل براءة حقاقي الكواكب ، الاخلاذ ، غفوة البكارة •

صار طبعي يخشن • رحت اقول الوداع للعالم في اشباه
اغان عاطفية •



كنت احب الصحراء ، البساتين المحروقة ، الحوانيت
الذابلة ، الكحول الفاترة • كنت انسحب في الازقة المنتنة ،
واهب نفسي ، مغمض العينين ، للشمس ، الهة النار •

« ايها القائد ، ان كان قد بقي مدفع عتيق على متاريسك
الدمرة ، اقصفنا بكتل ارض يابسة • في مرايا المخازن الرائعة!
في غرف الاستقبال ! اجعل المدينة تأكل غبارها • اغمر المزاريب
بالمصدا • املا المخادع بمسحوق ياقوت ملتهب ••• »

٥١ ! الذبابة السكرانة في مبرة الحانة ، عاشقة عشبة
الحمم المعركة ، والتي يذبحها شعاع !

واخيرا ، يا للسعادة ، يا للعقل ، ابعدت عن السماء
اللازورد ، الذي هو سواد ، وعشت ، شرارة ذهب من الضوء
« طبيعة » • من فرح ، كنت اتخذ تعبيرا بهلوليا وتائها الى
اقصى حد •

صرت اوبرا خرافية : رايت ان كل الكائنات تملك قدرا
من السعادة : الفعل ليس هو الحياة ، لكنه وسيلة لافساد قوة
ماء ، تهيج اعصاب • علم الاخلاق هو اعياء الدماغ • كان يبدو
لي ان لكل كائن عدة حيوات اخرى • هذا السيد لا يعرف
ما يفعله : انه ملاك • هذه العائلة هي افراخ كلاب • امام عدة
رجال ، كنت اتحدث عاليا مع لحظة من حيواتهم الاخرى •
- وهكذا احببت خنزيرا •

لم انس واحدة من سفسطات الجنون ، - الجنون الذي
نحتوي عليه : كنت لاستطيع اعادة سرد ما كلها ، اني امسك
بزام المنهج •

لقد باتت صحتي مهددة • وراح الرعب يقترب • كنت
اسقط في اغفاءات لعدة ايام ، واكمل ، وقد استيقظت ، اكثر
الاحلام كابة • كنت ناضجا للموت ، وكان ضعفي يقودني ، على

درب محفوفة بالمخاطر، الى تخوم العالم و «السيميري»، موطن
الظلام والزوابع .

كان علي ان اسافر ، ان الهمي الفتون المتجمعة فوق
دماغي . على البحر، الذي احببته كما لو كان عليه ان يغسلني
من لوثه ، رأيت الصليب المعزي يرتفع . كانت قد حلت علي
اللعة بواسطة قوس القزح . السعادة كانت قدرتي ، ندامتي،
دودتي : ستظل حياتي دائما اوسع من ان تكون منذورة للقوة
والجمال .

السعادة ، نابها ، العذب حتى الموت ، انذرني عند صياح
الديك ، في احلك المدن ظلما .

هذا قد مضى . اعرف اليوم ان اودع الجمال .

Matin

(٤) صباح

الم يكن لي مرة شباب محبوب ، بطولي ، خرافي ، جدير
بان يكتب على اوراق ذهب ، - كثير من الخطا بأي جريمة،
اي غلطة ، استحققت ضعفي الحالي ؟ انتم يا من تدعون ان
البهائم ترسل زفرات الالم ، ان المرضى يبأسون ، ان الموتى
يحلّمون برداءة ، حاولوا ان ترووا اخبار سقطتي ورقادي .
اذا لم اعد استطيع ان افسر نفسي اكثر مما يستطيعه الشحاذ
مع ادعيته المتواصلة « آيانا الذي في السموات » و « السلام

عليك يا مريم • لم اعد اعرف ان اتكلم •

مع ذلك ، اليوم ، اعتقد اني انهيته حكاية جحيمي • كان
هذا هو الجحيم تماما ، القديم ذاك الذي فتح ابن الانسان
ابوابه •

من نفس الصحراء ، الى نفس الليل ، دائما عيونني
المتعبة تستيقظ على نجمة الفضة ، دائما ، دون ان يتأثر ملوك
الحياة ، المجوس الثلاثة ، القلب ، الروح ، الفكر • متى
نمضي ، عبر السواحل الرملية والجبال ، لنحيي مولد العمل
الجديد ، الحكمة الجديدة ، فرار الطغاة والشرطيين ، نهاية
الخرافة ، لنعيد - اول الناس - عيد الميلاد على الارض •

نشيد السماوات ، مسيرة الشعوب ! عبيدا ، دعونا لا
نلعن الحياة •

Adieu وداع (5)

الخريف منذ الآن ! - لكن لماذا نأسف على شمس ابدية ،
اذا كنا متورطين في البحث عن النور الالهي ، - بعيدا عن
الناس الذين يموتون على الفصول •

الخريف • قاربنا المنتصب في الضبابات الجامدة
يستدير نحو مرفأ البؤس ، المدينة الضخمة ذات السماء
الملطخة بالنار والوحل • اه !

الاسمال التنتنة ، الخبز المغموس في المطر ، السكر ،

الاف الحب التي صلبتني ! انها لن تنتهي اذن قط هذه الغولة
ملكة ملايين الارواح والاجساد الميتة والتي سيحكم عليها !
اني اراني من جديد وقد نخر الوحل والطاعون جلدي ، وامتلأ
شعري وابطي بالدود ، وايضا دودات اكبر في القلب ، ممددا
بين مجهولين لا اعمار لهم ، ولا عاطفة . . . كان يمكنني
ان اموت هناك . . يا للتذكار الشنيع ! اني امقت اليأس .

واخشى الشتاء لانه موسم الرفاهية !

- احيانا ارى في السماء شواطئ لا نهاية لها
مغطاة بشعوب بيضاء رائعة في الفرحة . سفينة ذهب كبيرة ،
فوقها ، ترفرف راياتها المتعددة الالوان مع نسائم الصباح .
لقد خلقت كل الاعياد ، كل الانتصارات ، كل الماسي . لقد
حاولت ان اخترع ورودا جديدة ، كواكب جديدة ، اجسادا
جديدة ، لغات جديدة . خلت اني حزت على قدرات فائقة
للطبيعة . حسنا ! يجب ان ادفن خيالي وتذكرياتي ! مجد
جميل لفنان وقاص تبتدأ !

انا ! انا الذي زعمتني ساحرا او ملاكا ، مصفى من كل
علم اخلاق ، عدت الى الارض ، مع واجب علي البحث عنه ،
والواقع الخشن الذي علي ان احضنه ! قلاح !

هل اخطأت ؟ او تكون المحبة شقيقة الموت بالنسبة لي ؟
اخيرا ساطلب الصفح لاني تغذيت بالاكاذيب . وهيا . لكن
لا يد صديقة ، ومن اين التمس النجدة ؟

نعم ، الساعة الجديدة هي في الاقل صارمة جدا .

اذ يمكنني القول ان لواء النصر معقود لسي : صريف
الاسنان ، صفير النار ، التنهدات النتننة تخف حداثها . كل
المذكرات النجسة تمحى . حسرائي الاخيرة تسرع في
الانسحاب ، غيرات من الشحاذين ، اللصوص ، اصدقاء الموت ،
المتخلفين من كل الانواع . - ايها الهالكون ، لو اني انتقم !
يجب ان يكون المرء حديثا بصورة مطلقة .

لا اناشيد : عدم التراجع الى الوراء . ليلة قاسية !
الدم المتجفف ينز على وجهي ، وليس ورائي الا هذه الشجيرة
الفضيعة ! . . . ان الصراع الروحي هو اعنف من حرب
الرجال ، لكن رؤية العدالة هي متعة الله وحده .

مع ذلك انها السهرة . فلنتلق كل زخات القوة والحنان
الحقيقي . وفي الفجر ، مسلحين بصبر حار ، سوف ندخل
الى المدن الرائعة .

ماذا كنت اتكلم عن يد صديقة ! امتياز جميل ، هو اني
استطيع ان اضحك من الهيامات القديمة الكاذبة ، وادمغ
بوصمة الخزي هؤلاء الأزواج الكاذبين ، - لقد رايت جحيم
النساء هناك ، - وسيكون مسموحا لي ان امتلك الحقيقة
في روح وجسد .

Les Illuminations من « الاشراقات »

Après le Déluge (١) بعد الطوفان

ما ان خمدت فكرة الطوفان ،

حتى توقف ارنب بين البرسيم وازهار الجريسات
المتمايلة وتلا صلاته على قوس القزح من خلال نسيج
العنكبوت .

آه ! يا للاحجار الكريمة التي كانت تختبئ ، - والورود
التي كانت تتطلع منذ ذلك الحين .

في الشارع الكبير القذر نصبت اكشاك البيع ، وجرت
القوارب نحو البحر المنضد هناك في العاليي كما على
المحفورات .

الدم سال ، عند ذي اللحية الزرقاء ، - في المسالخ ، -
في السيركات ، حيث دمع ختم الله النوافذ بالشحوب . الدم
والحليب سالا .

القنادس بنت ، اكواب الشراب تصاعد منها البخار في
المقاهي .

في منزل الزجاج الكبير الذي لا يزال يتقاطر ماء نظر
الاطفال اللابسون ثياب الحداد الى الصور الرائعة •

باب انصفق ، - وفي ساحة القرية ، لوح الطفل
ينزاعيه ، مفهوم من دوارات الطقس وتمائيل الديكة على
ابراج الاجراس في كل مكان ، تحت وابل المطر الصاخب •

السيدة فلانة ركزت معزفا في جبال الالب • القداس
ومراسم اول قريانة احتفل بها في مئة الف مذبج الكاتدرائية •
القوافل رحلت • وفندق « السبلنديد » بني في فوضى
الجليد وليل القطب •

منذ ذلك الحين ، سمع القمر ابناء آوى تصأى في صحارى
الصعتر ، - وانا شيد الرعاة في احذية خشبية تدمدم في
البستان • ثم ، في الغابة البنفسجية ، المبرعمة ، قالت لي
« النعمة » انه الربيع •

- انبجسي ايتها البركة ، - ايها الزيد تدحرج على
الجسر وفوق الاحراش ، - ايتها الشراف السوداء
والاراغن ، - ايتها البروق والصاعقة ، - ارتفعي وتدحرجي ،
ايتها المياه والكآبات ، ارتفعي واطلقي الطوفانات من جديد •

لانها منذ ان انحسرت ، - اه الاحجار الكريمة وهي
تدفن نفسها ، والورود المتفتحة ! - ساد ضجر ! والملكة ،
الساحرة التي توقد جمراتها في قدر الفخار ، لن تود قط ان
تخبرنا بما تعرفه ، وما نجعله •

هذه المعبودة ، عيون سود وعرف اصفر ، بلا اهل ولا بلاط ، اكثر تبلا من الخرافة ، مكسيكية وفلمنيكية : مجالها ، لازورد وسندس بطرين ، تركض فوق شواطئ اطلقت عليها امواج بلا سفن ، اسماء يونانية ، سلافية ، سلتية بضراوة .

عند حاشية الغابة ، - ورود الحلم ترن ، تنفجر ، تضییء ، - الفتاة ذات الشفة البرتقالية ، الركب متصالبة وسط الطوفان المشع الذي ينبجس من المروج ، عري تظله ، تخترقه وتكسوه اقواس القزح ، النبات ، البحر .

سيدات تحومن على الشرفات المجاورة للبحر ، طفلات وعلاقات ، سوداوات رائعات في الطحلب الزنجاري ، جواهر منتصبة على الارض الغليظة للغياض والحدائق الصغيرة التي ذاب عنها الثلج ، - امهات صبايا وشقيقات كبيريات لهن انظار مليئة ياسفار الحج ، سلطانات ، اميرات لهن مشية وبزة مستبدة ، غريبات صغيرات وشخصيات تعسة بعدوبة .
يا للمضجر ، ساعة « الجسد العزيز » و « القلب العزيز » .

٢

انها هي ، الصغيرة الميتة ، خلف اشجار الورد . - الام الشابة المتوقفة تنزل درج المدخل . - عربة ابن العم تصرخ على الرمل . - الشقيق الاصغر (انه في الهند) هنا ، امام

المغيب ، في مرج القرنفل • - العجايز الذين دفنهم مستقيمين
في مئذنة المنثور •

شتيت اوراق الذهب يحيط بمنزل الجنرال • انهم في
الجنوب • - اننا نتبع الدرب الحمراء لنصل الى الحانة
الشاغرة • القصر هو برسم البيع ، مغاليق الشبابيك مقلعة •
- الخوري قد يكون اخذ معه مفتاح الكنيسة • حول المنتزه ،
حجرات الحراس غير مسكونة • السياجات عالية لدرجة اننا
لا نرى سوى القمم المهمة • على كل حال لا يوجد شيء
للروية هناك في الداخل •

الروج تصعد من جديد نحو قرى بلا ديوك ، بلا سنادين •
الترعة مرفوعة • يا لآلام الصلب وطواحين الصحراء ،
الجزائر والرحى !

ورود سحرية كانت تطن • المنحدرات كانت تهدده •
ثمة حيوانات ذات اناقة خرافية كانت تتجول • السحب كانت
تتجمع فوق البحر العالي مصنوعة من ابدية من الدموع
الحارة •

٣

في الغابة ، يوجد عصفور ، غناؤه يوقفك ويجعلك
تحمّر •

يوجد ساعة لا تدق •

• يوجد ردغة مع عش من الحيوانات البيضاء
 • يوجد كاتدرائية تهبط وبحيرة تصعد
 • يوجد عربية صغيرة مهجورة في الحرش ، او تهبط
 • الدرب راكضة ، مزينة بالشرائط
 • يوجد فرقة من المهرجين الصغار بملايس التمثيل ،
 • مترائين على الطريق عبر حاشية الغابة
 • يوجد اخيرا ، عندما يكون بك جوع وعطش ، احد ما
 • يطردك

٤

اني القديس ، في حالة صلاة على الشرفة ،- كما ترعى
 • الحيوانات المسالة حتى بحر فلسطين
 • اني العالم في مقعده القاتم • الاغصان والمطر تتقاذف
 • على نافذة المكتبة
 • اني مشاء الدرب الطويلة عبر الغابات القزمة ،ضوضاء
 • الترمعات تغمر خطاي • اني ارى طويلا غسيل الغروب الكثيب
 • الذهبي
 • ساكون تماما الطفل المهجور على رصيف الميناء المتقدم
 • في البحر العالي ، الخادم الصغير متابع المشى الذي تمس
 • جبهته السماء

الدروب وعرة • الأكام تتغطى بالوزال • الهواء جامد •
ما أبعد العصافير والينابيع ! هذا لا يستطيع ان يكون الا
نهاية العالم ، ونحن نتقدم •

• • •

فليؤجروني اخيراً هذا القبر ، المطلي بالكلس مع خطوط
الملاط النافرة ، - بعيداً جداً تحت الارض •

اني اتكىء على الطاولة ، المصباح يضيء بقوة ساطعة
هذه الجرائد التي بلغ بي السخف حد اعادة قراءتها ، هذه
الكتب العديمة الفائدة • -

على مسافة ضخمة فوق غرفة استقبال تحت الارضية،
تقوم البيوت تتجمع الضبابات • الوحل هو احمر او اسود •
مدينة هائلة ، ليل بلا نهاية !

اقل علواً من ذلك ، يوجد مجاري • عن الجانبين ، لا
شيء سوى كثافة الكرة الارضية • ربما هاويات اللازورد ،
آبار نار • انه ربما على هذه الاصعدة تلتقي إقمار ومذنبات ،
بحار واساطير •

في ساعات المرارة اتصور كرات من الياقوت الازرق ،
من المعدن • اني سبيد الصمت • لماذا يا ترى قد يمتقع ظبل
منفذ عند طرف القبة ؟

٣ حيوات - ٢

اني مخترع تختلف جدارتي بكثير عن كل الذين سبقوني،
موسيقار حتى ، وجد شيئاً ما مثل مفتاح الحب • في الوقت
الحاضر ، سيد ريف خشن ذي سماء زاهدة ، فاني احاول
ان اجعل نفسي تتأثر لذكرى الطفولة المتسولة ، التدرب
او الوصول باحذية خشبية ، المجادلات ، الترملات الخمسة او
الستة ، وبعض حفلات المجون حيث منعني راسي العنيد من
رفع عقيرتي بما يجاري نغم الرفاق • اني لا آسف على
حصتي القديمة من المرح الالهي : ان الهواء الزاهد لهذا
الريف الخشن يغذي بحيوية قوية ارتيايبيتي الفظيعة • لكن بما
ان هذه الارتيايبية لا يمكن استعمالها من الان فصاعداً، وبما
اني من جهة اخرى منذور لاضطراب جديد ، - فاني انتظر
ان اصبح مجنوناً شريراً للغاية •

Départ (٤) رحيل

كفانا ما رأيناه : الرؤيا تصادفت في كل الاجواء •
كفانا ما حصلنا عليه : ضوضاءات المدن ، المساء ، وفي
الشمس ، ودائماً •
كفانا ما عرفناه : محطات الحياة • - يا للضوضاءات
والرؤى !

رحيل في المحبة والضجة الجديديتين !

(٥) الى عقل A une Raison

نقرة من اصبعك على الطبل تطلق كل الاصوات وتبدء
الانسجام الجديد .

خطوة منك هي هبة الرجال الجدد ومسيرتهم .

رأسك يستدير : الحب الجديد ! رأسك يتلفت الى
الوراء ، - الحب الجديد !

« غير انصبتنا ، غريل البليا ، بدءا بالزمان » ينشدك
هؤلاء الاطفال .

« ارفع في اي مكان ماهية حظوظنا وامانينا » ، نتضرع
اليك .

ايها الواصل من كل زمان ، الذي ستذهب الى كل مكان .

(٦) مدينة Ville

اني مواطن زائل وغير مستاء كثيرا لعاصمة مظنوننة
حديثه لان كل ذوق معروف قد تم تجنبه في رياض البيوت
ومظهرها الخارجي كما وفي مخطط المدينة . هنا لن تميز
آثار أي نصب للخرافة . علم الاخلاق واللغة مختزلان الى
ابسط تعبير لهما . اخيرا ! هؤلاء الملايين من الناس الذين لا
يحتاجون الى معرفة بعضهم يجلبون التعليم ، المهنة
والشيخوخة ، بصورة متماثلة لدرجة ان مجرى الحياة هذا

يجب ان يكون اقصر عدة مرات مما تجده احصائية مجنونة
لشعوب القارة • كما وايضا ، من نافذتي ، ارى اشباحا
جددا يتدحرجون عبر دخان الفحم الكثيف والابدي - ظل
غاباتنا ، ليلة صيفنا ! - ربات ندم وانتقام جديدات ، امام
بيتي الريفي الصغير الذي هو وطني وكل قلبي بما ان كل
شيء هنا يشبه هذا ، - الموت دون دموع ، ابنتنا وخادمتنا
النشطة ، حبا يائسا وجريمة جميلة تصأى في وحل الشارع •

(٧) فجر Aube

لقد عانقت فجر الصيف •

لم يكن شيء ليتحرك بعد في جبهة القصور • الماء
كان ميتا • معسكرات الظلال لم تكن لتهجّر طريق الغاية •
لقد مشيت ، موقظا الانفاس الحية والفاترة ، والجواهر
الكريمة تطلعت ، والاجنحة ارتفعت دونما ضجة •

ان اول مشروع كان ، في الدرب المتلوى منذئذ
بتوهجات ندية وشاحبة ، وردة قالت لي اسمها •

ضحكت للشلال الاشقر الذي تبعثر من خلال
الصنوبرات : على القمة الفضية تعرفت الى الربة •

عندئذ رفعت البراقع واحدا واحدا • في المشى ، وانا
احرك المذراعين • في السهل ، حيث وشيت عنها الى الديك •
في المدينة الكبرى كانت تهرب بين ابراج الاجراس والقباب

وكنّت اطردھا ، راکضا کالشحاذ علی ارضفة الرخام •
 فی اعلی الطریق ، قرب غابة غار ، احطتها ببراقعها
 المجمة ، واحسست قليلا بجسدها الرحب • الفجر والطفل
 وقعا الى اسفل الغابة •
 عند اليقظة کان الظهر •

(٨) حرب Guerre

طقلا ، بعض السماوات ارهفت بصري : کل الطباع
 اظهرت فروق سحتي الدقيقة • الظاهرات تأثرت • - في
 الوقت الحاضر تغير الدقائق الابدي ولا نهائية الرياضيات
 تطردني في هذا العالم حيث اکابد کل النجاحات المدينية ،
 محترما من الطفولة الغريبة والمحبات الضخمة • - افکر
 بحرب ، ذات حق او قوة ذات منطق غير متوقع للغاية •
 هذا بسيط بمقدار جملة موسيقية •

(٩) صبا - ٢ Jeunesse

رجل ذو تركيب عادي ، الم یکن الجسد ثمرة معلقة
 في البستان ، يا للانهارات الطفلة ! الجسد کنز برغم الاغداق
 بسخاء ، اه الحب ، خطر وقوة النفس ؟ کان للارض سفوح
 خصبة بالامراء والفنانين ، والمحتد والسلالة كانت تدفعنا الى
 الجرائم والمآثم : العالم ، ثروتك وخطرك • لكن في الوقت

الحاضر ، وقد استهلك هذا الجهد دأبه ، انت ، حساباتك ،
انت ، نفاذات صبرك ، ليست بعد سوى رقصك وصوتك ، غير
المثبتين وغير الجبرين ابدا ، مع انهما بفعل حادث مزدوج من
اختراع ونجاح دراية ، بالانسانية الاخوية والحذرة عبر
الكون الخالي من الصور ، - القوة والحق يعكسان الرقص
والصوت المقدرين في الوقت الحاضر فقط .

(١٠) عبقرية Génie

انه المحبة والحاضر بما انه جعل البيت مفتوحا للشتاء
المزبد ولضوضاء الصيف ، هو الذي طهر المشروبات
والاطعمة ، هو الذي يكون سحر الامكنة الهاربة واللذة فوق
البشرية للمحطات . انه المحبة والمستقبل ، القوة والحب الذي
نراه نحن ، واقفين في الغضبات والسامات ، يمر في سماء
العاصفة وبيارق النشوة .

انه الحب ، مقياس كامل ومخترع من جديد ، حكمة
مدهشة وغير متوقعة ، والابدية : آلة محبوبة من الخصال
المحقومة . لقد نذرنا جميعا لتنازله وتنازلنا : يا لمتعة
صمتنا ، حمية ملكاتنا ، محبة انانية وشغف به ، هو الذي
يحبنا مدى حياته الانهائية . . .

واننا لنسترجعه نحونا ويسافر . . . واذا ما العبادة
رحلت ، دوت ، فان وعده يدوي : « الى السوراء هذه
الخرافات ، هذه الاجساد القديمة ، هذه العائلات وهذه
الاعمار . انه هذا العصر بالذات الذي غرق ! » .

انه لن يذهب ، انه لن ينزل ثانية من السماء ، انه لن
يحقق افتداء سخطات النساء وبهجات الرجال وكل هذه
الخطيئة : لانه قد تم الامر ، بكونه هو موجودا ، وكونه
محبوبا .

يا لانفاسه ، رؤوسه ، ركضاته : السرعة المرعبة لكمال
الاشكال والفعل !

يا لخصوبة الروح ورحابة الكون !

جسده ! التحرر المنشود ، تحطم النعمة وقد تشابكت
مع عنف جديد ! بصره ، بصره ! كل السجديات القديمة
والاعباء مرفوعة في اثره .

يومه الغاء كل العذابات الرنانة والمتحركة في الموسيقى
الاكثر حدة .

خطوته ! النزوحات الاضخم من الغزوات القديمة .
اه هو ونحن ! الكبرياء الاكثر رفقا من المحبات الضائعة .
يا للعالم ! والنشيد الصافي للتعاسات الجديدة !

لقد عرفنا جميعا واحبنا جميعا . فلنعرف ، في ليسل
الشتاء هذا ، من لسان بحر الى لسان بحر ، من القطب
الصاخب الى القصر ، من الجمهور الى الشاطئ ، من نظرات
الى نظرات ، بقوى ومشاعر متعبة ، ان نناديه من بعيد وان
نراه ، وان نعكسه ، وتحت طبقات المد والجزر وفي اعلى
صحارى الثلج ، ان نتبع ابصاره ، انفاسه ، جسده ، يومه .

فهرست

٥	١ - طفولة
٣٩	٢ - دم فاسد
٦٩	٣ - تغيير الحياة
١١٥	٤ - العذراء المجنونة
١٤١	٥ - الابدية المستعادة
١٧٢	٦ - الرائي
٢٣٧	٧ - رحيل
٢٦٧	٨ - من الاشعار

صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر
سلسلة اعلام الفكر العالمي

دافيد كوت	فرانز فانون
جون لويس	راسل
كونر كروز اوبراين	البير كامو
السدير ماكنثير	ماركوز
اندرو سنكلير	غيفارا
مارجوري جرين	هيدجر
سي. سبرنغ	ماركس
اريك فروم	فرويد
يانكو لافرين	نيتشه
غريس كارلتون	انجلز
مارسيل بارجوني	ديكارت
رنيه سرو	هيجل
فيليب ثودي	سارتر
غيتان بيكون	اندريه مالرو
تشارلز ازبورن	كافكا
كيروتين واخرون	بوشكين
فالتر نبجلمان	پريخت
نathan سكوت	بيكيت
عصام محفوظ	اراغون
علي ادهم	متزيني
الين فيدرين	ميكيافيللي
اوفي شولتز	كانط
هنري غيمان	هوغو

بيتر پورتر
 جاك مادول
 ارمان غيبير ولويس بارو
 جورج لختهايم
 د • جليل كمال الدين
 دونالد ماكري
 دانيال غرين
 جون غروس
 اندريه كريسون
 د • محمد يونس
 اوريت اصلان
 د • حياة شرارة
 ج • و • ايرلاند
 مايكل ملجيت
 د • محمد يونس
 ريموند ويليامز
 جورج غوفتش
 لوك ديكون
 سمير الحاج شاهين
 جاك سوفيل

غوته
 دستويفسكي
 ليوركا
 لوكاش
 غوركي
 فيبير
 روزا لكسمبورغ
 جويس
 داروين
 تورغنيف
 طاغور
 ماياكوفسكي
 اندريه جيد
 فوكنر
 غوغول
 اورويل
 برودون
 بودلير
 رامبو
 اناطول فرانس
 اوسكار وايلد
 غرامشي
 اودن
 برناردشو
 كينز

هذا الكتاب

« العبقريّة هي الطفولة المستعادة قصدا »

يودليز

نعم ان رامبو هو ذلك الطفل العاجز عن بلوغ مرحلة
النضج والرجولة دون ان يفقد في الطريق خير جزء من
نفسه ، وافضل ناحية من مواهبه . ان النعمة التي
اغدقتها عليه الطبيعة بسخاء هي اسطورة الطفولة ،
نعمة الاستغراق كلية في نشوة الاحساس التي يذوب
فيها بشهوانية وصوفية ، ويعثر فيها للحظة خاطفة ، على
الوهم بغبطة خالدة خارج نطاق الزمان والمكان . نعم :
وعلى حد تعبير جاك بريفيير :

— « ٠٠٠ لقد خلق رامبو ليستمر طفلا خلال الحياة ،
طفلا بقلبه الطاهر والشرير ، ببراءته وطغيانه ٠٠٠ »

السعر

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

طبع في بيروت - لبنان
الطبعة الأولى : ١٩٨١
عدد النسخ : ١٠٠٠